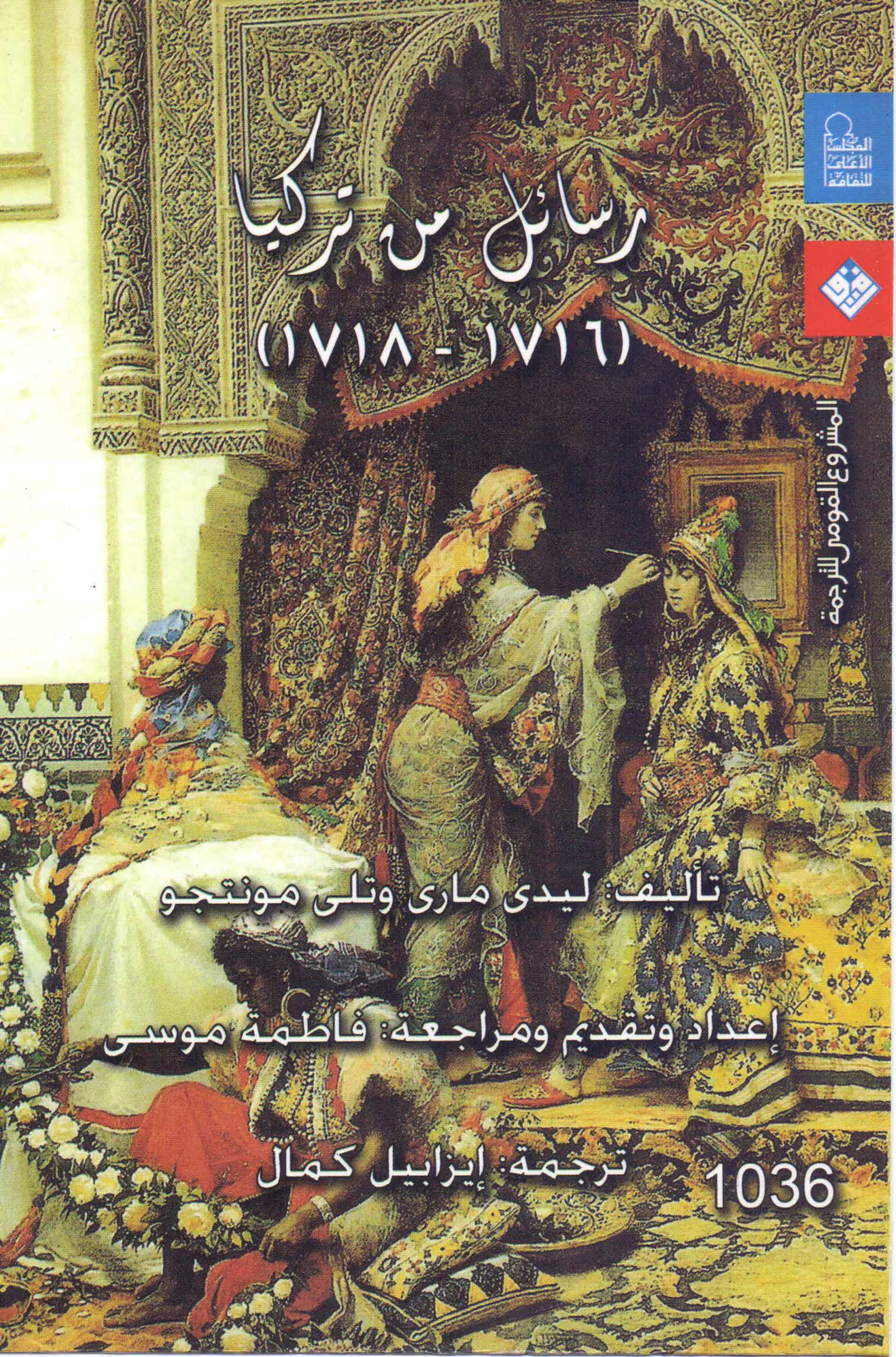

رسائل من تركيا
(١٧١٦ - ١٧١٨)
تأليف: ليدى مارى وتلى مونتجو
إعداد وتقديم ومراجعة: فاطمة موسى
ترجمة: إيزابيل كمال
1036
المجلس الأعلى للثقافة
المشروع القومى للترجمة

رسائل من تركيا
(١٧١٦ - ١٧١٨)

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١٠٣٦
- رسائل من تركيا
- ليدى مارى ورتلى مونتجو
- فاطمة موسى
- إيزابيل كمال
- الطبعة الأولى ٢٠٠٦

هذه ترجمة كتاب :

Letters From Turkey

(1716 - 1718)

by lady Mary Wortley Montagu

edited by Fatma Moussa

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084.

المشروع القومى للترجمة

رسائل من تركيا

(١٧١٦ - ١٧١٨)

بقلم : ليدى مارى ورتلى مونتجو
إعداد وتقديم ومراجعة : فاطمة موسى
ترجمة : إيزابيل كمال



٢٠٠٦

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

مونتجو ، ليدى مارى ورتلى
رسائل من تركيا بقلم : ليدى مارى ورتلى مونتجو، إعداد وتقديم ومراجعة ، فاطمة موسى ، ترجمة : إيزابيل كمال .
- ط ١ - القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٦
٢٣٢ ص ، ٢٠ سم
١ - الرسائل التركية .
(أ) موسى ، فاطمة (معد ومقدم)
(ب) كامل ، إيزابيل (مترجم)
(جـ) العنوان ٨٩٤/٣٥٦

رقم الإيداع ١٩٥١٣ / ٢٠٠٦

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977- 437-046 - 5
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

مقدمة

شهد مطلع القرن الثامن عشر تزايد أعداد الأوروبيين القادمين لزيارة الإمبراطورية العثمانية. هناك السفراء الذين وفدوا من قصور الحكام الأوروبية تتبعهم أعداد غفيرة من الحاشية، وكذلك التجار من كل القوميات، يعملون تحت حماية هذا السفير أو ذاك، وجميعهم لديهم أشغال فى القسطنطينية، مركز الإمبراطورية العثمانية الشاسعة. كانت الأعداد كبيرة، مما جعل المستعمرين الفرنجة يعيشون فى مدينة منفصلة تضم ثلاث ضواحى صغيرة هى بيرا وغلطه وطوفانا. صارت بيرا فى القسطنطينية فى بداية القرن الثامن عشر أشبه بمدينة بابل (تركية أفرنجية)، حيث ترتدى النساء الحجاب بشكل لم يكن مسموحًا به فى القسطنطينية " بهدف إظهار جمالهن".

امتدت سلطات الخليفة العثمانى فى أنحاء أوروبا وآسيا وأفريقيا. ومثلت جيوشه تهديداً متواصلاً لجيرانه من الألمان ، والروس ، والبولنديين. واصطدم أسطوله البحرى بالملاحة فى البحر المتوسط لدرجة كدرت الجمهوريات التجارية الإيطالية ، وطلب مساعدوه السيطرة على الطرق البرية المؤدية إلى البقاع الثرية فى أقصى الشرق حيث كان الإنجليز والفرنسيون والهولنديون يلعبون دوراً خطيراً فى مجال التجارة.

تقدمت القوات التركية فى أوروبا تقدمًا كبيرًا حتى بلغت أبواب فيينا. بدأت فترة التدهور العثمانى الطويل الذى امتد أكثر من قرنين من الزمان بالخيبة التى مُنيت بها قواتهم على أبواب فيينا فى ١٦٨٣ ، ولم ينته ذلك إلا بمعاهدة لوزان فى ١٩٢٣.

على الرغم من أن انتصارات الأمير يوجين التى أدت إلى معاهدة سلام كارلوفيتز ١٦٩٩، و على أساسها تم ضم كل من المجر وترانسلفانيا إلى الصرب، وكل من بودوليا وأوكرانيا إلى بولندا، فإن تركيا ظلت عدوًا مرعبًا لكل العالم المسيحى فى الغرب.

فى عام ١٧١٦ أعتبرت الرحلة البرية من إنجلترا إلى تركيا عملاً بطوليًا فذًا، فقد استغرق سفر السيد ورتلى مونتجو السفير الإنجليزى إلى الباب العالى فى عاصمة الإمبراطورية العثمانية وبصحبته زوجته وحاشيته بأعدادها الكبيرة ما يقرب من ستة شهور ليصل إلى بيتر واردين وهى أقرب بلدة تقع على الحدود بين أراضى النمسويين والأتراك (يوغوسلافيا الآن) التى استولى عليها النمسويون تحت لواء الأمير يوجين قبل ذلك ببضعة شهور (١٧١٦). مكث السفير وزوجته بعض الوقت فى فيينا واستضافهم البلاط الإمبراطورى. كان أرشيدوق النمسا باعتباره إمبراطورًا على رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة التى تدافع عن أوروبا ضد الأتراك. ساعد شكل الحياة التى عاشتها ليدى مارى فى البلاط الإمبراطورى على تمكنها من وصف الأرستقراطية التركية. حيث لم تؤثر أعمال الحرب المندلعة بشكل متواصل على الحدود

الأمامية بدرجة تفسد أشكال المتعة العادية فى كل من العاصمتين المسيحية والمسلمة.

فى وقت كانت فيه وسائل الاتصال حتى بين البلدان المتجاورة شديدة البطء وخطرة ومكلفة ماديًا ، مما جعل معظم أفراد الشعب الإنجليزى يجهلون أنماط حياة ولغات جيرانهم الأوروبيين وأحوالهم العامة ، كان على المسافر نشر وصف لسفرياته والعجائب التى رآها بأم عينيه. واعتمد كثير من الرحالة على جهل جمهورهم الشديد فى الاستعاضة عن نقص تجاربهم بحرية الابتكار والتلفيق. أرضى الكثير منهم ذاته بحكى ما سمعه من رحالة آخرين أو حكى قصص عن نصوص مطبوعة غير موثوق فى صحتها.

وهكذا وجد كثير من الرحالة من الضرورى دحض أوتصحيح أو الإضافة لتلك المعلومات التى نشرها مسافرون قبلهم، ففى العقود الأولى من القرن الثامن عشر أُتيح للقليل من الرحالة الأوروبيين أن يكونوا فى وضع يسمح لهم برواية معلومات صحيحة عن الحياة التركية، فهناك حواجز اللغة والدين وتاريخ الحروب الصليبية بين الأوروبيين المسيحيين والشرقيين المسلمين بوجه عام.

ربما كانت ليدى مارى ورتلى مونتجو (١٦٨٩ ـ ١٧٦٢) أول امرأة إنجليزية تنفذ إلى المساجد وميادين مدينة القسطنطينية الجميلة والعاصمة الرئيسية لتركيا الكبيرة ، وهى كشخصية واسعة الخيال

وزوجة لسفير من بلاط سانت جيمس ، تمتعت بالامتيازات التى خولت لها زيارة حريم الوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة.

زارت الحمّامات التركية التى تتردد عليها معظم نساء الطبقة الأرستقراطية فى العاصمة التركية وربما لهذا لم تقع فيما أطلقت عليه "امتياز الرحالة" أى الكذب.

وربما كانت عينها على إعلام المستقبل وهى تكتب تلك الخطابات التى أرسلتها إلى وطنها فى أثناء مزاولة زوجها لعمله كسفير. علاوة على ذلك، كانت النسخة التى تم إعدادها فى حياتها ونُشرت لأول مرة ضمن مجموعة من خطاباتها الأخرى فى عام ١٧٦٣ معدة للنشر على يد إحدى الكاتبات أو شخص ما يعمل لديها. أدمجت عدداً من الرسائل فى خطاب واحد لتفادى التكرار الممل والتركيز على تنوع الاهتمامات بشكل أساسى، وقدمت هذه الخطابات فى شكلها الأخير صورة كاملة ومتنوعة من الحياة التركية.

تمثل قراءة تلك الخطابات متعة طيبة بسبب وصفها لمجتمع النساء الأرستقراطيات فى العاصمة التركية، فى وقت كانت فيه كل ثروة وجمال الشرق تصب فى مدينة العثمانيين العظيمة. ولَدى مقارنتها بكتب الرحلات الأخرى التى كُتبت فى القرن الثامن عشر، المثقلة بعبارات متناثرة مقتبسة من اللغات القديمة أو نصوص الكتاب المقدس، ندرك أن رسائلها قد صيغت بلغة حميمة ، ووصفت أناسًا حقيقيين يعيشون

محاطين بالبهجة والجمال بأسلوب عذب وطلق مما أضفى على قراءة الكتاب إحساسًا بالراحة.

كانت ليدى ورتلى مونتجو على غير العادة بالنسبة لعصرها، واسعة الثقافة ، لطيفة المعشر. تقدر الأعراف الغريبة للبلاد الأجنبية، رأت الكثير مما راق مزاجها على عكس الكثيرين من أبناء بلادها لم يروا شيئًا أكثر من موضوعات تثير عندهم الكراهية . على رغم من أن مشاهداتها كانت محدودة بالطبقة الاجتماعية التى استطاعت التحرك داخلها فإنها وصفت ما شاهدته بتقدير وعدل واضح. ويعد دورها فى إقناع السلطات بإقرار الطريقة التركية فى التطعيم دليلاً على قوة شخصيتها وسلامة فطنتها.

حصلت ليدى ورتلى مونتجو على قدر وافر من التعليم سابق لعصرها بالنسبة لبنات جنسها فى ذلك الوقت. فقد كان مسموحًا لها وهى بعد فتاة صغيرة بالاستعارة من مكتبة والدها الفاخرة. درست اللغة اللاتينية واكتسبت القدرة على الترجمة ونظم الشعر بسهولة ويسر مما أهلها لصداقة بعض الشخصيات الأدبية المرموقة فى عصرها. بذلت جهدًا عظيمًا لتوثيق معرفتها بإديسون وجاريك وعلى وجه الخصوص ألكسندر بوب (رغم أنهما تخاصما فيما بعد وظلا على خصامهما حتى نهاية حياتهما).

قدمت ليدى مارى ورتلى مونتجو نفسها كخبيرة ماهرة فى فن كتابة الرسائل. خففت من حدة الموضوعات المكتوبة وفقًا لاهتمامات مَن

تكتب إليهم. كتبت إلى شقيقتها (كونتيسة دى مار) عن النظام المنزلى لقصر السفارة الذى تعيش فيه، وعن أخبار عائلتها ، وعن خبرتها مع البيوت التركية وسكانها من الداخل. كتبت إلى أميرة ويلز عن فقر رعايا الملوك الأجانب ، وعن الصعوبات التى واجهتها فى طريقها والصعوبات التى واجهتها بسبب حماس زوجها فى خدمة جلالة الملك ، وكتبت إلى زوجات معارفها تصف الحمّامات التركية، والأسواق ، وغير ذلك من الأمور التى تثير اهتمامهن، مثل المجوهرات والنفقات الباهظة التى اعتادت عليها السيدات التركيات.

إلا أن رسائلها إلى بوب والأب كونتى أبرزت شكلاً مختلفًا من الاهتمامات؛ فقد كتبت إلى الأب كونتى عن عادات الأتراك، وشئونهم السياسية والدينية. أما الشاعر فكتبت له عن الأدب خاصة الشعر والارتباط الوثيق بين الطبيعة وسلوك الريفيين وعاداتهم وعن شعر هوميروس الذى ترجم له بوب بعد ذلك ملاحمه.

مثل غيرها من الرحالة الإنجليز فى القرن الثامن عشر زارت ليدى مارى أماكن عديدة وكتابات هوميروس فى يد والإنجيل فى الأخرى. أمعنت النظر وتأملت أساسًا فى وصف التداعيات والخواطر التى أثارتها لديها الأماكن التى زارتها ووجدت ارتباطًا أو علاقة ما بينها وبين الأدب الكلاسيكى وتعاليم الإنجيل. حاولت إظهار اهتمام بالتحف وتجشمت عناء وصفها إذ قد يكون لذلك صدى من الاهتمام لدى أصدقائها المثقفين. ولعل انحصار رسائلها فى مخاطبة أشخاص من عليةالقوم خلف لنا كتاب رحلات من طراز يمتاز على كتب رحلات القرن

الثامن عشر المحترفة. من حسن الحظ أن دائرة معارفها كانت أكثر اتساعًا مما أُتيح لغيرها وعاشت رسائلها على مر الزمن ليس فقط بسبب وفرة المعلومات التى قدمتها بل بسبب توفيقها بين المرح المفعم بالحيوية والعقل المثقف والذوق الرفيع.

د. فاطمة موسى

إلى الكونتيسة (مار)

روتردام،

الجمعة في الثالث من أغسطس ١٧١٦

يسرني يا شقيقتي العزيزة أن أخبركِ أنني عبرتُ البحر بأمان رغم هبوب عاصفة لسوء الحظ. أقنعنا قبطان اليخت بالبقاء على السطح في هدوء، وزعم أنه ليس هناك ما هو أسهل من عبور المد، لكن بعد يومين من الحركة البطيئة، هبت الريح بقوة شديدة، لدرجة أن البحارة فقدوا توازنهم ، وكانت ليلة الأحد، وجميعنا نرتدي أفضل ما لدينا من ملابس على عجل. لم أر في حياتي رجلًا مرعوبًا أكثر من القبطان!!

فيما يتعلق بي، كنت محظوظة، فلا عانيت من الخوف ولا من دوار البحر، ومع ذلك أعترف، أنني كنت متلهفة أن أرى نفسي على اليابسة مرة أخرى، لدرجة أنني لم أستطع البقاء حتى يصل اليخت إلى روتردام، بل ذهبت في مركب طويل إلى هيلفويتسليز حيث حملتنا العربات إلى بريل.

فتنتنى نظافة تلك البلدة الصغيرة، لكن وصولى إلى روتردام منحنى مشهداً آخر من السعادة. كل الشوارع مرصوفة بأحجار عريضة، وأمام أبواب أصغر الورش توجد مقاعد من الرخام بألوان مختلفة، شديدة النظافة . أؤكد لك أننى سرت بالأمس فى معظم البلدة تقريبًا ، متخفية، ليس فى قدمى إلا خف، ولم تتسخ قدماى ببقعة صغيرة من الطين، وقد تشاهدين الخادمات يغسلن أرصفة الشوارع وهن أكثر انكبابًا على عملهن مما تفعله خادماتنا فى غرف النوم. تكتظ البلدة بالناس، بوجوه نشطة، الجميع يتحركون لدرجة أننى لا أتصور أن ذلك ليس احتفالًا أو مناسبة ما، لكن ذلك يحدث كل يوم. من المؤكد أنه ليس فى العالم بلدة أكثر ملائمة منها للتجارة. هنا سبع قنوات طويلة، تسير على مياهها سفن التجار حتى تقترب بهم من أبواب منازلهم. الحوانيت والمتاجر تثير الدهشة بنظافتها وروعتها، مليئة بكميات لا تصدق من البضائع أرخص بكثير مما نراه لدينا فى إنجلترا، لم أقتنع بسهولة بأننى لازلت قريبة جدا منها. هنا لا ترين القذارة ولا المتسولين.

لا يصدم المرء برؤية أولئك المقعدين الذين تعافهم النفس، ذلك المشهد المألوف فى لندن، ولا يضايقك إلحاح الكسالى العاطلين أو نبغايا وقد اخترن الشر والكسل. الخادمات العاديات والعاملات فى الحوانيت هنا أكثر نظافة ورقة من معظم سيداتنا الراقيات، وذلك التنوع الكبير فى الأثواب النظيفة (جميع النساء يرتدين غطاء الرأس يتناسب مع ملابسهن) مما يمنح المزيد من السعادة لمن يرى المدينة.

كما ترين يا شقيقتى العزيزة حتى الآن لا أتذمر ولا أشكو ، وإذا استمرت رغبتى فى الترحال كما هى الآن لن أندم على مشروعى. وسأمضى فيه إلى أبعد درجة ممكنة لكى أشعر بالرضا عن نفسى، إذا استطعت أن أسليك وأمتعك. لكن ليس من هولندا التى لابد أنك لا تتوقعين منها موضوعات تثير اهتمامك. بمقدورى أن أكتب لك الكثير عن نمط العيش فى روتردام لأقول لك بوضوح، وفى كلمة واحدة أتوقع منك أن تكتبى لى بالمقابل عن كل أخبار لندن. ترين أننى بالفعل تعلمت القيام بصفقة طيبة، ولا يوجد شىء بلا مقابل .

شقيقتك المخلصة

* * *

إلى السيدة س ـــــ سميث

لاهاى ٥ أغسطس ١٧١٦

أكتبُ إليك فى عجالة، يا سيدتى العزيزة، لأخبرك، أنه بعد كل المتاعب الخطيرة التى حذرتينى منها، أنا حتى الآن سعيدة برحلتى وأستمتع بها. لقد وضعنا فى اعتبارنا السفر على مراكب قصيرة كل يوم، لدرجة أننى أنا نفسى أتصور أننى أستمتع بعدد من الرحلات ولست على سفر، ومن المؤكد أنه لا شىء يفوق متعة السفر إلى هولندا. فالبلد كلها تبدو كحديقة كبيرة، كل طرقها ممهدة ، تظللها على الجانبين

صفوف الأشجار، وتحيطها القنوات الممتدة، مليئة بالقوارب الكبيرة، تروح وتجيء فوق مياهها. كل عشرين خطوة تجدين أمامك ڤيللا، وكل أربع ساعات تمرين ببلدة كبيرة، نظيفة لدرجة الإبهار. أنا واثقة أنك لو كنت معنا لافتتنت بها. أكتب لك الآن من واحدة من أجمل قرى العالم. بها كثير من الميادين الرائعة محاطة بالأشجار الضخمة الكثيفة. والميادين هنا تشبه كثيرا حديقة هايدبارك، وكذلك الأسواق الكبيرة التى يتردد عليها علية القوم، حيث يستمتعون بالهواء الطلق سيراً على الأقدام أو فى مركباتهم. هناك متاجر متخصصة فى بيع رقائق البسكويت والمشروبات الطازجة وغيرها ...

لقد شاهدت عديداً من الحدائق أكثر شهرة، لكننى لن أضايقك بالإسهاب فى وصفها. لأننى واثقة أن خطابى طال بما يكفى. لكن لا يمكن لى أن أختتمه دون أن أعتذر لك لعدم طاعتى لأوامرك، بإرسال قطعة قماش الدانتيل التى طلبتيها منى. وأقسم لك أننى لم أجد هنا شيئًا يختلف عما فى لندن، على وعدى لك بإرسالها لكنى لم أجد حتى الآن شيئا يختلف عما يمكن أن تشتريه من لندن بثمن أرخص. إذا كنت تريدين أية منتجات هندية فهنا كثير منها بأثمانٍ زهيدة.

أما عنى فاعدك أننى سأتبع أوامرك عن طيب خاطر وبدقة متناهية.

* * *

إلى الكونتيسة بريستول

نورمبرج ٢٢ أغسطس ١٧١٦

بعد خمسة أيام من السفر السريع لن أتمكن من الجلوس لكتابة هذا الخطاب فى مناسبة أخرى لكى أخبرك سيدتى العزيزة أننى لم أنس أوامرك التى تفضلت علىَّ بها بإرسال بعض أخبار رحلتى لك.

لقد مررنا بجزءٍ كبيرٍ من ألمانيا وشاهدنا أكثر معالم كولونيا وفرانكفورت وفورسبرج وهذا المكان ! ومن المستحيل على المرء ألا يلحظ الفرق بين البلاد الحرة وتلك القابعة تحت نير الحكم المطلق لشرزمة من الأمراء، مثل الأمراء المسيطرين على المقاطعات الصغيرة فى ألمانيا. فى النوع الأول تتوافر الحياة الاجتماعية والتبادل الفكرى والتجارة. الشوارع مرصوفة جيدا وعامرة بالبشر على درجة عالية من النظافة وحسن الذوق فى الملبس. المتاجر عامرة بالبضائع والسلع، والعامة تفيض وجوههم بالبشر والنظافة. أما النوع الآخر، فيطغى عليه نوع من البهرجة فى الملابس رغم رثاثتها، كثير من أفراد الطبقات الدنيا يبدون فى تلك الهيئة، الشوارع ضيقة وقذرة، لم تمتد لها يد الإصلاح، بها قليل من السكان البائسين، أكثر من نصفهم يعيشون على التسول. لم أستطع أن أوقف خيالى عن رسم لامرأتين، واحدة فى شخصية زوجة مواطن هولندى نظيف ووسيم، والأخرى لمومس فقيرة فى ملابسها وغطاء رأسها الممزق وحذائها ذى الأربطة الفضية التى فقدت بريقها وقميصها البالى،مزيج بائس من الفقر والإثم.

لديهم قوانين فى تلك البلدة تميز بين الطبقات الاجتماعية بالزى الذى يرتدونه، وتمنع الإسراف الذى يفسد غيرها من المدن، ويجد هذا الشكل صدى طيبًا فى عيون الغرباء أكثر من أزيائنا المحلية . أعتقد بعد توضيح رئيس أساقفة كامبرى أننى لن أشعر بالخجل من أمنيتى بتطبيق تلك القوانين فى أنحاء العالم الأخرى بشكل إلزامى. عندما ينظر المرء نظرة محايدة لمزايا الملابس الفاخرة فى معظم الأماكن ، الاحترام والابتسامات لما تبدو عليه، ناهيك عن الحسد والغيرة وما يتركه فى النفس من أحاسيس سلبية ، (وغالبًا يكون هذا مصدرًا أساسيًا لجاذبية من يرتديه) لا يمكننا إلا أن نعترف أن هناك حاجة لفهم غير عادى لمقاومة إغراء الأصدقاء المبهجين والأنداد الذين يميتون أجسادهم ويكبحون شهواتهم، لكن من الطبيعى أن يقع الشباب فى بعض الحماقات، مما يغرر بهم وصولًا إلى تلك الرغبة فى المال الذى هو أصل كل الشرور. كثير من البشر بدأوا حياتهم بنوايا طيبة تحولت بعد ذلك إلى أسباب بؤس للعالمين أجمعين، مدفوعين فى طريق الإسراف العقيم حتى يقعوا فى الديون التى تؤدى إلى فقدان الكرامة، التى لن يكتسبوها إطلاقًا إذا اقتصر الاحترام على عاداتهم المكتسبة بقوة القانون وحده للون معين أو قطعة قماش ناعمة! هذا العار يجلب وراءه المزيد من العار، فينزعون للإحساس بالكآبة والانقباض. سأعمل على سرعة إخراج هذه الأفكار من رأسك وأحكى لك عن الآثار المقدسة التى استمتعت كثيرا بمشاهدتها فى كل الكنائس الكاثوليكية.

حتى أتباع لوثر لم ينجوا تمامًا من تلك الحماقات. فقد رأيت هنا فى الكنيسة الأم جزءًا كبيرًا من الصليب مرصعًا بالجواهر، ومكان الحربة، التى قالوا عنها إنها ـ ويا للقسوة الشديدة ـ نفس الحربة التى طعن بها مخلصنا يسوع المسيح فى جنبه. لكنى ابتهجت بشكل خاص لدى مشاهدتى إحدى الكنائس الكاثوليكية الصغيرة التى سمحوا بإقامتها هنا، وأفراد تلك الطائفة ليسوا على درجة عالية من الثراء، وبالتالى لا يمكنهم أن يزينوا كنيستهم بالتماثيل بمثل ما يفعله جيرانهم . لا يمكننا بالطبع الزعم بخلوهم تمامًا من البهرجة، فأضفوا على تمثال مدلى على المذبح ملابس على صورة ملابس مخلصنا، وغطوا رأسه بشعر مستعار أشقر اللون. أتخيل أننى أرى شخصك الكريم تحملقين فى هذه الفقرة وتشكين كثيرًا فى صحتها، لكن بشرفى إننى حتى الآن لم أستغل الامتياز الذى يستغله الرحالة، وكل ما أرويه لك أكتبه لك بنفس الإخلاص الصافى النابع من القلب مع تأكيدى لك أننى صديقتك المخلصة يا سيدتى العزيزة .

* * *

إلي كونتيسة مار

فيينا فى ٨ سبتمبر ١٧١٦

لقد وصلت الآن يا شقيقتى العزيزة إلى فيينا بأمان الله، والحمد لله حتى الآن لم أعانِ أية مشاكل صحية، ولا ابنى (وهو الأهم إلى قلبى) رغم ما عانيناه من إجهاد.

أبحرنا من راتيسبون، وكانت الرحلة فى تلك القوارب الصغيرة على نهر الدانوب ، رحلة ممتعة، وتلك القوارب تشبه البيوت الخشبية، بها تقريبًا كل ما يمكن أن تجديه فى قصر ، مواقد التدفئة فى الحجرات والمطابخ إلى غير ذلك .. وكل قارب به اثنا عشر رجلًا يجدفون. وتتحرك القوارب بنعومة لا تصدق، لدرجة أنه فى نفس اليوم استمتعنا بعدد كبير من المناظر الطبيعية الخلابة، وفى خلال ساعات قليلة كان لدينا فسحة من الوقت لمشاهدة مدينة آهلة بالسكان تزدان بالقصور الفخمة والحدائق المنسقة التى تبدو على مبعدة من الأماكن التجارية الآهلة بالبشر. أما ضفاف الدانوب فتتنوع بها أشكال السحر والفتنة من غابات، وصخور، وجبال تغطيها الكروم، وحقول الحنطة، والمدن الممتدة، وأطلال القلاع العتيقة. لقد رأيت مدينتى باساو ولينز الكبيرتين الشهيرتين بتقهقر القصر الإمبراطورى إليها عندما حوصرت مدينة فيينا.

هذه البلدة، التى تحظى بشرف محل إقامة الإمبراطور، لم تطابق إطلاقًا فكرتى عنها، فهى أصغر بكثير مما توقعت، وشوارعها ملتصقة ببعضها البعض، وضيقة جدا، حتى لا يكاد المرء يلحظ الواجهات الرائعة لتلك القصور المنيفة، رغم أن كثيرًا منها يستحق بجدارة أن يسترعى الانتباه ، فهى رائعة بحق، كلها مبنية بالأحجار البيضاء الناعمة، وشديدة الارتفاع. إنها بلدة أصغر بكثير جدا من عدد السكان الذين يعيشون فيها، ويبدو أن العاملين فى صناعة البناء قد شرعوا فى إصلاح ذلك الحظ العاثر، بإقامة بلدة أخرى فوق أسطح المنازل، فمعظم البيوت

تتكون من خمسة طوابق، بل بعضها من ستة. من السهل أن تتخيلين مدى ضيق الشوارع، والحجرات العلوية شديدة الظلمة . أما الشيء الغريب المزعج - والذى لا يطاق من وجهة نظرى - أن كل منزل به ما لا يقل عن خمس أو ست عائلات على الأقل. الشقق التى تسكنها السيدات الأرستقراطيات، وحتى بيوت وزراء الدولة، مقسمة بحواجز من تلك التى يصنعها الخياط أو صانع الأحذية، وأعرف أنه لا يمكن لأى شخص أن يستأجر أكثر من طابقين فى المنزل، الطابق الأسفل لاستخدامه الشخصى والعلوى لخدمه. أما أولئك الذين يمتلكون بيوتًا خاصة بهم، يؤجرون بقية الطوابق لمن يرغب، وأن الدَرج الكبير (المصنوع كله من الأحجار) يستخدمه الجميع، قذر مثل الشارع العمومى. والحقيقة أنك عندما تسافرين ذات مرة وتمرين بتلك البلدان لن يدهشك شيء أكثر من الشقق السكنية. فهى جناح يتكون من ثمانى أو عشر حجرات ، كلها فسيحة ومزخرفة، والأبواب والنوافذ منحوتة ومطلية بالطلاء الذهبى، والأثاث من النادر وجوده فى البلاد الأخرى إلا فى قصور الأمراء الإقطاعيين، والسجاجيد المعلقة على الحوائط مزدانة بالرسوم والصور فى أحلى أشكالها، يستوردونها من بروكسل، والمرايا الضخمة فى إطاراتها الفضية والمناضد والأسرَّة والمقاعد الجميلة والناموسيات التى تغطى الأسرَّة ، وستائر النوافذ من أفضل أنواع الحرير أو المخمل يستوردونه من جنوة، أغلبها مزينة بأشرطة أو تطريز من الذهب. واللوحات الزاهية الألوان ، والأوانى المستوردة ، وغالبًا كل حجرة بها إناء ضخم من الكريستال ذى البريق الأخاذ.

حظيت بشرف الدعوة لتناول العشاء فى كثير من بيوت الطبقة الراقية، ويجب أن أوفيهم حقهم وأقول إن الذوق الرفيع و الطعام والشراب الفاخر يناسب أثاث بيوتهم الراقى. أكثر من مرة أستمتع بمذاق خمسين نوعًا مختلفًا من اللحوم كلها فى أطباق من الفضة ومرصوصة بنظام ، وبقية الأطباق من أفضل أنواع الخزف. والأكثر إبهارًا تنوع وثراء خمورهم. والأسلوب المتبع، هو عمل قائمة بأسمائها أمام أطباق الضيوف وكذلك مناديل المائدة، وذات مرة قمت بإحصاء ثمانية عشر صنفًا مختلفًا كلها طيبة الطعم والذوق.

لم أتشرف بعد بالدعوة إلى القصر، حيث إننى مضطرة للبقاء فى انتظار إتمام الرداء الخاص بى، الذى لا يمكن للإمبراطورة أن تستقبل أية سيدة بدونه، على الرغم من أننى أتلهف لرؤية ذلك الجمال الذى أسر كثيرا من الأمم المختلفة. وعندما أحظى بشرف تلك الدعوة لن يفوتنى أن أحكى لك عن مشاعرى وأفكارى الحقيقية، ذلك أننى أشعر بغبطة غير عادية عندما أحكى لك تلك الأشياء يا شقيقتى العزيزة.

* * *

إلى السيد بوب (الشاعر ألكسندر بوب)

فيينا فى ١٤ سبتمبر ١٧١٦

ربما ستسخر لأننى أخذت كل ما طوقت به عنقى من اهتمام مأخذ الجد. صحيح أننى أحيانا آخذ ما تقوله على سبيل الدعابة والمرح، وربما من المفترض أن آخذها على محمل الجد. لكنى لم يسبق لى إطلاقًا أن كنت ميالة ولو لنصف ميل لتصديق ما تقوله وآخذه مأخذ الجد، وهذه المسافة التى جعلت استمرار صداقتى بك أمرًا بعيد الحدوث، هى نفسها التى زادت إيمانى بكلامك لدرجة كبيرة جدا، ووجدت أننى (مثل غيرى من بنات جنسى) مهما يكن على السطح الخارجى، لدىَّ فى الحقيقة ميول قوية لتصديق المعجزات. أخالنى تأثرت بالجو المحيط بتلك البلدان الكاثوليكية، على الرغم من أننى حتى الآن تدهشنى بعض الأمور المتعلقة بنظام الكنيسة الإنجليزية، ذهبت الأحد الماضى إلى الأوبرا، وكان العرض فى حديقة الفافوريتا وقد استمتعت كثيرا بحضوره، ولم أندم على مشاهدته. لم يسبق لى أن شهدت عرضًا فى مثل عظمة وجلال ذلك الحفل، ومن السهل تصديق ما قيل عن الديكورات والأزياء التى كلفت الإمبراطور ثلاثين ألف جنيهًا إسترلينيًا. أُقيم المسرح فوق قناة طويلة ، وفى بداية الفصل الثانى انشقت المنصة نصفين، كاشفة عن مياه القناة، وفى الحال تقدمت من الجزءين قافلتان من القوارب الصغيرة المذهبة، تعبيرًا عن معركة بحرية فى مشهد شديد الروعة أثار اهتمامى. كذلك بقية المشاهد كانت رائعة. كانت قصة الأوبرا هى سحر آلسينا، بها

فرص كثيرة لتقديم عدد شديد التنوع من الآلات والحيل المسرحية، وتغيير المناظر، وتم تقديم ذلك كله بخفة ورشاقة مذهلة. كان المسرح شديد الاتساع، لا يمكن للعين أن تصل لنهايته، والأزياء رائعة، وصل عددها إلى مائة وثمانين زيًا. لا يمكن لأى خشبة مسرح أن تسع مثل هذا العدد الضخم من الديكورات، وجلست السيدات جميعًا في الهواء الطلق، واستمتعن بعرض غير تقليدى حيث لم تكن هناك غير مقصورة واحدة لعائلة الإمبراطور. وتصادف فى الليلة الأولى للعرض أن هطلت الأمطار بشدة، فتوقف عرض الأوبرا، وحدث ارتباك شديد بين جمهور النظارة، كدت أموت مضغوطة بينهم.

لكن إذا جاز القول إن ما يقدمونه من أوبرا يبهج النفس، فما يقدمونه من كوميديا يصل إلى درجة عالية من السخرية. و ليس لديهم سوى مسرح واحد،اعترانى الفضول للذهاب لمشاهدة الكوميديا الألمانية، ومن محاسن الصدف كانوا يعرضون قصة أمفتريون، وهذا الموضوع تناوله كثير من شعراء اللاتينية والفرنسية والإنجليزية، اعترانى فضول لمشاهدة ما يمكن لكاتب صربى أن يكتبه فى نفس الموضوع. كنت على دراية باللغة بدرجة تمكننى من فهم جزء معقول من العمل، وبالإضافة لذلك اصطحبت سيدة كانت شديدة الكرم معى وشرحت لى العرض كلمة كلمة. وكان الأسلوب المتبع هو الحصول على مقصورة تسع أربعة أشخاص للمشاهد ولمن معه. والسعر ثابت وهو دوكاتية واحدة. كان المسرح شديد الانخفاض ومظلم، لكننى أعترف أن إعجابى بالكوميديا عوض ذلك العيب. لم أضحك فى حياتى كلها لهذه

الدرجة. بدأت المسرحية بوقوع جوبيتر فى الحب وهو يختلس النظر من خلف ثقب وراء السحب، وانتهت بميلاد هرقل. لكن أكثر ما أضحكنا استخدام جوبيتر للمسخ الذى ظهر على صورته، وسرعان ما تراه بعد ذلك فى صورة أمفتريون، لكن بدلًا من الطيران مع كلمات الجذل والنشوة التى وضعها شاعرنا درايدن على شفتيه، أرسل فى طلب حائك ملابس أمفتريون واحتال عليه فى معطف مزدان بأربطة، وأخذ منه حقيبة نقود، وجوهرة خاتم من الماس، وحجز غرفةً فى فندق، وعشاءً فاخراً منتحلًا اسمه، وأهم ما يضحك فى هذه الكوميديا المعاناة التى لاقاها أمفتريون ممن طالبوه بديونه، وقد استغل ميركورى سوشيا بنفس الطريقة. وقد أخذت على المعد تلك الحرية التى مارس بها إضافات للنص الأصلى، ليس فقط بالتعبيرات البذيئة والتى تخلو من الذوق والحشمة، ولا أعتقد أن القاعدة العريضة من جمهورنا تروقها دراما تدور حول أمور الشعوذة والاحتيال.

لن أزعجك بمجاملات الوداع، التى أعتقد عمومًا أنها لا تمت بصلة للكياسة واللياقة عند مغادرة المكان، عندما تكون الزيارة قد طالت بالفعل .

* * *

إلى كونتيسة مار

فيينا فى ١٤ سبتمبر ١٧١٦

على الرغم من أننى قد أزعجتك مؤخراً يا شقيقتى الغالية بخطاب طويلٍ، لن أحنث بوعدى وسأحكى لك أحداث زيارتى الأولى للبلاط الإمبراطورى.

اضطررت استعداداً لتلك المناسبة أن أضغط نفسى فى ملابس ضيقة، وأتحلى بطوق فى عنقى وغير ذلك من الحلى وأدوات الزينة. علاوة على ذلك كان الثوب ضيقًا جدا، لكنه يكشف عن عنقى وأكتافى فى شكل رائع. لا يمكن أن أذهب لهذا المكان دون أن أصف لك قليلاً الملابس هنا، فهى أكثر بشاعة وعلى عكس كل ما يقتضيه الذوق العام والعقل. فهنَّ يضعن على رءوسهنَّ طرحًا من التل يصل طولها إلى ياردة كاملة، تتكون من ثلاث أو أربع طيات يمتد منها ما لا يعد ولا يحصى من الأشرطة الثقيلة. ذلك البناء الموضوع على رءوسهن يطلقون عليه بورل وهو على نفس الشكل والنوع تمامًا، لكنه يفوقه فى الحجم أربع مرات، مثلما تفعل عاملات الألبان لدينا لحمل الدلاء المليئة باللبن. وهذا الشىء الذى يضعنه على رءوسهن يغطينه بشعورهن، وقد اختلطت بكثير من الحلى المقلدة، ويبدو أن ذلك يمثل لديهن نوعًا خاصًا من الجمال أن تكون رءوسهن فى مثل ذلك الحجم الهائل الذى لا يسمح لهن بدخول الحمّامات المتواضعة. وشعورهن مزينة بشكل متكلف جدا، ولإخفاء ذلك

الخليط، والخروج وعلى رءوسهن ثلاثة أو أربعة صفوف من دبابيس الشعر (وهى طويلة بشكل غير عادى لدرجة أن الجزء الظاهر منها خارج الشعر لا يقل طوله عن بوصتين أوثلاث بوصات) وهى مصنوعة من الماس واللآلئ والأحجار الكريمة المختلفة بألوانها الحمراء والخضراء والصفراء، وأظن أن هذا يتطلب قدراً عالياً من الفن والخبرة تمكنهن من حمل هذا الثقل فوق رءوسهن، والخروج به كما لو كنّ يرقصن رقصة الربيع حول العمود وهنّ يحملن أكاليل من الزهور. أما القمصان التى يرتدينها تحت أثوابهن فتفوق مثيلتها لدينا بعدة ياردات اتساعاً وتمتد أذيالها خلفهن تغطى فدادين من الأرض.

من السهل أن تدركى كيف يبرهن هذا الزى الشاذ على القبح الطبيعى الذى منحتهم إياه العناية الإلهية عموماً. حتى الإمبراطورة الجميلة نفسها مضطرة، إلى حد ما، أن ترتدى مثل هذا الزى القظيع، الذى لا يجد له إطلاقاً محلاً من التعاطف من العالم أجمع. حظيتُ بمقابلة شخصية مع الإمبراطورة لمدة نصف ساعة ،(طبقاً للمراسيم المتبعة) ثم سُمح بعدها للسيدات الأخريات بالدخول، وعُقد حفل الاستقبال. شد ما افتتنت بالإمبراطورة! ومع ذلك لا أستطيع القول إن ملامحها متناسقة، فعيناها ليست واسعة، لكن نظرتها مفعمة بالحيوية والعذوبة، وبشرتها شديدة النعومة، وأنفها ووجنتيها بديعتا الحسن، وفمها أكثر سحراً عشرة آلاف مرة ، إنه سحر يلمس الروح. عندما تبتسم بجمال وعذوبة تدعوك للافتتان بها. شعرها غزير وكثيف ، ثم

شخصيتها! على المرء أن يصف شخصيتها شعراً حتى يوفيها حقها بعدل، فكل ما قاله الشعراء عن سحر ملامح جونو ملكة السماء في أساطير اليونان القديمة وعن قسمات فينوس لم يصل إلى جزء من الحقيقة. فالجمال يتحرك مع خطواتها، إن تمثال ميديا لم يتشكل بنسب أكثر رقة، لا يمكن إضافة لمسة أخرى من الجمال لعنقها وكفيها. لم أكن قبل أن أراها أصدق أن هناك عنقًا وكفين بهذا الكمال، وللأسف الشديد إن منزلتى الاجتماعية هناك لم تسمح لى أن أقبلهما، لكنهما بالطبع لاقيا ما يكفيهما من القبلات، لأن الجميع ينتظرون تقديم هذه التحية لدى دخولهن وخروجهن.

عندما اكتمل حضور السيدات جلست الإمبراطورة للعب الورق، ولم أشترك فى اللعب فلم يكن لى دراية سابقة باللعبة التى يلعبنها ، أمرت جلالتها بإحضار مقعد لى لأجلس على يمينها وراحت تحدثنى بكرم حديثًا مطولاً ، وهذا الكرم سمة طبيعية تتحلى بها. كنت أظن أن الرجال سيدخلون ليقدموا تحياتهم إلى البلاط وأتوقع دخولهم كل لحظة لكن قاعة الاستقبال هنا شديدة الاختلاف عن نظيرتها فى البلاط الإنجليزى، لا يدخلها من الرجال إلا كبير الحجاب الذى يدخل ليعلن الإمبراطورة بقدوم الإمبراطور، وقد شرفنى جلالته بالحديث معى بلطف ، لكنه لم يتحدث مطلقًا مع أية سيدة أخرى من الحاضرات، وحدث كل ذلك فى وقار وجو من الحفل البهى الذى يوحى بالرسميات.

حضرت هذه الأمسية الإمبراطورة أماليا أرملة الإمبراطور السابق جوزيف، فى زيارة رسمية للإمبراطورة الحالية، وكانت بصحبتها ابنتاها الأرشيدوقتان، وهما أميرتان على جانب وافر من الحسن والبهاء. نهضت جلالة الإمبراطورة وذهبت لتلقاها عند باب القاعة، وبعد ذلك أجلستها على فوتيه مقابل لها، والوضع نفسه عند العشاء، وسمح آنذاك للرجال بالدخول الرسمى. جلست الأرشيدوقتان على مقاعد ذات ظهور دون مساند على الجانبين. كانت المائدة عامرة بالأطباق الشهية، وقامت بالخدمة وصيفات الشرف الخاصات بالإمبراطورة، وكنّ اثنتى عشرة فتاة أرستقراطية. تلك الوصيفات لا يتقاضين رواتب عن عملهن، لكنهن يعشن فى البلاط الإمبراطورى، مقيدات إلى حد ما، ولا يحضرن المقابلات الرسمية التى تتم فى الأماكن العامة فى البلدة، إلا لحضور زفاف واحدة منهن، وتقوم الإمبراطورة عادة بتقديم الهدايا للعروس فى هذه المناسبة، على هيئة جواهر من الماس، عليها صورتها. يطلق على الوصيفات الثلاث الأول سيدات المفتاح، وهن يحملن مفاتيح ذهبية، لكن الشىء الأكثر إثارة لى، هو تلك العادة التى يتبعنها طول حياتهن، بعد رحيلهن عن خدمة الإمبراطورة، حيث يأتين فى عيد ميلادها كل عام ويقدمن لها الهدايا. وجلالتها لا تضع فى خدمتها امرأة متزوجة عدا كبيرة الوصيفات التى تكون عادة أرملة من الطبقة الأرستقراطية، ودائما كبيرة السن، وفى نفس الوقت هى الوحيدة المختصة بإتمام ارتداء الملكة لملابسها، ومسئولة عن الإشراف على الوصيفات الأخريات اللاتى لا

يتمتعن بالمظهر الذى نزعمه فى إنجلترا، حيث لا يزدن فى الواقع عن الخادمات المسئولات عن غرف النوم.

حظيت اليوم التالى بشرف اللقاء مع والدة الإمبراطورة، وهى أميرة فاضلة وطيبة للغاية، لكنها متشددة على نفسها جدا فى ممارسة العبادات إلى حد عنيف، فهى دائمة الصلاة وتقديم أشكال من شعائر التوبة عن ذنوب لم تقترفها. وعندها نفس العدد من وصيفات الشرف، وهن يرتدين ملابس ملونة، أما هى شخصيًا فلم تخلع ملابس الحداد إطلاقًا، ومن المؤكد أنه لا شىء يثير الكآبة ويقبض الصدر أكثر من الحداد هنا، حتى لو كان المتوفى شقيقًا. فلا تقع العين على لون فاتح ولا أى شىء ملون حتى الملابس الداخلية، بل تلف عصابة من الكريب الأسود، على القبعة وعلى الأكمام وكل شىء. وحول الرقبة والأذنين ويغطى جانب من الوجه بقطعة مطوية من نفس القماش، والوجه الذى يلوح بين هذا السواد يبدو كأنه يخرج من آلة التعذيب الخشبية التى تدخل فيها يدا المجرم ورأسه. والأرامل تضع علاوة على ذلك غطاء كريب على جبهتها، وفى زى الحداد الكئيب هذا تذهب إلى الأماكن العامة للهو دون أدنى شعور بالذنب.

كان علىَّ فى اليوم التالى الذهاب فى زيارة رسمية للإمبراطورة أماليا التى تقيم حاليًا فى قصر فى منتجع منعزل يبعد نصف ميل عن البلدة. استمتعت هناك بمشاهدة مسرات جديدة تمامًا علىّ، لكن أشد ما سحرنى فى هذا القصر أن الإمبراطورة بشخصها تجلس على كرسى

عرش صغير فى نهاية ممر رائع فى الحديقة، وعلى جانبيها صفان من وصيفات الشرف وغيرهن من شابات الطبقة الراقية، وعلى رأسهن الأرشيدوقتان الشابتان، كل منهما تزين شعرها بالمجوهرات، وفى يدها بندقية صغيرة لطيفة، وعلى مسافة مناسبة ووضعت ثلاث لوحات بيضاوية الشكل استعداداً للتصويب عليها. اللوحةالأولى كانت لكيوبيد، وهى مليئة بكئوس الخمر البرجندية التى تُصنع فى فرنسا، والشعار المكتوب عليها "من السهل أن تكون شجاعًا"، واللوحة الثانية لوحة الحظ وعليها إكليل من الزهور والشعار المكتوب عليها "إلى من يحابيها الحظ"، والثالثة كانت لصورة سيف ، وفى موقع التصويب إكليل من الزهور والشعار المكتوب عليها "لا بأس عليك إذا انهزمت".

بالقرب من الإمبراطورة نصب تذكارى مطلى بالذهب ومزدان بأكاليل الغار، وهو مكوّن من انحناءات معقوفة تتدلى منها المناديل والشيلان والشرائط والأوشحة التركية الغالية من أجل الجوائز الصغيرة. وقامت الملكة شخصيًا بتسليم الجائزة الأولى بيدها ، وكانت الجائزة خاتمًا من الياقوت المرصع بالماس فى علبة سعوط ذهبية. والجائزة الثانية تمثالٌ لكيوبيد مرصعًا بالماس، ومجموعة أوانى خزفية بها زخارف بارزة من الذهب، وعلب مرواح يد يابانية، وكثير من الأشياء النسائية على نفس الشاكلة. حضر هذا الحفل كل رجال الطبقة الراقية فى فيينا كجمهور نظارة ، لكن سُمح للسيدات فقط بالتصويب، وفازت الأرشيدوقة أماليا بالجائزة الأولى. سعدتُ أيما سعادة بحضور هذا الحفل الجميل.

لست أدرى، لكن خُيل لى أنه ربما كان هذا السباق شبيهًا بمثيله فى الإنيادة، لو كان لى موهبة فرجيل فى الكتابة. ويمثل هذا السباق أفضل متعة وأقربها إلى نفس الإمبراطورة، ولا يفوتها أسبوع دون إقامة مثل هذا الحفل، وهو يقوى من مهارة الشابات فى الدفاع عن أنفسهن، وقد ضحكن كثيرا جدا عندما خفت أن أمسك البندقية.

شقيقتى العزيزة، أعرف أنك ستعذرينى على هذه الخاتمة المبتورة، أظن أنك تخشين هذه المرة أننى لن أنتهى من الحكى إطلاقًا.

* * *

إلى السيدة ثيستيلثوايت

فيينا فى ٢٦ سبتمبر ١٧١٦

أنا لم أسعد فى حياتى بمفاجأة مثلما سعدت بخطابك اللطيف. وهو علامة خاصة على مكانتى فى قلبك، وأؤكد أن حبى لك لو قل عما هو عليه بمقدار ذرة واحدة، لكان من أسباب بؤسى وشقائى أن أرى قلبى يتحول عنك ، وأنا أرتعد عندما أفكر فى الرد على الرسائل الجديدة ، وأعتقد أننى امتنعت عن مجاملة ما لايقل عن دستة من معارفى فى لندن برفض أن أسمع منهم أى شىء ، رغم يقينى

أنهم سيرسلون لى خطابات ممتعة جدا. لكنى فضلت فقد متعة قراءة العديد من الأشياء اللطيفة، مقابل ألا أضطر لكتابة أشياءً غبية .

وعلى الرغم من هذه الاعتبارات، يغبطنى هذا البرهان على صداقتك، وأرجو ألا تحرمينى من كرمك ولا تتوقفى عن مراسلتى ، وإن كنت أخشى أن يصيبك الملل وتندمين عليها سريعًا.

النمسا ليست المكان الذى يكتب منه المرء عن أشياء مثيرة، وقد أصبت بالفعل بعدوى الكسل المنتشرة هنا، حتى العلاقات العاطفية والمشاحنات يسيطر عليها برود هذا البلد، ولا تتسم بالفعالية إلا فيما يتعلق بطقس من يتقدم ومن يتأخر، رأيتهم كيف يستعرضون عواطفهم، خذى مثلا إذا تلاقت مركبتان فى شارع ضيق فى جنح الظلام، وكل سيدة منهما تريد أن تتقدم عربتها العربة الأخرى ولا تريد إفساح الطريق للعربة الأخرى وتظل كل منهما على موقفها للثانية صباحًا فى ذلك المكان المنعزل، وتفضلان الموت عن التزعزع عن موقفهما الغريب، ويتصاعد الأمر إذا كانت إحداهما تتمتع برتبة أو منزلة اجتماعية تفوق السيدة الأخرى ، وقد يصل الأمر لأن يرسل الإمبراطور حرَّاسه لفض هذا النزاع ، والرجال أيضا ليسوا أقل تمسكًا من النساء بهذه الشكليات.

وهذه العواطف تسيطر على صدور النساء سيطرة كاملة، لدرجة أن وفاة الزوج تحطم قلوبهن ، فتلك الساعة المقدرة تضع نهاية لمكانتهن

الاجتماعية، فالأرامل ليس لديهن أية مكانة اجتماعية فى فيينا. والرجال ليسوا أقل اهتماماً بهذا الأمر المتعلق فى نظرهم بالشرف والكرامة، فهم لا يستنكفون فقط الزواج بل حتى إقامة علاقة عاطفية مع أية امرأة من عائلة ليست فى نفس المستوى الاجتماعى لعائلاتهم، فالنسب أمر له قدر كبير من الاعتبار بالنسبة لهم أكثر من جمال وحسن المرأة. وبالسعادة أولئك النسوة اللاتى يوجد كونت بين أسلافهن من نبلاء الإمبراطورية، فلا يهم مدى جمالهن أو ثرائهن ، أو الخصال الطيبة التى يتحلين بها للحصول على زوج، وينطبق هذا أيضا على الأمور المادية فمن النادر أن يمثل أية ميزة لدى الرجل الذى يرغب فى الزواج منها. تحدد قوانين النمسا بائنة المرأة ألا تزيد عن ألفى فلورين (تساوى مئتى جنيه إنجليزيًا) ومهما كان ما يمتلكنه فوق ذلك سيبقى خاصاً بهن وبإنفاقهن. ولذلك هناك كثير من السيدات يتمتعن بثراء أكثر من أزواجهن، ومع ذلك يتعطفن عليهم بمصروف جيب يسمح لهم بالإنفاق حسب مكانتهم الاجتماعية، وأعتقد أن هذا يرجع إلى الحرية التى يتمتعن بها فى جوانب أخرى من حياتهن.

تعرفين بالتأكيد كسلى ونفورى الشديد فى هذا الأمر، وسترثين لحالى لتورطى فى كل هذه الشكليات التى تمثل عبئًا غير عادى لى، على الرغم من أننى مثار حسد البلدة كلها، لأننى بطبيعة عاداتهم أتمتع بمكانة متميزة عن الجميع . لكنهم يأخذون ثأرهم من مبعوثى الدول الأجنبية البائسين لقاء ذلك الاحترام الشديد الذى يقابل به السفراء

فيعاملونهم باحتقار (مع عدم اكتراثى التام لهذه الأمور) ينبغى أن أحتاط من احتمال معاناتى من ذلك. فى أيام الاحتفالات الرسمية لا يسمحون لهم بدخول البلاط الإمبراطورى، أما فى الأيام الأخرى يغبطون أنفسهم على السير وراء كل الشخصيات المهمة، كونهم آخر من يلفت النظر لأحد. لكن ينبغى أن أكتب لك عن كل الاحتفالات الرسمية، وأظن أننى بالفعل قلت لك الكثير جدا عن ذلك الموضوع الممل، ومع ذلك فهو الشغل الشاغل لكل الناس هنا. لست فى حاجة بعد كل هذا أن أقول لك كيف يتسرب منى الوقت هنا. أنت تعرفين مثلى تماماً ما يعنيه هذا.

* * *

إلى السيدة XX

فيينا فى ١ أكتوبر ١٧١٦

ترغبين يا سيدتى أن أحكى لك عن العادات هنا، وكذلك عن أحوال مدينة فيينا . ويسعدنى دائما تلبية رغباتك، لكنى فى هذه المناسبة أتمنى أن تقبلى العزيمة مكان الفعل لأننى إذا أخذت على عاتقى أن أحكى لك كل الأمور الجديرة بالذكر، وهى تختلف عن مثيلاتها لدينا، سأكتب ملازم بأكملها، وبها أسوأ مادة تثير الملل إذا قرأها أحد، أو طُبعت دون أن يقرأها أحد؛ فأزياء النساء هنا لا تشبه الأزياء الفرنسية أو الإنجليزية

فى أى شىء ، عدا القمصان الداخلية، ولديهن الكثير من الأزياء التى يستغربنها هن أنفسهن، فمثلا من دواعى الحشمة ألا ترتدى الأرملة اللون الأخضر أوالأحمر، فيما عدا ذلك يمكنها ارتداء كل الألوان الزاهية كما تشاء. والتسلية الوحيدة المتاحة هنا هى تبادل الزيارات واللقاءات، فالأوبرا تقدم عروضها فى البلاط الإمبراطورى، وذلك فى مناسبات بعينها. تقيم مدام رابوتين لقاء حفلات فى بيتها، كل مساء بانتظام، أما غيرها من السيدات، فعندما يرغبن فى استعراض أبهة مساكنهن، أو يتلطفن على صديقة بالاحتفال بعيد القديس الذى يتيّمن به، يعلنَّ أنهنَّ سيحتفلن بهذا اليوم فى منزلهن على شرف الكونت فلان أو الكونتيسة فلانة، وهذه الأيام يطلقون عليها اسم جالا (المهرجان) وكل أصدقاء أو أقارب السيدة التى تتيمن بهذا القديس يظهرْن فى الحفل الذى تقيمه بأفضل ملابسهن وحليهن. ولا تمنح سيدة المنزل أى اهتمام خاص لشخص معين أو ترد زيارته، ويمكن لأى شخص حضور هذه الجالا دون دعوة رسمية. ويستمتع الحضور بتناول المشروبات المثلجة فى أشكالها المختلفة سواء كان الحفل فى الشتاء أو فى الصيف ، ثم يتوزعْن على مجموعات للعب الورق مثل لعبة الأومبر (وهى لعبة قديمة) والبيكيت أو لتبادل أطراف الحديث ، لكن كل أنواع ألعاب المقامرة مثل النرد غير مسموح بها.

دُعيت مرة لحضور حفل الجالا الخاص بالكونت آلثيم ، وتربطه علاقة حميمة بالإمبراطور، ولم أر فى حياتى مطلقًا ملابس تنكرية بمثل

هذا السوء. فهى مزينة بأغلى أنواع الذهب، مما جعلها ملابس غالية الثمن جدا، وهذا هو كل ما يدل على ذوقها. فى أيام أخرى يكون الملبس المشترك بين الجميع هو اللفاع ومن تحته أى شيء يشاؤه المرء.

والآن أحدثك عن فيينا، وأنا على يقين أنك تتوقعين منى أن أحدثك بعض الشيء عن الأديرة، وهى متوفرة بكل الأنواع والأحجام، لكن أكثر دير أعجبنى هو دير سانت لورانس، حيث يحيا أفراده فى بساطة ونظافة، وهذا أمر من وجهة نظرى أفضل بكثير من تلك الأديرة التى تسير حسب أنظمة صارمة، حيث العقوبات الذاتية تكفيراً عن الخطايا تتم بشكل دائم ومتصل، ولابد لهذا التشدد أن يتسبب فى السخط والبؤس. وراهبات الدير كلهن من الطبقة الراقية. أظن أن عددهن يصل إلى خمسين راهبة. لدى كل واحدة منهن صومعة صغيرة شديدة النظافة. الجدران مغطاة بصور القديسين، تقريباً، كلها جميلة فنيًا، تبعًا للطبقة التى ينتمين لها. يمر بهو معمد من الحجر الأبيض بكل حجراتهن، ملىء بصور الراهبات المثاليات، والكنيسة الصغيرة الملحقة بالدير نظيفة ومزخرفة بثراء. لكنى لم أستطعْ أن أمنع نفسى من الضحك لدى مناولتهن إياى تمثالاً خشبياً لرأس المخلص، أكدوا لى أنها تحدثت فى أثناء حصار فيينا، وكدليل على ذلك، منعونى من لمس فمه الذى ظل مفتوحا من وقتها. وملابس الراهبات متناسقة. فهن يرتدين ثوباً أبيض بسيط، مطوى الأكمام لأعلى، وثنياته مبطنة بقماش قطنى أبيض جميل، وعلى رءوسهن غطاء من نفس القماش، لا يختلف إلا فى

الحجاب الصغير من الكريب الأسود الذى يتدلى على ظهورهن. لديهن مجموعة راهبات من طبقة اجتماعية أقل لخدمتهن، وهن يعملن لديهن كخادمات غرف، فيستقبلن كل زائراتهن من النسوة، ويلعبن لعبة الأومبر فى الغرف الخاصة بهن ، بسماح من رئيسة الدير يحصلن عليه بسهولة . لم يسبق لى أن رأيت سيدة مسنةً فى مثل طيبتها، تقترب من الثمانين من العمر، ومع ذلك لا يبدو عليها الوهن، ولاتزال مفعمة بالحياة والمرح. ربتت علىّ بلطف كأنى ابنتها، وأهدتنى بعض الهدايا اللطيفة من صنع يديها، وكثير من الحلوى. وقضبان النوافذ ليست شديدة الصلابة، ليس من الصعب أن يمر المرء برأسه من بينها، لا أشك أن أى رجل أنحل قليلاً من المعتاد يمكنه أن يضغط جسده كله ويمر من خلالها. جاء الكونت الشاب سالم إلى النافذة فى أثناء وجودى، ومدت رئيسة الدير يدها من خلال القضبان ليقبلها. وما أثار دهشتى أن رأيت فى الدير أجمل شابة فى فيينا، وهى جميلة ودمثة الخلق، وذكية، وذات حضور، ومن عائلة كبيرة، وكانت قبل انضمامها للدير تحظى بإعجاب البلدة كلها. لم أستطع منع نفسى من إظهار دهشتى لرؤية فتاة بكل هذه الصفات تلتحق بسلك الرهبنة. وقد عاملتنى بلطف وعطف يفوق الوصف، وطلبت منى أنْ أعود لزيارتها مرات أخرى. (و قالت وهى تتنهد) إن هذا سيمنحها سعادة لا متناهية، رغم أنها تتجنب بحرص شديد رؤية أى شخص من معارفها السابقين، وعندما يأتى أحدهم لزيارة الدير تحبس نفسها فى صومعتها. لاحظت الدموع تنساب من عينيها، فمست شغاف

قلبى، وبدأت أحدثها بنوع من الحنان والشفقة التى أثارتها فىّ، لكنها لم تصرح لى أنها ليست سعيدة. لقد سعيت لمعرفة السبب الحقيقى وراء ابتعادها عن العالم ودخولها الدير ولم أصل لمعرفته رغم أن الجميع مندهشون مثلى فإنهم لم يصلوا كذلك إلى معرفة السبب.

ذهبت لرؤيتها أكثر من مرة لكنى أصبت بالاكتئاب لرؤيتى شابة جميلة بكل هذا التناغم تدفن نفسها حية، ولم يدهشنى أن الراهبات غالبًا يثرن فىَّ مشاعر عنيفة، فمن الطبيعى أن يشعر المرء بالرثاء لحالهن عندما يرى أنهن جديرات بقدر مختلف، لو اخترن طريقًا أسهل ووجدن به عواطف أكثر دفئًا وحنانًا ، ولم أشعر فى حياتى إطلاقًا بمثل هذا التعاطف مع الطائفة الكاثوليكية بقدر ما شعرت به وأنا أرى هذا البؤس، كم من النساء تعانى البؤس والشقاء. أو تلك الخرافات التى تنتشر بين العامة - كلهم أو بعضهم - يوقدون الشموع المضيئة الضئيلة نهارًا وليلاً أمام التماثيل الخشبية المنتصبة تقريبا فى كل شارع. المواكب التى أراها غالبًا مجرد أبهة فارغة وبغيضة ومنافية تمامًا للذوق السليم مثل معابد الباجودا الصينية. يعلم الله إذا كان هذا ينبع من روح المرأة المتناقضة التى تختلج داخلى، لكنى لم يسبق لى أن تحمست من قبل ضد البابوية من قلبى بهذا الشكل إطلاقًا.

تحياتى إلى سيدتى العزيزة

* * *

إلى الكونتيسة مار

براغ فى ١٧ نوفمبر ١٧١٦

لعل شقيقتى العزيزة تجد دليلاً جديداً على حبى لها وإخلاصى الشديد فى ما أقدمه لك من الكتابة فى هذا الوقت بعد ثلاثة أيام - ولو أردت الدقة ثلاثة أيام بلياليها - من السفر المتواصل بالمركبات.

إن مملكة بوهيميا أكثر منطقة قاحلة رأيتها فى ألمانيا، قراها شديدة الفقر، والحانات التى ينزل المسافرون بها شديدة البؤس، فالقش النظيف والماء الصافى، نعم ليس من السهل وجودها. ومن الأفضل ألا يأمل المرء فى ذلك. وعلى الرغم من أنى أحمل فراشى الذى أنام عليه معى، فإننى فى بعض الأحيان لم أجد مكانًا أضعه فيه، ولذلك فضلت أن أسافر طوال الليل ببرده القارس، ملتفة فى فرائى بدلاً من اللجوء إلى المواقد العامة التى يخرج منها خليط من الروائح العفنة.

هذه المدينة كانت ذات يوم عاصمة العرش الملكى لملوك بوهيميا، وهى مازالت عاصمة المملكة. ومايزال بها بقايا بهائها القديم، حيث كانت واحدة من أكبر مدن ألمانيا، لكن الجزء الأكبر منها، بيوته قديمة وسكانه قليلون، مما جعل المنازل شديدة الرخص، وأفراد الطبقة الأرستقراطية الذين لا يستطيعون تحمل نفقات العيش فى فيينا، يفضلون السكنى هنا، وهم يلتقون ويستمعون للموسيقى وكل أنواع اللهو

والتسلية الأخرى (المسموح بها فى البلاط) بتكلفة متواضعة جدا، كل شيء موجود هنا بوفرة شديدة، خاصة أفضل صيد برى من أوز وبط ذقت طعمه في حياتي. لقد زارتني بالفعل أفضل سيدات القوم هنا، اللاتى تعرفت على أقاربهن فى فيينا. وهن يرتدين ثيابًا مثل التى ترتديها النسوة فى فيينا، كنوع من التقليد، مثلما تقلد نسوة إكستر نساء لندن، لكن ذلك التقليد أكثر تكلفة من الأصل، إذ ليس من السهل وصف تلك التكلفة المبالغ فيها، فالمرأة لا يبدو منها شيء بداية من غطاء رأسها حتى الجيبونة التحتية، وكثيرًا ما يكتبون على ظهور النساء "هذه امرأة" للتنويه للمسافرين مثل علامة البريد التى تكتب على ظهور الدببة "هذه دبة".

لن أنسى أن أكتب لك مرة أخرى عندما أصل إلى درسدن و ليبزيج لأننى أتوق شوقًا لإشباع فضولك أكثر من حاجتى للراحة.

* * *

إلى السيدة ـــــ

فيينا فى ١ يناير ١٧١٧

لقد تسلمت توًا هنا فى فيينا رسالة سموك اللطيفة فى أثناء عودتى إلى إنجلترا، وقد وصلتنى من هانوفر

أنت ترين يا سيدتى أنه ليس كل ما ندافع عنه بثقة حقيقيًا مطلقًا، وليس لديك أى سبب يدفعك للشكوى منى، لأنك ترين غموضًا فى

قرار عودتى، وتقولين إن العالم كله قد عرف ذلك. يمكنك أن تخبرى العالم كله نيابة عنى أنهم لا يعرفون شيئًا عن شئونى الخاصة وأمور حياتى كما أعرفها أنا بنفسى، لأنى شخصياً متأكدة من أننى الآن وفى هذه اللحظة فى فيينا، حيث بدأ الكرنفال، وكل أسباب اللهو تواصل عروضها عدا المسرحيات التنكرية التى لا يسمح بأدائها فى أثناء الحرب مع الأتراك. وتقام الحفلات فى الأماكن العامة حيث يدفع الرجل جنيهًا ذهبيًا واحدًا للدخول، أما النساء فيدخلن مجانًا. قيل لى إن هذه الأماكن قد تربح ألف جنيه فى الليلة الواحدة. وهى ذات أثاث شديد الأبهة، وتقدم عروضًا موسيقية جيدة، لو لم يمارسوا تلك العادة المقيتة بمزجها بأبواق الصيد التى تكاد تصيب بالصمم. لكن الضجة التى تصدر عنها مقبولة هنا، فهم لا يقدمون أى حفل موسيقى بدونها. وعادة تختتم تلك الحفلات برقصات ريفية إنجليزية، يؤديها عدد من الثنائيات يصل إلى ثلاثين أو أربعين ثنائيًا، لكنه رقص شنيع لا يقدم كثيرا من المتعة. فهم لا يجيدون أكثر من ست رقصات يكررونها المرة تلو المرة منذ ما يربو على خمسين عامًا. كان يسعدنى جدا أن أعلمهم بعض الرقصات الحديثة، لكنى وجدت أن ذلك يتطلب شهوراً من العمل الجاد لكى أجعلهم يفهمونها جيدا.

ليلة البارحة قدمت فى البلاط كوميديا إيطالية؛ كانت مناظرها جميلة، لكن الكوميديا نفسها هزلية رخيصة، لا تحتمل ولا تطاق، وتخلو تمامًا من الدعابة والمرح، لدرجة أننى دهشت من بقاء كل أفراد

البلاط جالسين منتبهين لمدة أربع ساعات متواصلة. ولم تكن هناك نساء على خشبة المسرح، وكان الرجال الذين يقومون بالأدوار النسائية أشكالهم شنيعة، ويعدون إضافة شديدة البلاغة لمزيد من الاستسخاف بالجمهور. وعاد البرد القارس حتى أكمل استمتاعنا بالحفل واعتقدتُ أننى سأموت هنا.

الجو الآن فى ذروة الشتاء، وقد تجمد نهر الدانوب تماماً، ولا يمكن تحمل هذا البرد القارس دون المواقد والفراء، لكن، على أى حال، الجو صحو وصاف ، والجميع على ما يرام ، ولا يمكن أن يكون هناك برد بهذه الدرجة ، هواؤه أكثر نقاء وأكثر فائدة للصحة من برد فيينا. إن روعة وكثرة الاستعدادات بأنواعها تتوفر هنا أكثر من أى مكان رأيته من قبل، فلن يكلف المرء كثيرا أن يقدم يومياً مائدة على مستوى علية القوم. ومن الممتع بحق التجوال بين الأسواق ومشاهدة غزارة وكثرة ما نعتقد أنها أشياء نادرة من لحوم الطيور كالبط ، والأوز ، وغيرها من الطرائد التى تؤكل كالغزلان، وهم يحضرونها يومياً من المجر وبوهيميا. لا ينقصهم شيء أكثر من المحار ، وهم شغوفون بالرخويات البحرية الموجودة داخلها، يرسلون فى طلبها من فينيسيا، ويأكلونها بشره شديد مهما كانت رائحتها.

إننى أطيع أوامرك يا سيدتى العزيزة، وأقدم لك ما ترغبين فيه من وصف لفيينا، رغم أننى أعرف أنه لن يشبع فضولك. أنت توبخيننى على كسلى، وتقولين إننى لا أحكى لك ألف قصة عن أشياء مشوقة

ومثيرة، تثقين تمامًا أننى رأيتها وسمعتها. بشرفى يا سيدتى هذه هى الحقيقة من وجهة نظرى، وليس من باب الكسل ألا أمتعك وأسليك بالكثير من الأعاجيب والمعجزات التى اعتاد الرحالة والمسافرون أن يحكونها لقرائهم . من السهل التقاط حكايات العجائب فى أى بلدة أمرُّ بها وأحكى لك سلسلة طويلة عن معجزات البابا، لكنى لا أتصور أن هناك جديدًا يمكننى أن أخبرك به، عندما أقول لك إن القساوسة يكذبون والعامة يصدقون ما يقال لهم فى كل أرجاء المعمورة. ثم فيما يتعلق بالأخبار التى تحبين البحث والتحقيق فيها، كيف تثيرك أخبار (أناس لا تعرفينهم) مثل : أن الأمير فلان هجر الكونتيسة فلانة ؟ أو أن الأميرة علانة على علاقة غرامية بالكونت علان ؟ هل تحبين أن أكتب لك روايات مثل رواية الكونتيسة دنوا؟ أليس الأفضل أن أقص عليك الحقائق ببساطتها ؟

* * *

إلى نيافة الأب كونتى

فيينا فى ٢ يناير ١٧١٧

حقًا لقد تعبت من الحياة فى فيينا . بالتأكيد أنا لست عدوة للهو والسرعة ، ولا كذلك المتعة والسعادة ، لكنى لا أحتمل ثبات الأشياء فترة

طويلة حتى لو كانت مبعثًا للبهجة والسرور، خاصة عندما تتقيد الأمور بالرسميات وتصبح نوعًا من الروتين. صحيح أننى حظيت هنا بإقامة بعض العلاقات الطيبة، وقد يثير دهشتك أكثر، استمتاعى بشكل خاص بعلاقاتى مع المعارف الأسبان، مثل الكونت أوربيثا والجنرال بوبيلا. ، هذان النبيلان يحظيان بعطف الإمبراطور ورضاه، ومع ذلك يبدو أن هناك من يترصدهما بالأذى. فلابد أن ذكرى الممتلكات التى اقتطعت من المملكة الأسبانية نتيجة لصلح أوترخت تثير حفيظة البعض، ويبدو أنهم يتطلعون بكل الأمل للانقضاض عليها وإعادتها مرة أخرى. هذا الموضوع شغلت نفسى به قليلاً، وسواء كان القصر على حق أو لا، فأنا أكنُّ كل مودة وتقدير لهذين السيدين ومن يواليهما، وقد تناولت الغداء معهما منذ عدة أيام فى قصر الكونت فيرمبراند ، وهو مستشار قانونى وأديب ويستمتع بمكانة كبيرة هنا. أما من يفوق الجميع فى ثقافته ومعارفه فى هذا القصر فهو الكونت شليك كبير مستشارى بوهيميا، وهو واسع الاطلاع ويتمتع بذوق رفيع وحكم صائب. وواحد من أكثر الشخصيات التى قابلتها فى فيينا ثقافة ومعرفة هو الكونت تاراكو الشاب الذى يرافق أمير البرتغال اللطيف. أنا تقريبًا واقعة فى حب الاثنين معًا، ومندهشة لرؤية مثل تلك الخصال الرائعة وتلك العواطف النبيلة الكريمة فى هذين الشابين اللذين لم يشهدا حتى الآن أى بلد خارج وطنهما. الكونت كاثوليكى مثلك وهو يقوم بأداء الفروض الدينية بإخلاص شديد، وتخفى الافتتاحية الأولى لتودده للنساء وراءها أسلوبًا منمقًا عن الحب الروحانى، تلك التى غناها من

قبل بأعلى درجاتها الحسية فينلون، ومدام جوين الرقيقة التى حولت الحب الجسدى إلى أشياء سماوية، وهكذا يبدأ الكونت بالحديث عن الروح وينتهى عمومًا بالجسد ، حينما يتلو كلماته مخاطبًا العذارى الحكيمات.

تعرفتُ بالأمس بالشاعر الكبير روسو الذى يعيش هنا تحت حماية الأمير يوجين وينعم بسخائه. وهم يعتبرونه هنا مفكرًا ملحدًا، أما الأمر السيىء فى تقديرى، هو أن ذلك الرجل لا يدق قلبه بالمديح الذى يغدقه على الفضيلة والشرف فى قصائده. أنا أحب كتاباته الشعرية جدا فهى أفضل كثيرا من الإنتاج الغنائى الذى يقدمه شعراؤنا الإنجليز، وقليل منهم مَن كتب شعرًا فى مستوى كتابات روسو. لا أجد هنا كثيرًا من أهل العلم ، لكن فى فيينا عددًا غير عادى من أهل السيميا ، ويمثل حجر الفلاسفة موضوعًا شديد الأهمية للعلم والمشتغلين به والمتحمسين له! ومَن يحظى منهم بالمزيد من القراءة والاستيعاب أكثر من العامة يستطيع تحويل ما يؤمن به من خرافات (هل يمكننى أن أدعوها خرافات؟) أو فانتازيا ؛ مثل تحول الماء والخبز إلى جسد المسيح ودمه، من الدين إلى السيميا، فصاروا يعتقدون فى نوع جديد من التحولات ،نتى تقبلها المادة. وقد صمم لجعل سواد الناس من جمهور المؤمنين باستثناء رجال الدين أغنياء مثلما يجعل خبز التقدمة رجال الكهنوت أغنياء. هذه الفكرة الموبوءة دمرت بالفعل كثيرًا من البيوت. فمن النادر أن تجد رجلاً ثريًا أو من طبقات المجتمع الراقية ليس لديه سيميائى فى

خدمته، وحتى الإمبراطور شخصياً لا يكنّ أى عداء لهذه الحماقة، إلا أنه يدعى محاولة ثبط هذه الأمور.

كان الأمير يوجين من الدماثة الشديدة معى بالأمس لدرجة أنه أرانى مكتبته، وهو شغوف بكتابات روسو، وصديقه المفضل الكونت بونيفال، وهو مفكر موهوب، ومعروف عنه روحه الجسورة والمغامرة. المكتبة ليست كبيرة جدا، إلا أن الكتب منتقاه بعناية، وكما يعترف الأمير بنفسه أن العين لا تقع فيها إلا على كل جميل ومبهج ، علاوة على ذلك بها عدد من الكتب الرائعة لكن طباعتها سيئة، هذا الذوق المتأنق وصم الكثير من هذه الكتب بنوع من التناقض. الكتب مغلفة بالجلد التركى على نحو فخم، وقد قام باستدعاء اثنين من أشهر مجلدى الكتب فى باريس لهذا العمل خصيصا. أخبرنى بونيفال بسعادة أن عدداً من الكتب من قطع الكوارتر عن فن الحرب، وهى مغلفة بجلد فرسان ومشاة جيش السلطان العثمانى، وكانت هذه الدعابة لماحة لدرجة، رسمت بسمة على قسمات المحارب الشهير الوقورة. أما الأمير الذى يعد خبيراً فى تذوق الفنون الجميلة، فقد أرانى وهو يشعر بسعادة خاصة أشهر مجموعة بورتريهات، وكانت تخص فوكيه قبل أن تصل إلى يده، وقد اشتراها منه بثمن مرتفع جدا، وضم إليها عدداً لا بأس به من اللوحات الجديدة، وصار بهذا يمتلك مجموعة من ذلك النوع الذى لن تعثر بسهولة على مثله فى عشر حجرات عرض فى قصور أوروبا . لو قلت

لك كم عددها قد تظن أننى أستخدم تصريح الكذب الذى يستغله الرحالة الآخرون الذين نتسامح معهم.

وصل الآن الكونت تاراكــو وهـو الشــخص الوحــيــد الذى أتوقع حضوره هذا الصباح ولا أتوقع حضـور أحد غيره. أتخيلك تبتسم لكنى حتى الآن لم أفعل ما يوجب منى طلب السمـاح منك، لكن قلوب البشر خداعة، والكونت يعجبنى جدا، قد تظن حتى بالرغم من ذلك أننى لا أريد حلاً منك، ومع ذلك أكون سعيدة لو منحتنى ذلك الحل. ليس كما يطلبه الآخرون على أى حال لأننى مهرطقة إلى جانب أنك لست أب اعترافى، وعموما أنا لن أعلن هذا صراحة، فقد كان الغرض من زيارة الكونت الدعوة إلى حفل راقص، ودعوته فى حد ذاتها تمنحنى سعادة أكثر من الحفل، سعادة لدرجة التخمة.

* * *

"ى الكونتيسة مار

فيينا فى ١٦ يناير من ١٧١٧

الآن يا شقيقتى العزيزة أستودعك الله إلى حين، وأزمع الرحيل عن فيينا للأبد، وقد خططتُ أن أبدأ غداً رحلتى عبر المجر على الرغم من

البرد الذى لايحتمل ، والثلوج الكفيلة بتثبيط أية سيدة تفوقنى شجاعة. لكن مبادئ فى الطاعة المستسلمة تسعفنى فى كل الأمور.

قمت بزيارة الوداع الرسمية للإمبراطورتين. وكان جلالة الملك سعيداً للقائى عندما كنت فى زيارة الإمبراطورة الحالية، وبعد حديث عذب دعانى الاثنان للمرور على فيينا فى رحلة العودة، لكنى لا أفكر فى العودة. سلمت خطابًا للإمبراطورة من دوقة بلانكينبيرج. كنت أزمع البقاء فى ذلك البلاط بضعة أيام قليلة لكن معاليها أصرت على بقائى كثيرا وعندما غادرتها أخذت علىّ عهداً أن أراسلها.

ومن ثم كتبت لك خطابًا مطولاً أتمنى أن يكون قد وصلك، رغم أنك لم تذكرى عنه شيئًا، لكنى أعتقد أننى نسيت أن أخبرك عن ظاهرة غريبة تحدث فى كل القصور الألمانية، ولا أستطيع منع نفسى من الاهتمام بها: كل الأمراء عندهم أقزام، حتى الإمبراطور والإمبراطورة لديهما اثنان من هذه المخلوقات الممسوخة الصغيرة، وهما فى مثل قبح الشيطان، خاصة المرأة، رغم أنها مغطاة بالماس، وهى ترافق جلالة الإمبراطورة وتبقى لصيقة بمجلسها فى كل اللقاءات العامة. ودوق فولفينبوتيل لديه واحد، ودوقة بلانكينبيرج لا تخرج إلا بصحبة القزمة الخاصة بها، لكنها حقيقة أكثر قزمة متناسقة الجسد فى كل مَن رأيتهم. قيل لى إن ملك الدانمارك قد طوّر هذا الأمر لدرجة أن القزم الخاص به يعمل رئيسًا لوزرائه . أنا لا أجد مبرراً مقنعًا لغرامهم بهذه الكائنات الشائهة، لكن الرأى المطلق لكل هؤلاء الأمراء أنه لا يليق بهم أن يتحدثوا مع غيرهم

من البشر، ثم أنهم لا يستطيعون البقاء وحيدين، لذلك يضطرون للبحث عن رفقة بين المنبوذين من الطبيعة البشرية، تلك المخلوقات تمثل النخبة الوحيدة المتميزة فى بلاطهم التى يمكنهم الحديث معها بحرية.

أنا حاليا حبيسة حجرتى بسبب إصابتى باحتقان فى الحلق، والحقيقة أننى سعيدة بهذا العذر، لتجنب رؤية الأشخاص الذين أحببتهم لدرجة أننى أتعذب كثيرا عندما أفكر أننى سأرحل عنهم للأبد. صحيح أن أهل النمسا ليسوا أكثر الشعوب دماثة فى العالم ولا أكثرهم رقة. لكن فيينا بها أناس من كل القوميات، وقد كونت لنفسى فيها رفقة صغيرة من الأشخاص الذين يناسبوننى. ورغم أن عددهم ليس كبيراً، فإننى لن أحظى فى أى مكان آخر بهذا العدد من العقلاء الذين أنسجم معهم. فقد كنا تقريبًا معا طول الوقت، وأنت تعرفين أننى لم أكن أبداً من أصحاب الرأى الخاص بالحوارات المنمقة وليس لى إلا أصدقاء قليلون ، وذلك فى اعتقادى أعظم سعادة فى الحياة.

يوجد هنا بعض الأسبان من الجنسين، يتمتعون بكل خصال المرح والكرم التى يوصفون بها منذ القدم، و أظن كل شعب مملكتهم مثلهم، لا أتمنى شيئًا أكثر من انتهاء أيامى هنا . أظهرت السيدات اللاتى تعرفت بهن منتهى التعاطف والكرم معى، وكنّ يبكين حين يروننى عندما علمن بقرار هذه الرحلة. والحقيقة أننى لست فى أفضل حالاتى لأننى متأثرة بما سمعته عما سألاقيه من معاناة فى الرحلة. كل من ألقاه يحكى لى عن صعوبة جديدة سأواجهها. كان الأمير يوجين من اللطف

بحيث قال كل ما في وسعه أن يقوله ليقنعنى بالبقاء حتى يذوب الجليد في نهر الدانوب، مؤكدًا لى أن المنازل فى المجر ليس بها أى استعدادات وقائية ضد البرد، وأننى سأضطر للسفر ثلاثة أيام أو أربعة بين بودا وإيسك ، دون العثور على منزل عبر الصحراء المنبسطة المغطاة بالجليد، حيث ذلك البرد الشديد الذى مات الكثيرون تأثرًا به . أعرف أن هذا الذعر ترك فى نفسى انطباعًا عميقًا لأننى أعتقد أنه حكى لى أشياء حقيقية ولا يمكن لغيره أن يخبرنى بها أفضل منه.

أظننى بإشارتى لذكر ذلك الرجل العظيم ، تتوقعين أن أحكى لك عنه، حيث إننى كنت أراه كثيرًا لكنى غير راغبة فى الحديث عنه فى فيينا، مثلما لا أرغب فى الحديث عن هرقل فى بلاط أومفيل إذا رأيته هناك. لا أعرف أية سلوى يجدها الناس فى الاهتمام بنقاط ضعف شخصيات عظيمة هكذا(لعل ذلك يقربهم من مستواهم)، أما أنا فأعانى أشد المعاناة عندما أتأمل البشر وأجدهم يفتقرون للكمال. يحظى أمير البرتغال الشاب بإعجاب البلاط كله، فهو وسيم ودمث الأخلاق وشديد الحيوية، وكل الضباط يحكون وقائع مدهشة عن شجاعته وعلاقاته بالنساء فى آخر حملة عسكرية اشترك فيها. وهو يقيم فى قصر ، به كل الميزات التى تخولها له طبقته الاجتماعية. إلى اللقاء يا شقيقتى العزيزة، هذه آخر رواية تسمعينها منى. أستطيع أن أقول لك بثقة، إنها الحقيقة كما قال الفيلسوف مونسيس،

لقد تعلمت التواضع، لكنى عندما أفكر فى التعب الذى سيعانيه طفلى المسكين، أرى فى عينىَّ كل تعلق الأم بطفلها وولهها به، وأحس فى قلبى كل العواطف والحنان الأمومى.

ملحوظة مضافة

كتبت خطاباً لسيدتى العزيزة ليدى ـــ أظنه لن يروقها كثيراً، ولأننى أتوقع رد فعل أكثر برودة، أظننى فعلت الصواب بكتابته، ذلك أننى بصراحة شديدة كنت متذمرة من أسئلتها الكثيرة، وخيالها السخيف ، فهى متأكدة أننى رأيت الكثير من الأعاجيب التى أخفيها عنها لظنها أننى ماكرة. إنها غاضبة لأننى لا أكذب مثل غيرى من الرحالة. أنا واثقة أنها تتوقع منى أن أحكى لها قصصاً عن أكلى لحوم البشر، والرجال الذين تمتد رءوسهم تحت أكتافهم، على أى حال ، أرجو أن تقولى لها شيئاً يهدئها ويشبع فضولها.

* * *

إلى السيد بوب

فيينا فى ١٦ يناير ١٧١٧

لم أجد من الوقت ما يسمح لى بالرد على خطابك، لأننى كنت فى عجلة من أمرى للاستعداد للرحلة، لكنى أعتقد أنه يجب أن أودع أصدقائى بنفس الاحتفاء، كما لو كنت سأودعهم للأبد ولن أراهم مرة أخرى، على الأقل إذا كان علىّ أن أصدق المعلومات التى حدثنى بها الناس هنا من جميع أنواع الرعب، وفى الواقع الطقس هنا فى الوقت الراهن أبرد من المعتاد، وأنا مهددة فى الوقت نفسه أن أتجمد حتى الموت وأدفن فى الثلج، ويأخذنى التتار الذين يخربون ذلك الجزء الذى سأمر به. الحقيقة أننا سنصطحب معنا حرسًا قويًا لحمايتنا ولذا من المحتمل أن يختلف المشهد وأجد نفسى فى قلب معركة.

كيف ستنتهى مغامراتى! أنا أترك الأمر كله للعناية الإلهية، إذا انتهت نهاية كوميدية ستسمع أخبارها من البعض، أرجو من سيادتك أن تتكرم وتتعطف وتبلغ السيد (كونجريف ؟) أننى تسلمت خطابه. وبلِّغه تحياتى ووداعى، وإذا عشت سأرد عليه بنفسى. ونفس التحية لعزيزتى ليدى ريتش.

* * *

إلى الكونتيسة مار

بيتروارادين فى ٣٠ يناير ١٧١٧

أخيرًا شقيقتى العزيزة ، وصلت ، وكل أفـراد عائلتى بسلام الله وبصحة جيدة إلى بيتروارادين. وقد عانينا قليلاً من قسوة البرد (على الرغم من أننا نلتف جيدا بالفـراء)، وفى كل مكان حططنا به لاقينا الترحيب والود بسبب معارفنا الذين أوصوا بنا خيرًا قبل وصولنا، لا أستطيع أن أتمالك نفسى من الضحك عندما أتذكر كل الأفكار المرعبة التى بثها فىَّ أصدقائى فى فيينا عن هذه الرحلة، وذلك يرجع لحبهم لى وعطفهم علىَّ ورغبتهم فى بقائى معهم هذا الشتاء.

ربما لن يكون منافيًا للذوق أن أحكى لك عن رحلتى باختصار،لأننى مررت على بلد لا تعرفين عنها أى شىء إطلاقًا ، وقليلون مَن يمرُّون بها فى سفرهم، المجريون أنفسهم يفضلون بشكل عام اختيار الطريق المريح عن طريق نهر الدانوب. وعلى أى حال أنعم الله علينا بطقس أخف وطأة من المعتاد فى هذا الوقت من العام. رغم أن الثلوج كانت كثيفة جدا، أسعدنا الحظ باستقلال عربات ذات عجلات راسخة تتحرك بنعومة وبساطة شديدة، وتعتبر هذه أفضل وسيلة مواصلات للرحلات الطويلة. وصلنا إلى راب (اليوم التالى من السفر من فيينا) فى السابع عشر من الشهر الحالى، وقد أرسل السيد ورتلى من ينبِّئ الحاكم بوصولنا فحظينا بأفضل منزل فى البلدة، وتم إعداده لنا، فى حماية حامية

عسكرية خاصة بنا، وأمر بوضع الحراسة على بابنا، وقدم لنا كل الترتيبات الخاصة بتكريمنا. وقام الحاكم ، ويصحبته ضباط آخرون بزيارة السيد ورتلي لتقديم التحية وأى خدمات نطلبها. وجاء أسقف تيمسوار لزيارتنا مرحبًا بنا، وشدد علينا لتناول العشاء معه اليوم التالى، لكننا رفضنا لتصميمنا على مواصلة رحلتنا، فأرسل لنا كثيراً من سلال الفاكهة الشتوية، وعدداً متنوعًا من خمر المجر المعتقة. وأيلة صغيرة تم صيدها وذبحها حالاً. يتمتع هذا الأسقف بنفوذ كبير فى هذا البلد وهو من سلالة عائلة نوداستى العريقة، وهى عائلة ذات مكانة مرموقة على مدى عصور طويلة فى هذه المملكة. وهو رجل عجوز شديد الأدب دمث الخلق مرح يرتدى الزى المجرى وتتدلى لحيته الوقورة البيضاء حتى زناره.

راب بلدة قوية محصنة بحامية عسكرية جيدة وحصون قوية، وكانت منذ وقت طويل البلدة التى تقع على الحدود بين الإمبراطوريتين التركية والألمانية. وقد اتخذت اسمها من نهر راب الذى تقع على ضفافه فى منطقة تلاقيه مع نهر الدانوب فى أرض من السهول المفتوحة. فى أول الأمر احتلها الأتراك تحت إمرة سنان باشا فى عهد السلطان مراد الثالث سنة ١٥٩٤ ، وقيل إن حاكمها قام بخيانتها، فتم إعدامه بعد ذلك بناء على أوامر الإمبراطور. قام الكونت سوارتزنبيرج والكونت بولفى باستعادتها بهجوم مفاجئ فى عام ١٥٩٨، ومنذ ذلك التاريخ ظلت فى يد الألمان رغم محاولات الأتراك احتلالها مرة أخرى بالخداع فى عام

١٦٤٢ . تتميز الكاتدرائية بحجمها الكبير ومعمارها الجيد وهى أهم ما يسترعى الانتباه فى هذه البلدة .

عندما خلفنا وراءنا كوموروا على الجانب الآخر من النهر، وصلنا فى الثامن عشر إلى نوزمول، وهى قرية صغيرة حيث تدبرنا أمرنا دون مساعدة أحد لنجد بعض الراحة المقبولة. واستمر سفرنا لمدة يومين من هذا المكان إلى بودا، عبر أروع السهول فى العالم - وهى مستوية كأن هناك من سواها - وشديدة الخصوبة، لكن أغلبها صحراء وليست مزروعة. فقد تُركت عرضة للخراب والإهمال بسبب الحرب الطويلة بين الأتراك والإمبراطور، والحرب الأهلية الأكثر ضراوة التى اندلعت بسبب اضطهاد الإمبراطور ليوبولد الأكبر . ذلك الإمبراطور الذى كان له شخصية شفوقة إلى درجة غير عادية، وكان بطبيعته ذا مزاج رحيم طيب، ترك كل ذلك وراءه عندما وضع ضميره بين يدى اليسوعيين فصار أكثر قسوة وغدراً لمواطنيه المجر البائسين، أكثر حتى مما فعله الأتراك بالمسيحيين، حنث بيمينه دون لحظة تردد وبإيمانه المسيحى الذى أعلنه فى مفاوضات عامة. فى الحقيقة لا شىء يثير الكآبة أكثر من السفر عبر المجر، فأمامك مملكة من تلك الممالك كانت منتعشة فيما مضى وبقعة ممتازة من الأرض غير آهلة بالسكان. وهذا هو الحال أيضا فى بودا (التى وصلناها فى فجر الثانى والعشرين منه) ، كان بها ذات يوم أكبر كرسى عرش لملوك المجر، وكانت قصورهم تمثل أفضل وأجمل بنايات عصرها، وصارت اليوم خربة ، ولم يتم إصلاح أى جزء من البلد منذ

آخر حصار، لكن الحصون والقلعة يسكنها حاليا الحاكم راجول وهو ضابط ذو جدارة. جاء فى الحال لمقابلتنا وحملنا بمركبته إلى منزله حيث لاقتنى زوجته بحفاوة شديدة وعملت على راحتنا واستمتاعنا بوقت طيب للغاية.

تقع المدينة على تل صغير جنوب نهر الدانوب، وتبدو القلعة أعلى بكثير من البلدة ويتراءى المنظر من خلالها غاية فى الروعة. هنا عدد كبير من المنازل الصغيرة دون حوائط أو بالأحرى مجموعة أكواخ يطلقون عليها بلدة الراسكيين حيث إنهم يمثلون غالبية قاطنيها. أكد لى الحاكم أنها توازى مساحة يقف عليها اثنا عشر ألف مقاتل. تبدو هذه البلدان شديدة الغرابة، تقوم منازلها فى صفوف، عدة الآف منها قريبة من بعضها البعض للغاية فتبدو للرائى من بعد كأنها خيام قديمة من القش. وكل منها يتكون من طابق واحد فوق سطح الأرض وآخر بمثابة بدروم تحت الأرض، الأول لقضاء الصيف والثانى لقضاء الشتاء. فى عام ١٥٢٦ غزا سليمان الكبير منطقة نهر بودا، وكان أول من احتلها، لكنه هُزم فى العام التالى على يد فرناند الأول ملك بوهيميا، ثم عاد فى عام ١٥٢٩ واحتلها مرة أخرى بسبب خيانة الحامية العسكرية التى سلمته طوعًا للملك جون ملك المجر ، بعد موته كان ولده طفلاً ، حاصرها فرديناند واضطرت الملكة الأم للاستعانة بمساعدة الملك سليمان الذى رفع الحصار عن المكان ، لكنه وضع البلدة تحت الحماية العسكرية التركية وأمرها بالخروج من قصرها وتسليمه له فى عام

١٥٤١ ، قاومت فيما بعد الحصار الذى فرضه حولها الماركيز براندنبرج فى عام ١٥٤٢ ، ثم حصار الكونت سوارتزنبرج فى عام ١٥٩٨ ، ثم الحصار الذى قام به الجنرال روزورم فى عام ١٦٠٢ ، ثم الحصار الذى فرضه الدوق لوريان قائد قوات الإمبراطور فى عام ١٦٨٤ ، والذى استسلمت له البلاد فى عام ١٦٨٦ بعد دفاع مستميت وقتل أبتى باشا الحاكم الذى لقى حتفه وهو يقاتل ببسالة الشجاعة الرومانية. كان ضياع هذه البلدة أمراً شديد الأهمية وأثار حفيظة الأتراك، وتسبب فى خلع الإمبراطور محمد الرابع فى العام التالى.

واصلنا رحلتنا فى الثالث والعشرين منه، حيث مررنا عبر بلدتى إدام وتودور وهما بلدتان كانت لهما مكانة عالية فى يد الأتراك أما الآن فقد تخربتا تماماً، ولم يبق منهما إلا بعض أطلال الأبراج التركية التى تدل على ما كانت عليه من قبل. هذا الجزء من البلاد تغطيه الغابات والقليل جدا من المسافرين يمرون به، فشاهدنا من الطرائد عدداً كبيراً جدا والطيور البرية تعيش هنا لأعمار طويلة.

" تنام نوماً هادئاً لا تقلقها بنادق الصيادين"

وصلنا فى الخامس والعشرين إلى موهاتش، ورأيناالحقل القريب منها حيث فقد لويس ملك المجر الشاب جيشه وحياته ، ومات غرقًا فى خندق فى أثناء محاولته الفرار من بالبيوس جنرال سليمان الكبير. فتحت هذه المعركة أول طريق للأتراك إلى قلب المجر. لن أنكر لك أسماء القرى الصغيرة التى مررنا بها ولم يصادفنا بها شىء يسترعى الانتباه

أو يستحق الذكر، لكنى أؤكد لك أننى نعمت دائمًا بموقد دافئ وكمية وافرة من الطعام، خاصة الخنازير البرية والغزلان وكل أنواع الطعام. القلة التى تقطن المجر تحيا حياة رغدة على الرغم من عدم امتلاكهم لأموال طائلة لكن الغابات والسهول تمدهم بالمؤن بوفرة، طلب منهم أن يقدموا لنا كل الضروريات التى نحتاجها ، حتى الخيول التى طلبناها، يقدمونها عادة مجانًا، لكن مستر ورتلى لم يكن ليرغم أولئك الريفيين الطيبين على الاستجابة لهذه المطالب ، وكان دائمًا يدفع لهم ما يستحقونه مقابل ما يقدمونه لنا. وكان ذلك الكرم غير المتوقع مثار عجبهم ودهشتهم، ذلك أنهم لم يعتادوه كثيرا، وحين أوشكنا على الرحيل أصروا على تقديم دستة من طيور الدراج السمينة وهى شبيهة بالحجل أو أى شىء من هذا القبيل كهدية لنا. ملابسهم شديدة البدائية وهى عبارة عن مجرد جلود أغنام بسيطة جففتها الشمس ، وغطاء للرأس وحذاء للقدمين من نفس المادة. ولك أن تتخيلى أن هذه الملابس تبقى لعدة شتويات ولذلك ليسوا بحاجة للنقود.

فى السادس والعشرين منه، عبرنا نهر الدانوب المتجمد، ومعنا كل مركباتنا وأمتعتنا. التقينا فى الجانب الآخر بالجنرال فيترانى ، الذى دعانا بلطف شديد أن نمضى الليل فى قلعة صغيرة من قلاعه، تبعد عن المكان بضعة أميال، مؤكدًا علينا أننا سنمضى يومًا صعبًا فى رحلتنا إلى إيسك ، وقد أثبتت الرحلة مدى صدق كلامه، فالغابات التى مررنا بها فى تلك الناحية كانت شديدة الوعورة والخطورة، ونادرًا ما يمر أحد

من خلالها؛ بسبب العدد الهائل من الذئاب التى تعيش فيها. على أى حال وصلنا بسلامة الله آمنين رغم التأخير، وقضينا هناك يومًا لإرسال من يحمل رسائلنا إلى باشا بلجراد ، وانتهزت الفرصة لمشاهدة البلدة التى لم تكن كبيرة، لكنها جميلة المعمار ومحصنة جيدا. كانت هذه البلدة ناجحة تجاريًا وغنية ومأهولة بالسكان عندما كانت تحت يد الأتراك. وهى تقع على نهر دراف الذى يصب فى نهر الدانوب. وبها جسر يعد من أروع الآثار فى كل أنحاء العالم، طوله ثمانية آلاف قدم. وهو مبنى كله من خشب البلوط الذى احترق وتحولت المدينة كلها إلى رماد على يد الكونت ليزلى فى ١٦٨٥، لكن تم إعادة إصلاحها مرة أخرى وحمايتها على يد جنود الأتراك الذين تركوها – على أى حال – فى عام ١٦٨٧ ، واستولى عليها الجنرال دونفالت تحت إمرة الإمبراطور وظلت تحت سلطته منذ ذلك الحين وهى تعد الآن واحدة من أقوى حصون المجر.

فى الثامن والعشرين منه وصلنا إلى بوكوروار، وهى بلدة راسكية كبيرة جدا ، مبنية كلها على الطراز الذى سبق ووصفته لك. التقينا هناك بالكولونيل ـــ الذى رفض أن يدعنا نذهب إلى أى مكان آخر غير مسكنه، حيث قابلنا زوجته، وهى سيدة مجرية لطيفة المعشر، وابنة أخيه وابنته وهما شابتان جميلتان، ويعيش الجميع فى ثلاثة أو أربعة بيوت مفتوحة على بعضها البعض لتصبح بيتًا واحدًا، وهى على درجة عالية جدا من النظافة. والسيدات المجريات أكثر جسنًا من النمساويات . كل جميلات فيينا من هذه البلدة ، وهن عمومًا جميلات جدا وبديعات القوام

للغاية، ويرتدين ملابس جذابة لأقصى درجة. كانت زوجته ترتدى ثوبًا من المخمل القرمزى ، بطانته وحاشيته مغطاة بفرو السمور، مناسبًا لجسمها تماما ، والجزء الأسفل (التنورة) تصل إلى قدميها. والأكمام ضيقة على الذراعين والصدرة مزينة بصفين من الأزرارالصغيرة من الذهب واللؤلؤ، أوالماس. يضعن على رءوسهن كابًا مطرزًا بشرابة من الذهب تتدلى على أحد الجانبين وبها خطوط من فراء السمور أو أى فراء جميل آخر. قدموا لنا عشاءً طيبًا، وكان حديثهم معنا مهذبًا جدًا ودمثًا للغاية. وأصروا على مرافقتنا بعضًا من الطريق.

فى التاسع والعشرين وصلنا هنا، والتقينا بقائد الوحدة العسكرية الذى يرأس جميع ضباط الحامية العسكرية. أسكنونا فى أفضل أجنحة منزل الحاكم، وعملوا على الترفيه عنا بأروع ما يمكنهم حسب أوامر الإمبراطور. انتظرنا هنا حتى تمت تسوية كل الأمور، بما فيها استقبالنا على الحدود التركية. عاد هذا الصباح المبعوث الرسمى الذى أرسله السيد ورتلى من إسيك، يحمل رد الباشا فى كيس من الحرير القرمزى، قام المترجم بترجمته. وفيه يعد الباشا السيد ورتلى بحسن استقباله ويطلب معرفة الموعد الذى يحدده للقائه بالموكب التركى الذى سيرافقه لحمايته. أعاد زوجى إرسال مبعوثه ذاكرًا بتسكو وهى قرية فى منتصف الطريق بين بيتروارادين وبلجراد. وسنبقى هنا حتى يأتينا الرد.

هكذا ياشقيقتى العزيزة كتبت لك وصفًا مسهبًا عن هذا الجزء من رحلتى (أخشى أن تظنى) أنه شديد الملل. لم يكن متكلفًا تقديم قراءتها التى جعلتنى أخبرك بعض القليل من النبذ عن تاريخ البلدان التى أمر بها، لقد تجنبت دائما أى شىء من هذا القبيل عند حديثى عن الأماكن التى أعتقد أنك تعرفين تاريخها مثلى. لكنى أعتقد أن المجر جديدة عليك تماما، فى ظنى أنك ستقرأين ما أكتبه من معلومات عن وصفها ببعض السعادة. تلك المعلومات التى طالما شعرت بالوسوسة حتى بحصولى عليها من مصادر أثق فيها. على أى حال إذا لم ترقك فى مقدورك أن تعدلى عن قراءتها. شقيقتك المحبة

أنا عند وعدى بإرسال هذا الخطاب إلى فيينا بكل عناية.

* * *

إلى السيد بوب

بلجراد فى ١٢ فبراير ١٧١٧

كان فى نيتى أن أكتب لك خطابًا مطولاً من بيتر وارادين، حيث توقعت أن أمكث بها ثلاثة أو أربعة أيام لكن الباشا استعجل رؤيتنا، وأعاد رسولنا المبعوث إليه (الذى أرسله إليه السيد ورتلى ليعرف الموعد الذى يرغب فيه فى لقاء الحامية) دون أن يدعه يخلع حذاءه.

لم تكن خطاباتى بالأهمية التى تجعلنى أوقف الرحلة لأكتبها، ذلك أننا غادرنا بيتروارادين اليوم التالى، وزارنا رئيس ضباط الحامية العسكرية زيارة رسمية ومعه حامية عسكرية من الألمان والراسكيان ليست قليلة . ولدى الإمبراطور الكثير من تلك التنظيمات. لكن إذا توخينا الحقيقة فإنهم ليسوا سوى شرزمة لصوص أكثر من كونهم جنوداً، وليس هناك من يدفع لهم رواتبهم وعليهم أن يحصلوا على أسلحتهم وخيولهم بأنفسهم ، ويبدون مثل الغجر المتشردين أو المتسولين المشاكسين أكثر من كونهم فرق جنود نظامية.

لا يمكننى احتمال الكلام عن هذا النوع من المخلوقات، وهم متواجدون بأعداد كبيرة فى كل أنحاء المجر.

ولديهم بطريرك خاص بهم من نفس طائفتهم الدينية فى القاهرة الكبرى، فهم ينتمون للكنيسة اليونانية، لكن جهلهم المطبق منح قساوستهم الفرصة لاستغلال كثير من التصورات والأفكار الجديدة ونشرها بينهم . أولئك الكهنة يتركون شعورهم ولحاهم تنمو بدون مساس فيشبهون البراهما الهنود تماماً. وهم يرثون كل نقود الطائفة، وبالمقابل يمنحونهم صكوكًا رسمية موقعة مختومة لدخول الجنة، أما الزوجات والأطفال فيرثون فقط البيوت والبهائم. فى معظم ما يخص الدين فى غير ذلك من أمور يتبعون الطقوس اليونانية.

هذا الاستطراد القليل قاطع إبلاغى إياك أننا مررنا بميدان معركة كارلوفيتز، حيث تم آخر نصر كبير حققه الأمير يوجين ضد الأتراك. ومازالت علامات نصر ذلك اليوم الدامى باقية، فالميدان مغطى بجماجم وجثث الرجال والخيول والجمال التى لم تدفن حتى هذه اللحظة. لم أستطع النظر إلى ذلك العدد من الأجساد الآدمية المشوهة دون إحساس بالرعب، وبظلم الحروب التى تجعل من القتل ليس فقط أمرًا ضروريًا بل أهلا للمكافأة والتقدير. لاشىء يبرهن بوضوح عن عدم منطقية الجنس البشرى (مهما تكن االشعارات والادعاءات التى نزعم منطقيتها) أكثر من الغضب الذى يجتاحهم من أجل قطعة أرض صغيرة يتقاتلون عليها، فى حين هناك أجزاء أخرى شاسعة متروكة خالية من البشر. هذا حقيقى. فقد جعلت العادة هذا أمرًا لامفر منه ، لكن هل ثمة برهان أكبر ينبع من العقل أكثر من عادة رسخت فى الأذهان على النقيض تماما من مصلحة الإنسان بشكل عام، أنا أؤمن إلى درجة كبيرة بمقولة مستر هوبس أن الحرب هدف الطبيعة. لكنى بناءً على ذلك أصل إلى نتيجة مقتضاها أن الطبيعة الإنسانية ليست منطقية إذا كانت كلمة العقل تعنى التمييز والإدراك كما أفترض. لدىّ الكثير من الحجج المقنعة لتعضيد ذلك الرأى لكنى لن أزعجك بها، وفى المقابل وبأسلوب بسيط أوثقها فى تاريخ رحلاتى.

التقينا فى بتسكو (قرية فى منتصف الطريق بين بلجراد وبيتروارادين) بواحد من الأغاوات الإنكشاريين معه مجموعة من

الجنود الأتراك يفوقون الألمان بمائة رجل، رغم أن الباشا كان قد وعد بإرسال عدد مساوٍ لعدد الألمان. قد ترى أن ذلك ينبع من مخاوفهم. أنا مقتنعة حقيقة أنهم لم يفكروا كثيرا فى التفوق بإرسال مائة رجل زيادة عن الألمان، على أى حال كنت شديدة القلق حتى تم الفصل بين القوتين خشية وقوع أية مشاحنات رغم العهد الذى أخذه الجميع على أنفسهم.

وصلنا متأخرين إلى بلجراد، وقد جعل الجليد الصعود إليها أمرًا شاقًا. بدت مدينة قوية محمية من الشرق بنهر الدانوب ومن الجنوب بنهر سافو الذى كان يمثل فى السابق آخر حدود المجر. احتلها أول الأمر سليمان الأكبر، ومنذ ذلك الحين بقيت بها قوات الإمبراطور يقودها أمير بافاريا، وبقيت تحت سيطرته لعامين فقط، ثم استعادها كبير الوزراء العثمانى، وتم تحصينها بأقصى عناية ومهارة يستطيعها الأتراك ، الذين يدعمونها بحامية عسكرية كبيرة العدد من أشجع رجالهم الإنكشاريين، يرأسهم السركسيار باشا (جنرال).التعبير الأخير ليس دقيقًا، لأننا إذا توخينا الحقيقة فإن السركسيار يرأسه الإنكشاريون، الذين يتمتعون بسلطة مطلقة هنا، لا تختلف كثيرا عن العصيان، الذى يمكنك أن تحكم عليه من القصة التالية، التى ستقدم لك فى نفس الوقت فكرة عن ذكاء حاكم بيتروارادين الذى يثير الإعجاب رغم أنه يبتعد عن المكان بضعة ساعات. أخبرنا بنفسه فى بيتروارادين أن الحامية العسكرية وسكان بلجراد سأموا الحرب، فقتلوا الباشا الذى يحكمهم من شهرين مضيا،

فى أثناء حركة تمرد ؛ لأنه سمح لنفسه بمحاولة إقناعهم بالسماح للتتار بتخريب الحدود الألمانية مقابل رشوة قيمتها خمسة أكياس (خمسمائة جنيه استرلينى). كنا سعداء جدا بسماعنا مثل هذا التصرف الإيجابى من الناس، لكن عندما اقتربنا أكثر عرفنا أن الحاكم لم يكن يعلم، وسمعنا القصة الحقيقية، التى تقول إن الباشا الأخير كان واقعًا تحت سطوة جنوده بلا سبب سوى كبح غاراتهم على الألمان. أبلغوا ذلك لرؤسائهم، ومن منطلق ذلك اللطف، اتهموه بالتآمر مع الأعداء، وأرسلوا بتلك المعلومات إلى الباب العالى فى أدرنة، لكن الرد على الرسالة لم يأت سريعًا، فاحتشدوا بطريقة هائجة، وجرّوا الباشا الذى يحكمهم أمام القاضى والمفتى وطلبوا إقامة العدل بطريقة متمردة، أحدهم يصيح: لماذا يحمى أرض العدو؟ وآخر: لماذا يعتصرهم ولا يدفع رواتبهم؟ وقد استوضح غرضهم بسهولة فأجابهم بهدوء بأنهم سألوه أسئلة كثيرة وأن رده عليهم أنه لا يملك إلا عمرًا واحدًا يجيب به على كل تلك الأسئلة. فصرعوه فى الحال بسيوفهم المعقوفة ذات الحد الواحد (دون انتظار لحكم القضاء)، وفى غضون دقائق قليلة قطعوه إربًا إربًا. لم يجرؤ الباشا الحالى على معاقبة القتلة، بل على العكس عرض مكافأة لمن قاموا بذلك باعتبارهم شجعانًا أقاموا العدل بأنفسهم. وتظاهر بإلقاء الأموال بين رجال الحامية العسكرية، وسمح لهم بالقيام برحلات ترفيهية إلى المجر، حيث قاموا بحرق بيوت بعض الفقراء الراسكيين.

لك أن تتصور لم يكن من السهل عليّ البقاء فى بلدة يحكمها جماعة جند متغطرسين. وقررنا الرحيل فى الحال بعد ليلة واحدة من الإقامة فيها، لكن الباشا احتجزنا لحين وصوله الأوامر من أدرنة، ومن الممكن أن تستغرق شهراً. فى ذلك الوقت كنا نقيم فى واحد من أفضل البيوت، ويمتلكه رجل يكنون له احتراماً شديداً بينهم، وملأ حجرة بالإنكشاريين لحراستنا. كانت التسلية الوحيدة المتاحة لى هى الحديث مع مضيفنا أحمد بك، وهو لقب يشبه لقب كونت فى ألمانيا. كان والده باشا كبيراً، وقد تلقى تعليماً رفيعاً فى أفضل مدارس الشرق، وتفوق فى تحصيل اللغتين العربية والفارسية، وهو كاتب على درجة غير عادية من المهارة يطلقون عليه أفندى. وهذا يسهل له الحصول على أكبر المناصب، لكنه من رجاحة العقل بما جعله يفضل الحياة الآمنة الهادئة البسيطة عن كل المقامات الرفيعة الخطرة التى عرضها عليه الباب العالى . كان يتناول العشاء معنا كل ليلة ويشرب الخمر بحرية. لا يمكنك أن تتصور كم كان سعيداً بحرية الحوار معى . شرح لى كثيرا من نصوص الشعر العربية، وقد لاحظت أنها من حيث الوزن تختلف عن أشعارنا وهى بشكل عام مكتوبة فى أبيات متناوبة، وموسيقاها شديدة الوضوح. كما أن التعبير فى الشعر عن الحب مفعم بالعاطفة والحياة . سعدت جدا بهذه الأشعار، وأعتقد حقيقة أننى يجب أن أتعلم قراءة اللغة العربية ، إذا بقيت هنا بضعة شهور. لديه مكتبة رائعة مليئة بالكتب من كل صنف ، وكما قال لى، يقضى معظم وقته فى قراءتها. شعرت حياله أننى أمام

باحث كبير، ورويت عليه بعض الحكايات الفارسية الرائعة. حتى ظن أننى أفهم اللغة الفارسية. وقد حدثت بيننا مناقشات كثيرة حول اختلاف عادات كل منا، خاصة القيود التى تحيط بالمرأة. وراح يؤكد على العكس، قائلاً إننا نختلف عنهم فى ميزة واحدة، شارحًا: " عندما تخدعنا زوجاتنا لا أحد يعرف ذلك". لديه فطنة ووجدته أكثر تهذيبًا من معظم الرجال المسيحيين الأرستقراطيين. استمتعت بلقائه كثيرا. كان لديه من حب الاستطلاع أن يجعل واحداً من خدمنا يعلمه أبجدية لغتنا، واستطاع أن يكتب بالفعل الحروف اللاتينية بخطٍ جميلٍ.

لكن هذا اللهو لم يمنعنى من تمنى مغادرة هذا المكان من أعماق قلبى، رغم أن الطقس أبرد من جرين لاند. لدينا موقد مشتعل على الدوام، ومع ذلك فنوافذ الحجرة مجمدة من الداخل. الله وحده يعلم متى أستطيع أن أرسل لك بهذه الرسالة : لكننى كتبتها لأخلص ضميرى، ولا يمكنك الآن أن تلومنى لأن خطاباً منك قد يساوى عشرة من خطاباتى .

* * *

إلى سمو أميرة ويلز

إدريانويل فى ١ أبريل ١٧١٧

لقد قمت يا سيدتى العزيزة برحلة لم يقم بها أى مسيحى منذ عهد الأباطرة الرومان: ولن أندم على كل مالقيته من تعب فيها، لو منحتينى فرصة إسعاد سموك بوصف أماكن غير معروفة لنا على الإطلاق، فسفراء الإمبراطور وأولئك الإنجليز القلائل الذين أتوا هنا يتخذون طريقهم عادة عبر نهر الدانوب إلى نيكوبوليس. لكن الدانوب متجمد الآن، والسيد ورتلى بحماسه الشديد لخدمة جلالة الملك، لم يشأ أن يؤجل رحلته انتظاراً لملاءمة الطريق.

لقد اجتزنا صحارى الصرب وهى تقريبًا مغطاة بالغابات، لكن برغم أن البلد ذات طبيعة خصبة و سكانها يعملون بكد، فإن الظلم الواقع على عاتق الفلاحين شديد، فهم يرغمون على ترك منازلهم وإهمال فلاحتهم فى سبيل إرضاء الجراكسة أينما طاب لهم الاستيلاء عليها. كان يقوم بحراستنا خمسمائة منهم، وكنت كل يوم تنساب دموعى عندما أرى غطرستهم فى القرى الفقيرة التى نمر بها.

بعد السفر سبعة أيام عبر الغابات الكثيفة وصلنا إلى نيسا التى كانت ذات يوم عاصمة الصرب، وهى تقع على سهول نهر نيسافا، وجوها جميل جدا، وأرضها شديدة الخصوبة لدرجة لا تصدق. لقد أكدوا لى بشكل قاطع أن كمية الخمر من آخر قطفة كانت مذهلة،

اضطروا للحفر فى الأرض لتخزينها، ولم يكن لديهم آنية كافية فى البلدة ليضعوها فيها. لكن أولئك الناس المقهورين لم يستطيعوا تذوق السعادة بهذا المحصول الوفير. رأيت هنا سببًا آخر مدعاة لإشفاقى عليهم؛ أولئك البؤساء الذين أمدونا بعشرين عربة تحمل متاعنا من بلجراد إلى هنا نظير أجر معين ، طردوا جميعًا دون مليم واحد، وأُصيبت بعض خيولهم بالعرج وبعضها الآخر فُقد دون أن يتلقى أصحابها أية ترضية. تجمع أولئك المساكين حول المنزل وهم يبكون ويمزِّقون شعورهم ولحاهم بطريقة تثير الإشفاق للغاية دون أن يحصلوا على شىء سوى الجلد من أولئك العسكر المتغطرسين. لا يمكننى أن أصور لسموك مدى تأثرى بهذا المشهد. كنت أتمنى لو بمقدورى أن أدفع لهم أجرهم من مالى الخاص بكل ممنونية، لكنى أعرف أنه كان سيذهب كله إلى جيب الأغا، الذى سيأخذه منهم دون أن يشعر بالندم.

بعد رحلة أربعة أيام عبر الجبال وصلنا إلى صوفيا التى تقع على سهل فسيح على نهر إيسكا، و تحيط بها الجبال من بعيد. من الصعب بمكان أن يصف الانسان منظرًا طبيعيًا بهذا الجمال. أما المدينة نفسها فكبيرة جدا وآهلة بالسكان ، توجد بها الحمامات الساخنة، وهى ذات شهرة واسعة بسبب فوائدها الصحية. ثم واصلنا رحلتنا لمدة أربعة أيام أخرى من هناك إلى فيليبوبلى، بعد مرورنا بسلاسل جبال هموس ورودوب التى يغطيها الجليد بشكل دائم. تقع البلدة على ربوة عالية قرب نهر هبروس، وأغلب قاطنيها من اليونانيين، وتوجد بها بعض الكنائس

القديمة. لديهم أسقف وعدد من اليونانيين الأثرياء يسكنون هنا، لكنهم يضطرون لإخفاء ثرواتهم بحرص شديد، فمظهر الفقر (الذى لا يناسبهم كثيرا) يضمن لهم الأمان الذى لا يشعرون به إذا أظهروا ثراءهم. الريف من هنا حتى أدرنة يعد من أجمل بقاع الدنيا. فالكروم تنمو على التلال بوفرة، والربيع الدائم الذى يستمتعون به يجعل كل شىء يبدو مبهجًا ومزدهراً. لكن الطقس كما يبدو لا يمكن تفضيله على مناخ إنجلترا بكل ثلوجها وغاباتها، لأننا ننعم بحكم سلس تحت لواء ملك تكمن سعادته الشخصية فى حرية شعبه، وقد اختار أن يعتبره أفراد الشعب أبًا لهم بدلاً من أن يكون سيدهم.

هذه الفكرة حملتنى بعيداً جداً، وهأناذا أدرك أننى أستنفد صبر سموك بالفعل لكن خطابى بين يديك ويمكنك أن تختصريه كما تشائين ، بإلقائه فى النار عندما تملِّين قراءته .

المخلصة لك

مع احترامى الشديد

* * *

إلى السيدة ــــ

أدرنة فى ١ أبريل ١٧١٧

أنا الآن فى عالم جديد حيث كل شىء أراه يبدو لى تغييرا للمنظر، وأكتب لسيادتك هادئة البال إلى حد ما، آمل على الأقل أنك ستجدين سحر التجديد فى خطاباتى، ولن تعودى لتوبيخى على عدم إخبارك بأى شىء غريب .

لن أزعجك بسرد تفاصيل رحلتنا المملة، لكنى لا ينبغى أن أحذف ما رأيته فى صوفيا، وما شعرت أنه جدير بالذكر، فهى واحدة من أجمل بلدان الإمبراطورية التركية، وتشتهر بحمّاماتها الساخنة التى يرتادونها لأغراض الاستمتاع والصحة. وقد مكثت هنا يومًا خصيصًا لأراها. وقررت الذهاب متخفية، فاستأجرت عربة تركية. هذه العربات لا تشبه عرباتنا إطلاقًا بل أكثر ملاءمة لهذه البلاد، فالحرارة قد تشتد لدرجة أن الزجاج شديد الإزعاج ، وهذه العربات تشبه إلى حدٍ كبيرٍ نمط العربات الهولندية، بها نوافذ مزودة بمشربيات منقوشة ومطلية بالذهب، ومن الداخل بها نقوش سلال وباقات من الزهور، مختلطة بأبيات من الشعر. ومغطاة كلها بقماش قرمزى مبطّن بالحرير ومطرّز بالقصب ومذيل بالشراريب. وهذه التغطية الشديدة تخفى من بداخلها، لكن قد يرفعونها من منطلق التسلية والبهجة، وتسترق السيدات النظر من نوافذ المشربيات. هذه العربات تكفى أربعة أشخاص يجلسون على الكنبتين لكنهم لا يستطيعون الوقوف داخلها.

ذهبت فى عربة من هذه العربات المغطاة إلى الحمّام التركى حوالى الساعة العاشرة. وكان قد امتلأ بالفعل بالنساء. وهو مبنى من الحجر على شكل قبة دون نوافذ إلا فى السقف، وهى كافية لإضاءته. كان هناك خمس من هذه القباب متصلة ببعضها البعض ، البعيدة أصغر من الأخريات، وهى تستخدم فقط كصالة حيث تقف البوابة على الباب. وتمنح سيدات الطبقة الأرستقراطية هذه المرأة ما قيمته كراون أو عشرة شلنات، ولم أنس أن أفعل ذلك. الحجرة التالية شديدة الاتساع ومبلطة بالرخام، وعلى مدار جدرانها أريكتان من الرخام، واحدة منهما وراء الأخرى. فى هذه الحجرة أربع نافورات من الماء البارد يتساقط أولاً فى أحواض من الرخام، ثم ينزلق على الأرض فى قنوات صغيرة معدة خصيصًا لهذا الغرض، تحمل تيار الماء المتدفق إلى الحجرة التالية، وهى حجرة أصغر من الحجرة السابقة بها نفس نوع الأرائك الرخام السابقة لكنها شديدة الحرارة الناتجة عن الأبخرة الكبريتية الخارجة من الحمّامات التابعة لها. من المستحيل أن يبقى المرء هناك مرتديًا ملابسه. القبتان الأخريان بهما الحمّامات الساخنة، إحداهما بها صنابير مياه باردة تتحول إليها لتلطف درجة الحرارة إلى الدفء الذى تحتاج إليه العميلات.

كنت بملابس السفر التى تستخدم فى ركوب الخيل، التى بدت لهن شديدة الغرابة، ومع ذلك ولا واحدة منهن على الأقل أظهرت نوعًا من الدهشة أو الفضول الوقح، بل استقبلننى بكل الود واللطف. لا أعرف

بلاطًا أوروبيًا به مثل أولئك السيدات اللاتى يتصرفن بعفوية وأدب شديد مع امرأة غريبة. أعتقد أن عدد النساء اللاتى كنّ موجودات بالحمّام يصل إلى مائتى امرأة، ومع ذلك لم أر ابتسامة واحدة تنم عن الازدراء أو حتى سمعت همسة سخرية، مما لا تخلو منها مجتمعاتنا عندما يظهر شخص لا يرتدى ما يرتدونه. بل رُحْنَ يكررن على مسامعى المرة تلو المرة (أوزال يك أوزال) التى تعنى لطيفة لطيفة جدا. كانت الأريكة الأولى مغطاة بالوسائد والسجاجيد النفيسة، وتجلس عليها السيدات، أما الثانية فتجلس عليها جواريهن، لكن دون أى نوع من التمييز الطبقى فى الملابس، كل واحدة بطبيعتها، وبإنجليزية واضحة كنّ عاريات تماما بكل ما فى الكلمة من معنى، دون إخفاء لأى جمال أو قبح. ومع ذلك لا تصدر عن أى منهن حتى ابتسامة خليعة أو إيماءة بذيئة. وهن يسرن ويتحركن بنفس الرشاقة الملوكية التى وصف بها ميلتون أمَّنا حواء. كانت الكثيرات منهن لها نفس التناسب الجسدى الذى تتمتع به أية إلهة رسمتها ريشة جيد أو تيتيان، ومعظمهن ذوات بشرة بيضاء براقة بلا أى زينة سوى الشعر الجميل يتدلى فى جدائل كثيرة مضفورة على أكتافهن، ملفوفة إما باللؤلؤ أو بالأشرطة، ليشبهن تمامًا إلاهات الحسن الثلاث(١) .

---

(١) ثلاث إلاهات شقيقات كان الإغريق يعتبروهنّ مانحات للفتنة والجمال .

اقتنعت هنا بصواب فكرتى، التى أؤمن بها دائما، وهى صعوبة ملاحظة تفاصيل الوجه إذا كان الجسد كله عاريًا . وقد استحوذت تلك السيدات اللاتى يمتلكن أصفى وأرق بشرة وألطف ملامح على إعجابى الشديد، رغم أن وجوههن كانت أحيانًا أقل جمالاً عن وصيفاتهن. للحقيقة كنت شريرة لدرجة أننى تمنيت فى سرى لو أمكن للسيد جيرفاز الرسام أن يكون بيننا هناك ولا يراه أحد. ويخيل إلىّ أن هذا العدد الكبير من الحسناوات العاريات فى أوضاع مختلفة، بعضهن يتحدثن وبعضهن يعملن ، وأخريات يشربن القهوة أو الشربات والكثيرات يتمددن على الأرائك فى استرخاء بينما جواريهن (وهن غالبًا فتيات جميلات فى السابعة عشرة والثامنة عشرة من العمر) مشغولات بجدل شعورهن فى ابتكارات جميلة مختلفة، سيضيف الكثير جدا لفنه. باختصار يعتبر هذا مقهى للنساء، وتُحكى فيه كل أخبار البلد، وتُخترع فيه الشائعات، و هن عادة يستمتعن بهذا الضرب من اللهو والتسلية مرة كل أسبوع، ويبقين هناك على الأقل لمدة أربع أو خمس ساعات،دهشت لعدم إصابتهن بنزلات البرد رغم خروجهن من الحمّام الساخن إلى الحجرة الباردة. استعطفتنى السيدة التى تبدو أنها الأكثر مكانة بين الجميع أن أجلس بجوارها، وكانت تود بكل سرور أن تقنعنى بخلع ملابسى لآخذ حمامًا . واعتذرت لها بصعوبة. كنّ جميعا مخلصات فى محاولة إقناعى، وفى النهاية اضطررت أن أفتح قميصى، وأريهن المشدات التى أرتديها تحت ملابسى، وقد سعدن بذلك جدا، وأظن أنهن

اعتقدن أن هذه الملابس الضيقة لا أستطيع خلعها بإرادتى، واعتبروها من اختراع زوجى. افتتنت بلطفهن وجمالهن، وكان يسعدنى قضاء المزيد من الوقت بينهن، لكن السيد ورتلى كان مقرراً مواصلة رحلته مبكراً فى اليوم التالى، فكنت على عجلة من أمرى لرؤية أطلال كنيسة جستينيان، التى لم أر فيها أى مشهد جميل، حيث لم يبق منها إلا أكوام من الحجارة.

وداعًا سيدتى، وأعتقد أننى أمتعتك الآن بوصف منظر لم تشاهديه فى حياتك من قبل، ولا يمكن لكتاب رحلات أن يقصه عليك، فليس أقل من الموت عقابًا لرجل لو عثروا عليه فى مثل ذلك المكان.

* * *

إلى الأب كونتى

أدرنة فى ١ أبريل ١٧١٧

لعلك تدرك أننى شديدة التدقيق فى التزامى بالوعد الذى أخذته على عاتقى تجاهك، لكنى لا أعرف إذا كان ما سأرويه لك سيشبع فضولك أم لا، وأؤكد لك أن الرغبة التى تحدونى لفعل ذلك بأقصى ما أستطيع، جعلتنى أبذل قصارى جهدى فى البحث والملاحظة. إن ما نعرفه عن أخلاقيات ودين هؤلاء القوم قليل جدا، فهذا الجزء من العالم

من النادر أن يزوره أحد سوى التجار الذين لا يهتمون إلا بما يتعلق بشئون تجارتهم، أو الرحالة الذين يمكثون هناك بعض الوقت لا يمكنهم من الحصول على أية معلومات دقيقة بأنفسهم. الأتراك على قدر عالٍ من الكبرياء ؛ فهم لا يتبسطون فى الحديث مع العامة أو التجار، ولذلك كل ما يمكن لأولئك التجار أن يلتقطوه مجرد معلومات مشوشة، وهى عموماً غير صادقة، ولا يمكنهم تقديم معرفة أفضل عن سبل الحياة هنا، أكثر مما يستطيع لاجئ فرنسى يقيم فى علية فى شارع جريك ستريت أن يكتبه عن البلاط الإنجليزى.

الرحلة التى قمنا بها من بلجراد إلى هنا بالبر، لا يمكن لأى شخص غير الشخصيات العامة أن يقوم بها. فالغابات غير المطروقة فى الصرب تعد بمثابة وكر للصوص، الذين ينهبون القوافل التى تمر بهم حتى لو وصل عدد أفرادها إلى خمسين شخصًا ، لذلك كنا فى أمس الحاجة لكل حراسنا ليسهروا على حمايتنا، والقرى شديدة الفقر لدرجة أن جنود الحراسة الإنكشارية فقط هم الذين ينتزعون منهم المؤونة الضرورية. فى الواقع الجراكسة لا تأخذهم بهم رحمة لفقرهم، فهم يذبحون كل ما تقع عليه عيونهم من طيور داجنة وأغنام دون سؤال عن صاحبها، بينما أصحابها البؤساء ليس فى استطاعتهم إعلان ملكيتهم لها خوفًا من الضرب. تتساقط الحملان، وإناث الديوك الرومى منتفخة بالبيض، وتذبح كل البهائم دون تمييز! يخيل إلىّ أننى أسمع شكوى ميلوبيس لتوسلات قطيعه. عندما يسافر الباشاوات تصير الأمور إلى

الأسوأ. فهؤلاء الطغاة لا يكتفون بأكل كل ما يؤكل مما يخص الفلاحين، بل بعدما يتخمون من كثرة الطعام هم وأفراد حاشيتهم التى لا تعد ولا تحصى، لديهم من الصفاقة والوقاحة لانتزاع ما يسمونه ضريبة الأسنان أو استخدام أسنانهم لتمزيق ما يسمونه شرف التهام لحومهم. وهذه حقيقة معروفة بحرفيتها، مهما بدت مبالغ فيها، هذا هو حال الفساد الطبيعي للحكومة العسكرية، رغم أن دينهم لايسمح بهذا السلوك البربرى مثل ديننا تماما.

أسعدنى الحظ بالإقامة لمدة ثلاثة أسابيع فى بلجراد فى منزل أحد الأفندية من أصحاب الشأن، ويمكن القول إنه أستاذ باحث. أمثال هذا الرجل مؤهلون لارتقاء المناصب سواء فى مجال القانون أو الرتب الدينية، فهم يدرسون علوم القانون والفقه معًا ، وبناءً عليه يمكن للشخص الحاصل على هذه العلوم أن يصبح محاميًا و فقيهًا فى وقت واحد. وهم الرجال الوحيدون فى الإمبراطورية الذين يحظون باحترام شديد، ويجمعون تحت أيديهم كل الوظائف المربحة بالإضافة للسلطة الدينية. وعلى الرغم من أن الخليفة هو الوريث العام لشعبه، فإنه لا يمس إطلاقًا أرضهم أو نقودهم التى تصل بشكل مباشر إلى أولادهم. صحيح أنهم يفقدون تميزهم إذا قبلوا مكانًا فى القصر أو مُنحوا لقب باشا، والأمر لا يخلو من بعض الحمقى بينهم الذين يتورطون فى مثل هذه الأمور. من السهل إدراك مدى قوة أولئك الرجال الذين يحتكرون كل العلوم وتقريبًا كل ثروات الإمبراطورية. فى الواقع هم الملاك الحقيقيون

رغم أن العسكر هم الذين يظهرون على السطح ويقومون بالثورات. وهم الذين قاموا بخلع السلطان الأخير مصطفى وقوتهم معروفة جيدا، ولا يشغل الإمبراطور الحالى شيء سوى منافقتهم.

هذا استطراد طويل. كنت سأخبرك أنى أحظى بحوار حميم كل يوم مع الأفندى أحمد بك، منحنى فرصة الإلمام بأمور دينهم وأخلاقياتهم بتفصيل أكثر مما سبق إتاحته لأى مسيحى. شرحت له الاختلاف الطائفى بين مسيحيى إنجلترا ومسيحيى روما، وكان مسروراً لسماعه أن هناك مسيحيين لايمجدون التماثيل أو يعبدون العذراء مريم.

* * *

لعلك تتوقع أننى سأحكى لك بعض الشىء عن الثقافات والآثار القديمة لهذا البلد، لكن ما بقى بها من التراث الإغريقى القديم قليل جدا. مررنا بجزءٍ من قنطرة تعرف باسم بوابة تراجان، يفترض أنه أنشأها ليغلق الممر المؤدى للجبال بين صوفيا وفيلوبوبوليس . لكنى أميل للاعتقاد أنها أطلال جزء من قوس نصر (رغم أننى لم أستطع رؤية أية نقوش تدل على ذلك) ذلك أنه لو تم إغلاق هذا الممر، فهناك كثير من الممرات غيره بوسع جيش زاحف أن يطرقها، على الرغم من قصة بولدوين إيرل فلاندرز الذى هُزم فى هذه المناطق الوعرة بعد نجاحه فى

الاستيلاء على القسطنطينية. صحيح أن الطريق الآن معد إعداداً جيدا بأفضل طريقة ممكنة استعداداً لزحف الجيش التركى، فلا يوجد خندق واحد أو حفرة بين هذا المكان ، وبلجراد لم يبن عليها جسر كبير قوى مفروش بالألواح الخشبية، لكن الجروف ليست شديدة الخطورة كما سمعت عنها. وتحت سفوح هذه الجبال مكثنا فى قرية كيسكوى الصغيرة وجميع قاطنيها من المسيحيين، مثل جميع فلاحى بلغاريا. ومنازلهم مجرد أكواخ صغيرة، مبنية بالطين المجفف فى الشمس، وهم يتركونها ويصعدون إلى أسطح الجبال، قبل زحف الجيش التركى بعدة شهور، وإلا دمرهم تماماً ، بطردهم جميعا من المكان. هذه الحيطة تحميهم إلى حد كبير، لأن مثل تلك الساحات الشاسعة من الأرض تعتبر مناطق عامة. ولديهم الحرية فى زراعتها كما يحلو لهم، وهم مزارعون على درجة عالية من الكفاءة. شربت هنا العديد من أنواع الخمر الجيد. ترتدى النسوة هنا حليًا من الخرز المصنوع من الزجاج الملون بألوان كثيرة جدا. وهن لسن قبيحات لكن بشرتهن سمراء تميل للصفرة.

أخبرتك الآن بكل ما يستحق أن أحكيه لك وربما يزيد، مما رأيته ى رحلتى. عندما أصل إلى القسطنطينية سأحاول أن ألم ببعض الغرائب والطرائف وأرسل لك بها.

* * *

إلى كونتيسة بريستول

أدرنة فى ١ أبريل ١٧١٧

لأننى لا يمكن أن أنسى أصغر أوامر سيادتك وأقلها شأنًا، كان شغلى الشاغل هنا هو الاستفسار عما طلبت منى أن أبحث لك عنه، لكنى لم أعثر عليه. الفرق بين الملابس هنا والملابس فى لندن فرق شاسع، فنفس نوع القماش لا يناسب القفطان والمنط[٢] على أى حالٍ لن أكف عن بحثى بل سأعاود البحث عندما أذهب إلى القسطنطينية، وإن كنت على يقين أنه ليس هناك أفضل من الموجود هنا، حيث مقر إقامة السلطان حاليًا. فقد تم زفاف كبرى بناته منذ بضعة أيام قبل وصولى، وإزاء تلك المناسبة عرضت السيدات التركيات كل أبهتهن وعظمتهن. وصلت العروس إلى بيت زوجها فى موكب شديد الفخامة والبهاء. وهى أرملة الوزير السابق الذى قتل فى بيتروارادين، ورغم أن زواجها منه لم يتم عمليًا لأنها لم تعش فى بيته، لكنها ورثت عنه الجزء الأكبر من ثروته. كان مسموحًا له بزيارتها فى الحرملك وكان واحدًا من أكثر رجال الإمبراطورية وسامة فقد أثر فى عواطفها بشدة. وعندما رأت العريس الثانى الذى يبلغ الخمسين من عمره على أقل تقدير ، لم تتمالك

---

(١) المنط نوع من المعاطف أو الأثواب الفضفاضة .

نفسـها وانفجـرت فى البكاء. صـحـيح أنه رجل فاضل ومن مـحـاسـيب السلطان، لكن هذا ليس كافـيًا لجعله يحلو فى عـينى فتـاة فى الثـالثـة عشرة من عمرها.

الحكـومة كلـها هنـا فى يد الجـيش، والخليفة بـكل سلطاته يـرتعش مـثـل أى واحـد من رعـاياه إذا عـبس أحـد الجـراكسـة فى وجـهـه. هذه حقـيقـة، فلديهم الكثير من مظاهر الخضـوع أكثـر من عندنا: مـثلا، لا يسـتطـيع أحد أن يـحـدِّث وزير الدولـة إلا وهو راكع على ركبتيه، حتى لو كان اللـقاء فى مقهـى عام، وإلا فـإنه يهـدم المقهى ويسوِّيه بالأرض، وربما يعتقل كل الموجودين ويسـومـهم العذاب (لأنهم لديهم جواسيـس فى كل مكان) . ممـنوع على الجماهير الهتاف أواللافتات التى تنم عن الحمـق والغبـاء وممـنوع أيضـا مناقشة أمور السياسة فى الحانات.

الحـــرية تجلـب الفــســـــاد المتـــواتـر

نتائجها سلبية وإن صدرت عن قضـية نبيلة

وهنا يشـتم الكبـار (على الماشى)، لكن عندمـا يـغـضب الوزير الشـعب، فى ظرف ثلاث ساعـات يسـحـبونه، حتـى لو كان بين أحـضـان سيدة . ويقطعون يديه ورأسه وقدميه ويلقون بها أمام بوابة القصر بكل احتـرام ممكن، بينما ذلك السلطان (الذى يقـدمون له جـمـيعًا فـروض الطاعــة والولاء) يجلــس وهو ينــتـفض فى مكانه، لا يجـرؤ على الدفـاع

ولا على الانتقام لحسوبه. هذه هى حال النعمة التى يحياها ملك يستمتع بأكبر ملكية مطلقة على الأرض. لا يعترف بقانون سوى قانون رغباته.

أتمنى من كل قلبى أن يرسل البرلمان إلى هناك سفينة تحمل من أعضائه المطيعين حتى يروا الحكومة المستبدة فى أوضح صورها وأقواها، حيث من الصعب الحكم إذا كان الأمير أو الشعب أو الوزراء أيهم أكثر بؤساً. بإمكانى أن أقدم لك كثيراً من الأفكار عن هذا الموضوع، لكنى أعرف يا سيدتى أن فطنتك وحسن تقديرك للأمور بالفعل أفضل منى.

ذهبت بالأمس مع زوجة السفير الفرنسى لرؤية السلطان فى طريقه للمسجد. كان يتبعه عدد هائل من الحرس الجراكسة، وعلى رءوسهم ريش أبيض ضخم، وكذلك السباهية[٣] والبوستانجية[٤](وهم حرس المشاة والخيّالة) وبستانية قصر السطان، وعددهم كبير جدا، يرتدون زيًا مختلفًا، ألوانه زاهية جميلة، لدرجة أنهم يبدون من بعيد كروض من زهور التيوليب. ثم يليهم الأغا الجركسى فى رداء أرجوانى من القطيفة، مبطن بنسيج فضى، وحصانه يقوده اثنان من العبيد يرتديان أفخر الثياب. أمامه يسير الكيسلار أغا (تعرفين سموك أنه حرس

(٣) السباهى فارس بجيش السلطان العثمانى الخاص .
(٤) البوستانجية حرس منهم المشاة ومنهم الخيّالة .

السراجليو الخاص بالنساء) يرتدى ملابس صفراء داكنة (تناسب بشرته السوداء الداكنة) مبطنة بالفراء، يليه رفعة الباب العالى نفسه بزيٍ أخضر مبطن بفراء ثعلب مسكوفى أسود، يساوى ألف جنيه إسترلينى، ممتطيًا حصانًا جميلاً مجهز بركاب وخلافه مشغول بالجواهر. تسير خلفه ستة خيول أخرى، مجهزة بأبهة وفخامة، واثنان من أهم رجال الحاشية أحدهما يحمل إناء قهوة من الذهب والآخر يحمل إناءً من الفضة، مع طاقم آخر يحملون مقعداً من الفضة على رءوسهم لأجل جلوسه عليه.

أظن من مدعاة الملل أن أحكى لسموك عن الأزياء والعمائم المتنوعة التى يتميز بها جنودهم، فهم جميعًا يستمتعون بالثراء وملذات الحياة إلى أقصى درجة، ويصل عددهم إلى بضعة آلاف، لذلك ربما لا يمكنك مشاهدة موكب أكثر بهاءً من ذلك. لاح لنا السلطان وهو رجل وسيم فى حوالى الأربعين من عمره وله سيماء شديد اللطف، لكن ثمة قسوة تبدو على ملامحه، وعيناه واسعتان وسوداوان. تصادف أن توقف تحت النافذة التى كنا وراءها، و(أظن أنه على علم بهويتنا) نظر إلينا بانتباه شديد، لذلك كان لدينا من الوقت ما يكفى لنتأمله جيدا، ووافقتنى زوجة السفير الفرنسى على حسن ملامحه. أتبادل الزيارة مع تلك السيدة كثيرًا، وهى شابة كان من الممكن أن تمنحنى صحبتها راحة كبيرة لو استطعت إقناعها بالعيش دون الشكليات والرسميات التى تجعل الحياة رسمية ومملة. لكنها سعيدة بحرَّاسها، لها أربعة وعشرون فارسًا من المشاة،

وهم رجال على خلق، يعملون لديها كحجبة، وهى تفضل الموت على زيارتى بدونهم، ناهيك عن المركبة الكبيرة المليئة بوصيفات الشرف العذارى المرافقات لها. لكن ما يغيظنى حقًا هو أنها بقدر ما تحضر معها من حاشية مزعجة لدى زيارتها لى، تريد أن ترغمنى أن أفعل نفس الشىء. على أى حال، اهتماماتنا المشتركة تجعلنا قريبات الواحدة من الأخرى كثيرا.

اليوم التالى ذهبت بصحبتها فى جولة فى البلدة، فى مركبة مفتوحة مذهبة، وبرفقتنا موكب من الحاشية المرافقة لنا، يتقدمهم حراسنا وكأنهم يدعون الناس لمشاهدة ما لم يشاهدوه من قبل، ولا سيشاهدونه بعد ذلك، فلم يحدث أن جاءت إلى بلدتهم اثنتان من زوجات السفراء المسيحيين فى وقت واحد، ولا أعتقد أن هذا سيحدث مرة أخرى. لك أن تتصورى سموك بسهولة أننا كنا نسحب وراءنا جمهوراً كبيراً من النظارة، لكن جميعهم ساروا فى صمت مطبق. فلو أن أحدهم سلك بمثل الحرية التى يتمتع بها جمهورنا إزاء أى منظر غريب، لصرعهم جنودنا الجراكسة بسيوفهم دون خوف لكونهم فوق القانون. ومع ذلك فأولئك الحراس يمتلكون الكثير من الخصال الحميدة، فهم شديدو الحماسة والإيمان بمن يخدمونه ، ويأخذون على عاتقهم القتال فى سبيله فى كل المناسبات معتبرين ذلك عملهم وواجبهم. حدث لى مثال طريف على ذلك فى قرية قريبة من فيليبوبليس حيث التقينا بحارسنا المحلى. أوصيت

على حمام لعشائى، فذهب أحد الجراكسة الذين يعملون فى حراستى فى الحال إلى القاضى (رئيس الضباط المدنيين فى البلدة) وأمره أن يرسل عدداً من أفراخ الحمام. أجابه المسكين أنه بالفعل قد أرسل فى طلبها، لكنه لم يستطع الحصول عليها نهائياً. قام حارسى الجركسى فى فورة غضبه لخدمتى بحبسه فى الحال كسجين فى حجرته، وأخبره أنه يستحق الموت على صفاقته ووقاحته بتقديم عذر لعدم تلبية طلبى، لكنه إكراماً لخاطرى واحتراماً لى لن يعاقبه إلا بأمرى، و جاء لى بمنتهى الوقار ليسألنى ماذا يفعل به، مضيفاً إلى ذلك على سبيل المجاملة أنه إن كان يسعدنى أن يحضر لى رأسه فسيفعل! قد يقدم لك هذا بعض التصور عن مدى القوة غير المحدودة التى يتمتع بها أولئك الرجال المتحالفين مًا كرفاق سلاح ويصرون على الانتقام من أى ظلم يوقعه أحدهم بالآخر، سواء فى القاهرة أو حلب أو أى مكان من العالم، وهذا التحالف المنيع يجعلهم قوة لا تقهر، لدرجة أن أكبر رجل فى البلاط لا يمكنه على الإطلاق أن يتحدث إليهم إلا بنغمة منافقة، وفى آسيا أى رجل ثرى مرغم على الاحتفاظ لنفسه بأحد الجراكسة لحماية أملاكه.

أطلت عليك بالفعل، وأقسم لك يا سيدتى العزيزة أنه من المريح لك أن هذه الخطابات المملة لن تصلك إلا كل ستة شهور، وهذه الفكرة سمحت لى بإرسال هذا الخطاب الطويل الممل وأمل قبول عذرى يا سيدتى العزيزة.

إلى الكونتيسة مار

أدرنة فى ١ أبريل ١٧١٧

شقيقتى العزيزة، أتمنى من الله أن تداومى على إسعادى بمعرفة ما يحدث فى ذلك الجانب الآخر من الكرة الأرضية حيث تعيشين، مثلما أحرص على محاولة إسعادك بحكى كل ما أراه وأعتقد أنك تهتمين بسماعه. أنت تكتفين بإخبارى المرة تلو المرة أن المدينة مملة جدا، وربما تكون مملة لك حيث لا تطلعين كل يوم على شىء جديد، لكن بالنسبة لى لم أعرف شيئًا عن أخبارها منذ ما لا يقل عن شهرين، كل ما يبدو لك تافهًا، قد يبدو لى مثيرًا ومشوقًا. أرجوك عرفينى بالمزيد من التفاصيل، وسأحاول أن أوقظ حماسك بحكى قصص حقيقية ودقيقة عن الأشياء الغريبة التى أراها فى هذا المكان، لكن كم سيدهشك منظرى أنا شخصيًا، وأنا أعب فى ملابسى التركية، ولعلك ستوافقيننى الرأى أنها بالفعل تثير الإعجاب. سأرسل لك صورتى حين أتسلمها.

القطعة الأولى من ملابسى زوج من السراويل الداخلية، واسعة جدا ، تصل إلى حذائى، وتخفى الساقين بشكلٍ أكثر حشمة من الجيبونة التى نرتديها. ولونها أحمر دمسقى باهت، ومطرز بزهور فضية، وحذائى مصنوع من جلد الماعز الأبيض ومشغول بالذهب. فوق هذه الأشياء أرتدى قميصًا من الحرير الأبيض الشفاف مطرز الحواف. أكمامه واسعة تتدلى إلى منتصف المسافة أسفل ذراعى، ورقبته مقفولة بأزرار

من الماس، شكل ولون الصدر متميز جدا. من الأمام صدرية مناسبة لبقية الطاقم، وألوانها أبيض وذهبي دمسقي، لها أكمام طويلة ذات حواش مذهبة، و لها أزرار من الماس أو اللؤلؤ. وقفطاني من نفس نوع قماش السروال الداخلي، عبارة عن ثوب محكم على مقاس جسمي تماماً، يصل إلى قدميَّ، وله أكمام طويلة وضيقة. فوقه زنار عرضه أربعة أصابع يمكن تغطيته كله بالماس أو أية أحجار كريمة، ومن لا يطيقون هذه التكلفة، يستبدلونها بالحرير المطرز، ويضمونها بمشبك من الماس. أما الكردي فثوب فضفاض سائب يلقى على الأكتاف طبقًا لحالة الطقس، يصنع من القماش المطرَّز الغالي (الكردي الخاص بي لونه أخضر وذهبي) ومبطن بالفراء، وأكمامه تصل تحت الأكتاف لمسافة قصيرة. غطاء الرأس طربوش، في الشتاء يصنع من القطيفة الجميلة المطرزة باللؤلؤ أو الماس، وفي الصيف يصنع من قماش فضي براق. وهذا الطربوش يثبت على أحد جانبي الرأس ويتدلى قليلاً بشرابة من الذهب، وملفوف بدائرة من الماس (مثلما رأيت العديد منه) أو وشاح مطرز للعنق. على الجانب الآخر من الرأس ينساب الشعر. وهنا لدى السيدات الحرية في الابتكار، فبعضهن يضعن الزهور وأخريات يضعن مجموعة من ريش طائر مالك الحزين، وباختصار يضعن ما يحلو لهن، لكن الطراز الأكثر انتشاراً هو باقة من الجواهر تشبه الأزهار الحقيقية، مثلا، البراعم من اللؤلؤ، الورود من الياقوت بألوانه المختلفة. الياسمين من الماس، النرجس من أحجار التوباز، وغير ذلك. ترص زهور من

الأحجار الكريمة الملمعة ومطلية بعناية، من الصعب تصور شيء بمثل هذا الجمال. ينساب الشعر بطوله على الظهر، موزعًا في جدائل رفيعة مجدولة باللؤلؤ أو الأشرطة عادة بكمية وفيرة.

لم أر في حياتي شعورًا جميلة على رءوس النساء بهذه الغزارة. لقد أحصيت مائة وعشرين ضفيرة على رأس سيدة وكلها طبيعية، لكن عليّ أن أعترف أن نسبة الجمال هنا أعلى من عندنا. أمر نادر رؤية سيدة شابة ليست شديدة الجمال. لديهن أجمل بشرة طبيعية في العالم، وعيونهن غالبًا سوداء وواسعة. أؤكد لك أن بلاط إنجلترا (رغم أنني أعتقد أن نساءه هن الأجمل في كل العالم المسيحي) لا يمكنه أن يضم مثل هذا العدد من الحسناوات اللاتي يعشن هنا تحت حمايتنا. هن يحففن حواجبهن، والتركيات واليونانيات لديهن عادة رسم العيون (من الداخل) بقلم أسود، وذلك يضيف من بعيد أو تحت ضوء الشموع جمالاً شديدًا لسوادها. أتصور أن الكثيرات من سيداتنا سيبتهجن لو أتيح لهن معرفة هذا السر، إلا أنه يظهر بوضوح في ضوء النهار. والنساء يصبغن أظافرهن بلون وردي. أعترف لم أستطع الاعتياد على هذه الطريقة لأنها لا تعجبني.

بالنسبة لأخلاقهن أو حسن سلوكهن أستطيع القول كما يقول المهرج آرليكا إنها مثل أخلاقنا، والسيدات التركيات لا يرتكبن ذنوبًا إلا لكونهن غير مسيحيات. وبعدما عرفت أساليب حياتهن إلى حد ما، لا أطيق الحرية المسرفة ولا الغباء الشديد الذي اصطبغت به كتابات كل

من كتبوا عنهن. من السهل أن ترى أن لديهن حرية أكثر منّا. فلا توجد امرأة، مهما كانت طبقتها الاجتماعية، تخرج إلى الشوارع دون رداءين من الموسلين أحدهما يغطى وجهها كله فلا تظهر منه إلا عيناها، والآخر يخفى كل الغطاء الذى تضعه على رأسها ويتدلى إلى ظهرها، وتخفى جسدها كله بما يسمونه الفراجية التى لا تخرج أية امرأة من أية طبقة بدونها، ولها أكمام ضيقة تصل إلى نهاية أصابعها، وتلتف حول جسدها فى شكل لا يبعد كثيرا عن رداء الفروسية. والفراجية التى يرتدينها فى الشتاء مصنوعة من الجوخ أما فى الصيف فتصنع من أقمشة بسيطة أو من الحرير. لك أن تتصورى إلى أى مدى يختفين تمامًا وراء هذه الملابس فلا يمكنك أن تميزى السيدة من جاريتها. ومن المستحيل على أى زوج مهما كان شديد الغيرة أن يتعرف على زوجته عندما يلقاها، ولا يجرؤ أى رجل على لمس أو متابعة امرأة فى الشارع.

إلا أننى لا أجد سببًا واضحًا لمخاوف أولئك النسوة من غضب أزواجهن. فالثريات يضعن أيديهن على كل أموالهن ويأخذنها عند الطلاق، بالإضافة إلى ما يدفعه الزوج لهن عن طيب خاطر.

عمومًا، أنا أعتبر النساء التركيات هن الوحيدات اللاتى يستمتعن بحريتهن من شعب هذه الإمبراطورية، فحتى رجال الديوان الخاص بمجلس السلطان يولبهن احترامًا وتبجيلاً كبيرًا، والخليفة شخصيًا عندما يتم حكم الإعدام على أحد الباشاوات لا يجرد حريمه من الامتيازات التى يتمتعن بها إطلاقًا (ولا بيوتهن) التى تبقى بعيدة عن أى نقاش، وتؤول كلها للأرملة. وهن ملكات بالنسبة لجواريهن اللاتى

لا يسمح للزوج بالنظر إليهن حتى لا يثير ريبة الزوجة إلا واحدة أو اثنتان من العجائز تختارهما زوجته. ورغم أن قوانينهم تبيح للزوج الزواج بأربع زوجات، لم أر مثالاً واحداً لرجل من الطبقة الراقية استخدم هذا الحق، ولا هناك امرأة من الطبقة الراقية تقبل ذلك. وإذا حدث وكان الزوج متقلبًا (وتلك أشياء تحدث) يبقى على عشيقته فى منزل مستقل ويزورها سرًا كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً، مثلما يحدث عندنا تمامًا. من بين كل رجال الطبقة الأرستقراطية هنا، الدفتردار (وزير المالية) لديه عدد من الإماء تخصه هو شخصيًا، يقمن فى الجزء الخاص به من المنزل (لأن الجارية إذا ذهبت لخدمة السيدة مرة واحدة صارت تحت تصرفها تمامًا) ويقولون عنه إنه شخص فاسق خليع أو ما نسميه عندنا (منحل أخلاقيًا)، وزوجته لا تلقاه بالمرة رغم استمرارها فى العيش في بيته.

هكذا ترين يا شقيقتى العزيزة أن طبائع البشر لا تختلف كثيرا كما يريد كتّابنا من الرحالة أن يقنعونا. ربما ازدادت رسائلى تشويقًا وإمتاعًا لو أضفت إليها قصصًا عن العادات والتقاليد المدهشة من اختراعى الشخصى، لكن يبدو لى ليس هناك ما هو أروع من الحقيقة وأعتقد أنك لا تتقبلين ما يزيد على الحقيقة. أختتم خطابى بتكرار تأكيد الحقيقة الكبرى أننى على قيد الحياة حتى اليوم.

شقيقتك المخلصة

* * *

إلى السيد بوب
أدرنة فى ١ أبريل ١٧١٧

لعلك تتوقع على الأقل شيئًا بالغ الجدة والطرافة فى هذا الخطاب، بعد أن قمت برحلة لم يقم بها مسيحى منذ ما يقرب من قرن من الزمان. أما الحدث الذى وقع لى والأكثر جدارة بالذكر، فهو أننى أوشكت على السقوط فى نهر هبروس (اسمه ماريسا ويصب فى بحر إيجة)، لو كان لى اهتمام بالمجد الذى يلحق باسم المرء بعد وفاته، لكان مدعاة لشديد أسفى أن فاتتنى تلك النهاية الرومانسية من السباحة فى نفس النهر الذى قال فيه فرجيل أبياتًا شعرية على لسان أورفيس وموسيقاه منذ عصور طويلة.

مَن يستطيع سبر أغوار تلك الكلمات والعثور فيها على موضوع يصف العديد من التحولات السياسية، ويمكنه أن يعيد صياغتها للعالم فى قالب شعرى بطولى؟

هل تتساوى أقدارنا كما تتساوى أرواحنا؟

وهذه الأبيات الرائعة التى لم أسمع مثلها من قبل تشعرنى بقنوط لأنها أبيات غير عادية ولا تكتب إلا فى مناسبة غير عادية مثل الموت. فى الوقت الحاضر الذى أكتب لك فيه أقيم فى منزل على ضفاف نهر هبروس. تتدفق مياهه تحت نوافذ حجرتى. حديقتى مليئة بأشجار

السرو السامقة، على أغصانها أعداد كبيرة من أزواج الحمام الحقيقية، التى تتناجى من الصباح للمساء. لا أعرف كيف أصف كيف تقتحم رأسى فى تلك الساعة الفاظ وقوافى مثل أشجار وأغصان ونذور وبذور! ألا يمكنك أن تعترف، حتى لمجرد تشجيعى، إن الأمر أكثر من مجرد النضج العادى الذى يمكن أن نقاوم به الانسياق مع أفكار الشعر الشريرة، فى مكان تمثل الحقيقة فيه كل أفكار الشعر الرعوى ولو مرة؟ الصيف تقدم بالفعل فى هذا الجزء من العالم، وعلى بعد عدة أميال حول أدرنة تحولت الأرض كلها إلى حدائق، واصطفت أشجار الفاكهة على ضفاف الأنهار، يتنزه كبار القوم من الأتراك تحتها كل مساء، ليس سيرًا على الأقدام، فهم لا يستمتعون بالمشى، لكنهم يأتون جماعات إلى إحدى البقع الخضراء الظليلة، فيبسطون سجادة يجلسون عليها يشربون قهوتهم ، ويستمتعون بغناء جارية حسنة الصوت تغنى أو تعزف على آلة موسيقية. كل عشرين خطوة تجد واحدة من هذه المجموعات الصغيرة، جالسين يستمعون إلى خرير مياه النهر، وهذا الذوق منتشر بين الجميع فالحدائق تمتلئ بالمواطنين. غالبًا أراهم بصحبة أطفالهم يجلسون على الضفاف ويعزفون على الآت موسيقية بسيطة تطابق وصف الفيستولا (الشبابة) وهو مزمار قديم يصنع من قصبتين مختلفتى المقاس، يصدر صوتًا بسيطًا لكنه عذب رخيم.

ربما يكون السيد إديسون (مؤلف رحلات جليفر) قد قام هنا بتجاربه التى يحكى عنها فى أسفاره، حيث لا توجد آلة موسيقية من تلك

المنحوتة فى تماثيل الإغريق أو الرومان لا تجدها فى أيدى أهل هذا البلد. يسلى صغار السن أنفسهم عادة بصنع أكاليل يزينون بها حملانهم التى يحبونها، ومعظم ما رأيته منها جميل الألوان وملىء بالزهور، ملقاة تحت أقدامهم فى أثناء غنائهم أو عزفهم. وذلك ليس حصيلة قراءتهم للروايات العاطفية، إنما هى عادة قديمة هنا وطبيعية بالنسبة لهم، مثل المبارزة بالنبابيت ومثل كرة القدم بالنسبة للقرويين الإنجليز، ولطف الطقس ودفؤه يمنعان الرياضات العنيفة، ذلك الطقس الذى لم يسمع به أحد بمثل هذا الجمال كما هو فى بلادهم، ومن الطبيعى أن يثير فيهم روح الكسل وبغض العمل التى ينغمس فيها كثيرون منهم. أولئك البستانية هم طبقة القرويين السعيدة الوحيدة فى بلاد الأتراك. وهم يموِّنون المدينة بأكملها بالفواكه والأعشاب العطرية ويعيشون حياة سهلة. ومعظمهم من اليونانيين يقيمون فى منازل صغيرة وسط حدائقهم، حيث تحظى زوجاتهم وبناتهم بقدر من الحرية لا يتاح فى المدينة، أقصد خروجهن سافرات دون حجاب. وهؤلاء النسوة شديدات النظافة والحسن ويقضين أوقاتهن يعملن على الأنوال تحت ظلال الشجر.

لم أعد أرى فى ثيوقراط كاتبًا رومانسيًا، فهو لم يقدم أكثر من صورة بسيطة لأسلوب حياة الفلاحين فى بلاده، ولعلهم قبل أن يحيق بهم الظلم بالوقوع تحت الاحتلال كان لديهم الرغبة فى الترقى إلى الوظائف التى يعمل بها الجزء الأفضل منهم حاليًا. ليس لدى شك أنه لو

ولد فى بريطانيا، لامتلأت أناشيده الرعوية بأوصاف درس الحنطة وخضٍّ اللبن وهى أشياء غير معروفة هنا، فالحنطة كلها تسحقها الثيران تحت أقدامها، أما الزبدة فلم يسمعوا عنها. (أقول هذا وأنا أشعر بالأسى).

أعدت هنا قراءة ترجمتك لهوميروس، وقد استمتعت بها متعة لا حد لها، واتضح لى معنى كثير من المقطوعات الصغيرة، لم أكن أدرك قبل ذلك ما بها من جمال، كثير من الملابس والأزياء من الطراز السائد وقتها، ومازالت تستخدم اليوم، ولا أتعجب لوجود الكثير منها على الرغم من انتمائها لعصر موغل فى القدم، ولا توجد فى بلد آخر، فالأتراك لا يشغلهم كثيراً تقديم الأنماط الخاصة بهم كما يفعل غيرهم من الشعوب، ممن يتصورون أنفسهم أرقى من غيرهم. لن أطيل عليك بالحديث عن كل ما يتعلق بالأعراف المعاصرة. لكنى أؤكد لك أن الأميرات وسيدات علية القوم يمضين وقتهن فى النسيج على الأنوال وتطريز الطرح والأثواب تحيط بهن الوصيفات والخادمات وعادة فى أعداد كبيرة، بنفس الطريقة التى توصف بها أندروماك وهيلانة. ينطبق وصف الزنار الذى كان يرتديه مينلاوس تماما على الزنار الذى يرتديه كبار القوم من الرجال هذه الأيام، وهو يثبت بمشابك من الذهب ومشغول كله بتطريز فخم. والطرحة البيضاء التى كانت هيلين تلقيها على وجهها لا تزال شائعة، وكلما رأيت عدداً (وأنا أراهم كثيرا) من الباشاوات كبار السن بلحاهم الوقورة يجلسون يتشمسون، أتذكر أن الملك الطيب بريام

ومستشاريه كانوا يفعلون ذلك. طريقتهم فى الرقص هى نفس الطريقة التى كانت تغنى وترقص بها ديانا على ضفاف نهر الإيروتاس. حتى الآن مازالت السيدة الكبيرة تقود الرقص ثم تتبعها جماعات الشابات يقتفين خطواتها، وإذا غنت يتولين الرد عليها بنغمات الطرب والبهجة، ثمة شىء عذب فيهن لدرجة مدهشة، فالخطوات متنوعة حسب رغبتها، لأنها تقود الرقص، لكن دائما فى إيقاع مضبوط، والرقص هنا أجمل من رقصنا كله، على الأقل من وجهة نظرى. أحيانا أقف معهن فى الصف، لكنّى لست ماهرة بالدرجة التى تسمح لى بقيادتهن، قد أستطيع ذلك فى الرقصات اليونانية لكن الرقص التركى أمر مختلف تماما.

كان ينبغى أن أخبرك فى المقام الأول أن العادات الشرقية تلقى كثيرا من الضوء على عديد من مقطوعات الكتاب المقدس التى تبدو غريبة علينا، وتبدو محملة بما يمكن أن نطلق عليه لغة الكتاب المقدس. إن اللغة التى يتحدث بها العامة أو السوقة من الأتراك شديدة الاختلاف عن تلك التى يتحدثها البلاط أو الشخصيات ذات المقام الرفيع الذين يخلطون كثيرا من الكلمات العربية أو الفارسية فى حديثهم لدرجة بحيث يمكننا أن نسميها لغة أخرى تماما. ومن السخيف استخدام التعبيرات السوقية فى الحديث مع ذوى المقام الرفيع أو السيدات، وذلك شبيه بالحديث بلغة يوركشاير العامة أو سومرستشاير فى حفل استقبال رسمية. بالإضافة لهذا الاختلاف هناك ما يسمونه اللغة الرفيعة، وهو أسلوب خاص بكتابة الشعر، وهو نفس أسلوب الكتاب المقدس تمامًا.

لعلك تسعد للحصول على مثال أصيل لهذا، ويسرني أن يكون في استطاعتي إشباع فضولك في هذا الصدد، وأن أرسل لك نسخة صحيحة أصلية من أشعار إبراهيم باشا، و الجميع يحبونها، كتبها خصيصًا للأميرة الشابة التي كتب كتابه عليها، ولا يزال غير مسموح له بزيارتها بمفرده، رغم أنها توشك أن تقيم في بيته. إنه رجل ذكي ومثقف، وسواء كانت أشعاره جيدة أو لا ، لك أن تثق أنه في تلك المناسبة ليس بحاجة لمساعدة أفضل شعراء الإمبراطورية، لأن أشعاره من الممكن اعتبارها عينّة من أفضل الشعر الذي كُتب، ولا أشك أنك ستوافقني الرأي بأنها من أروع القصائد التي تشبه نشيد الإنشاد الذي كتبه كذلك النبي سليمان خصيصًا لعروس ملكية.

أشعار تركية للسلطانة، كبرى بنات السلطان أحمد الثالث.

(١)

يطوف البلبل بين الكروم

يتوق بحثًا عن الورود

هبط إعجابًا بجمال الكروم

فعذوبتك وسحرك سلبا روحي

عيناك سوداوان وفاتنتان

لكن بهما شروداً وأنفة كعيون المها

(٢)

أتوق للوصل فيؤجل يومًا بعد يومٍ

فلن يسمح لى السلطان القاسى أحمد

أن أرى وجنتيك توردتا وفاقتا الورود

لا أجرؤ أن أقتطف منك قبلة

فعذوبتك وسحرك سلبا روحى

عيناك سوداوان فاتنتان

لكن بهما جموح وأنفة كعيون المها

(٣)

تنهد إبراهيم باشا حزنًا فى هذه القصيدة

أصاب قلبه سهم من عينيك

آه ! متى يحين وصالك ؟

هل سأنتظر طويلاً ؟

فعذوبتك وسحرك سلبا روحى

آه يا سلطانة ! يا لعيون الغَزلان عيونك - أنت ملاك بين الملائكة !

أروم وصالك ووصالك لا يتحقق

ألا يسعدك أن تملكى قلبى وتسكنيه؟

(٤)

نحيبى يشق عنان السماء !

وعيونى لا تنام !

التفتى إلىّ يا سلطانة - دعينى أمتع ناظرىّ بمحياك الجميل .

الوداع يا حبيبتى ! سأدفن فى قبرى

لو ناديتنى سأعود

قلبى مشتعل كالكبريت ، يوشك أن يحترق لهفة

يا تاج العمر ا ونور العين !

سلطانتى ! أميرتى !

أغمر وجهى فى التراب

أغرق فى دموعى الحارقة ـ أهذى

ألا رحمة لديك؟ ألا تلقين لى بنظرة؟

لقد عانيت كثيرا لأترجم هذه القصيدة ترجمة حرفية، ولو كنت ملمًا بأسلوبى فى الترجمة لوفرت علىّ مشقة التأكيد أنها تخلو من أية لمسة شعرية. فى رأيى الشخصى أن الأصل به كم وافر من الجمال (السماح بأخطاء لا مفر منها فى ترجمة نثرية إلى لغة أخرى شديدة الاختلاف). التشبيه بعيون الغزلان أسعدنى للغاية (رغم أنه غير مطروق فى الأدب الإنجليزى) ولأنى أعتقد أنها صورة بلاغية عن توقد المشاعر والأنفة فى عيون حبيبته، علّق مسيو بوالو بعدل شديد أننا لا يجب أن نحكم إطلاقًا على إبداع مؤلف قديم بتقييم معاصر، فربما كان شاعرًا رائعًا جدا فى عصره فى حين يبدو لنا اليوم ضعيفًا أو غير مألوف. أنت مطلع على أدب هوميروس وتستطيع ملاحظة نفس الشىء، ولابد أن هذه هى نفس رؤيتك وأحاسيسك تجاه الشعر الشرقى.

تكرار نهاية المقطعين الأولين يقصد به شكل من أشكال الكورس، وهو مناسب لأسلوب الكتابة القديم حيث تغيرت موسيقى القصيدة بوضوح فى المقطع الثالث، وتغير قرار القصيدة، وأعتقد أنه بأسلوب فنى بارع زادت عاطفيته فى الخاتمة، لأنه من الطبيعى أن يدفئ الناس أنفسهم بما يكتبون، خاصة الموضوعات المتعلقة بالقلوب والمشاعر

فتلمس المشاعر بشكل أكثر قربًا من عاداتنا العصرية فى ختام الأغنية العاطفية بنهاية لا تتصل بموضوعها الأصلى. المقطع الأول وصف لموسم من مواسم السنة، حيث يمتلئ الريف بطيور العندليب وشذا الورود، وهى صورة شعرية مقترنة بالأدب العربى، مألوفة هنا مثل ألفتنا بأى جزء من كتابات أوفيد، ويحدث نفس الشىء مع القصيدة الإنجليزية التى لابد أن تبدأ بقول: والآن تغنى فيلو ميلا، أوماذا إذا تحولت تماما إلى أسلوب الشعر الإنجليزى فلنجرب ونرى الناتج.

المقطع الأول

الآن تردد فيلوميل لحنها الحنون

وقد قضت الليل بطوله تعانى ألمها الممتع:

طفت فى البساتين أروم سماع الأغنية الجامحة

ورأيت هناك وجهاأكثر جمالاً من الربيع

عيونك الواسعة كعيون المها تحيطها ألف هالة

كالمها متألقة مفعمة بالحياة وكالمها أيضا شاردة

المقطع الثانى

عبثًا وعدونى بنوال نسيم الجنة

آه ! يا سلطانتى القاسية ! تؤجلين مسراتى !

بينما السحر يخز ويطعن فى قلبى العاشق

لا أجرؤ حتى على قبلة تسكّن شوقى

لتلك العيون ! الواسعة كعيون المها

كالمها متألقة مفعمة بالحياة وكالمها أيضا شاردة

المقطع الثالث

يشكو عاشقك البائس فى هذه السطور

من جمالك العزيز يقتله ألما

متى يحين وصالك ؟

هل علىّ أن أنتظر طويلا ؟

آه ! يا سلطانتى الجميلة ! البكر صاحبة الجمال السماوى !

هل لك أن تدركى مدى ألمى دون رحمة ؟

المقطع الرابع

السماء ترق لنحيبى وعذابى

أعاف الضوء، والنوم هجر عيونى،

التفتى إلىّ يا أميرة وإلا مات عاشقك

غارقًا فى الأرق، أتوق لآخر وداع

نادينى يا إلهتى لتعود لى الحياة

مليكتى! ملاكى! شعلة قلبى المفتون!

إنى أهذى ـ قلبى يحترق بنار سماوية!

ارحمى ألمى الذى نفحته فىّ بسحرك."

أطلقت لنفسى الحرية فى القصيدة الثانية أن أتبع ما رأيت أنه المعنى الحقيقى الذى قصده الشاعر، رغم أنه ليس ترجمة حرفية. فبقوله إنه هبط إعجابًا بجمال الكروم وأن سحرها سلبه روحه، فهمت أنه يصور خيالاً شعريًا لرؤيته إياها للمرة الأولى فى حديقة، حيث كان يستمتع بجمال الربيع. لكن لم تعجبنى مقارنه عينيها بعيون المها، على الرغم من أنه ربما يكون تجديداً يمنحها ملمحًا ساخرًا فى لغتنا. ولم أستطع أن أحدد إذا كنت قد نجحت فى الترجمة أم لا، كما لا أعتقد أن اللغة الإنجليزية مناسبة للتعبير عن مثل تلك المشاعر الجامحة، التى من النادر أن يشعر بها أحد منّا، أو عما إذا كنا نرغب فى استخدام تلك التعبيرات المنتشرة بقوة فى اللغة التركية.

ها أنت ترى أننى وصلت إلى مدى بعيد فى تعلمى للغات الشرقية، وإذا أردت الحقيقة، أنا أدرس باجتهاد شديد. أتمنى أن تمنحنى دراستى فرصة لإشباع فضولك الذى يمثل لى أقصى ميزة آملها من هذه الدراسات.

* * *

إلى السيدة سارا شيسويل

أدرنة فى ١ أبريل ١٧١٧

فى رأيى يا عزيزتى سارا، كان ينبغى علىَّ أن أغضب منك لعدم ردك على رسالتى المطولة من أغسطس حتى ديسمبر، بدلاً من أن أعتذر عن عدم كتابتى حتى الآن. أنا لدىَّ عذر وجيه لصمتى، لأننى قمت برحلة برية وعرة،إلا أنها لم تنته نهاية سيئة كما قد تتصورين. أنا هنا على مايرام ولست فى العزلة التى تتخيلينها. هناك عدد كبير من اليونانين والفرنسيين والإنجليز والإيطاليين يعيشون فى حمايتنا، يفتحون لى قصورهم من الصباح حتى المساء، وأؤكد لك أن كثيرات منهن سيدات رائعات، فلا إمكانية لأى مسيحيين أن يعيشوا بسهولة تحت هذا الحكم إلا فى حماية سفير إنجليزى، وكلما ازداد ثراؤهم ازداد الخطر المحدق بهم.

تلك الحكايات المروعة التى سمعتها، عن انتشار الطاعون، ليست صحيحة تماما. أعترف لك أننى سمعت الكثير من اللغط حول هذا الموضوع الذى أثار فىّ أفكاراً مرعبة، ومع ذلك أعتقد أن الأمر أكثر قليلا من انتشار الحمى. والدليل على ذلك مرورنا على بلدتين أوثلاث بها إصابات شديدة بالعدوى. فى المنزل المجاور للبيت الذى كنت أقيم فيه (فى إحدى تلك الأماكن) مات شخصان بالعدوى. من حسن حظى لم أعرف شيئًا عن الأمر، وقد أقنعونى أن طباخنا الثانى الذى سقط مريضًا هنا كان مصابًا بمجرد برد شديد. على أى حال ، أرسلنا له طبيبنا يعتنى به، وبالأمس عاد الاثنان بصحة جيدة، وكشفوا لى ذلك السر، وأخبرونى أنه كان بالفعل مصاباً بالطاعون.

وهناك كثيرون نجوا منه وحتى الهواء ليس ملوثًا بالعدوى. وأقنعونى أنهم سيقضون على المرض تمامًا مثلما حدث فى إيطاليا وفرنسا. ورغم أن الأمر لم يخل من الأضرار، فإنهم ليسوا شديدى الجزع بشأنه، وراضون بمعاناة هذه العلة، بدلاً من عدد الأمراض التى نعانيها نحن، وهم غير معتادين عليها إطلاقًا.

بخصوص الأمراض، سأحكى لك شيئًا أثق تمامًا أنه سيجعلك تتمنين لو كنت هنا. تعرفين أن مرض الجدرى، لا فرار منه، وهو منتشر جدا بيننا،أما هنا فهو لا يؤذى بالمرة بسبب اختراعهم لنوع من التطعيم ضده، يتعاطونه كدواء له. هناك مجموعة من النسوة العجائز، أخذن على

عاتقهن إعداد تلك الوصفة الطبية كل خريف فى شهر سبتمبر، عندما تنخفض درجة الحرارة. يرسل الناس أحدهم للآخر لمعرفة إذا كان أى فرد فى العائلة قد أصابه الجدرى، ويقيمون الحفلات لهذا الغرض وعندما يلتقون (عادة خمسة عشر أو ستة عشر فرداً) تأتى المرأة العجوز ومعها صدفة جوزة مليئة بذلك الدواء المضاد للجدرى، وتسألهم أى وريد يفضلون فتحه، وفى الحال تشق فتحة فى المكان الذى يحددونه لها بإبرة طويلة (لا تسبب أى ألم أكثر من مجرد خدش عادى)، وتضع فى الوريد مصلاً، بقدر ما يمكن لرأس إبرتها أن تحمل، وبعدما تضمد الجرح الصغير بقطعة صغيرة مجوفة من الصدفة، وبهذه الطريقة تفتح أربعة أو خمسة أوردة. لدى اليونانيين خرافة شائعة، بفتح فتحة فى منتصف الجبهة والذراعين والصدر كعلامة الصليب، لكن تأثير هذه الفتحات ضئيل، وهذه الجروح تترك ندوباً صغيرة، ومن لا يؤمن بهذه الخرافة لا يميل لهذه العملية، بل يختارون لها السيقان، أو ذلك الجزء المختفى من الذراع. يلعب الأطفال أو المرضى الصغار معا بقية اليوم، ويكونون بصحة جيدة حتى اليوم الثامن. ثم تمسك بهم الحمى فيلازمون الفراش لمدة يومين، نادراً ما يصل الأمر إلى ثلاثة أيام. ومن النادر لمن تجاوزوا العشرين أو الثلاثين من أعمارهم أن تجد أية آثار فى وجوههم، فبهذه الطريقة لا يترك المرض أى أثر على الإطلاق، وفى ثمانية أيام يعودون كما كانوا قبل الإصابة به تماما. تبقى الجروح متقرحة فى أثناء الإصابة بالعدوى، وأظن ذلك يخفف من ألمها. يخضع

الآلاف كل عام لهذ العملية، ويقول السفير الفرنسى بلطف إنهم يأخذون التطعيم كنوع من اللهو، مثلما يتعامل الناس مع مستحضر تجميلى فى البلاد الأخرى. لا يوجد دليل واحد على أن شخصاً مات بسبب الإصابة به، ولك أن تصدقين، فأنا مقتنعة تماما بأمان هذه التجربة، لأننى أنوى تجربة هذا المصل مع ابنى العزيز.

لدىّ من الإحساس الوطنى ما يدفعنى أن آخذ على عاتقى نشر هذا الاختراع المفيد فى إنجلترا، ولن تعيينى الحيل عن الكتابة لبعض أطبائنا بشكل خاص عنه، إذا عرفت أن أيًا منهم لديه من الفضيلة وحب الخير ما يجعله يقضى على ذلك المرض اللعين لصالح الانسانية. لكن هذا الوباء يعود عليهم بالنفع ولن يدعهم يتحملون مشقة وضع نهاية له. ربما إذا بقيت على قيد الحياة إلى حين عودتى قد أشن عليهم الحرب. بهذه المناسبة أعجب ببطولة قلب صديقتك.

* * *

إلى السيدة ثيستيلثوايت

أدرنة فى ١ أبريل ١٧١٧

بمقدورى الآن أن أخبر سيدتى العزيزة أننى وصلت بسلام الله إلى نهاية رحلتى الطويلة. لن أضجرك بالحكى عن المتاعب التى عانيتها. كان

لابد أن تشاهدى بعضًا مما رأيته هنا، لأن خطابًا من تركيا لا يحمل فى طياته شيئًا غير عادى يعادل خيبة الأمل الكبيرة التى سيستقبلنى لها بها زوارى فى لندن إذا عدت إلى هناك دون أن يكون فى جعبتى غرائب أقصها عليهم.

ماذا أقول لك؟ مؤكد لم يحدث أن رأيت جمالاً فى حياتك، وربما سيكون وصفها جديدًا عليك، أؤكد لك أننى أنا أيضا استغربتها جدا للوهلة الأولى، ورغم أننى رأيت مئات اللوحات لتلك الحيوانات، فإننى لم أر لوحة واحدة تشبهها إلى الحد الذى يعطى فكرة حقيقية عنها. سأرسم لك صورة واضحة، وربما تكون غير دقيقة، حيث لم يقم بها أحد من قبل، اعتبرتها نوعًا من الغزلان، سيقانها وجذوعها ورقابها تشبهها تماما، ولونها كذلك شديد الشبه بها. صحيح أنها أكبر حجمًا بكثير لأنها أعلى من الحصان، وأكثر رشاقة، فبعد هزيمة بيتروارادين فاقت سرعتها سرعة الخيول، وجلبت أول أخبار عن خسارة المعركة فى بلجراد، ولم تكن على الإطلاق أليفة بكل معنى الكلمة واضطر سيَّاسها لربط أحدها بالآخر بحبال متينة، كل خمسين جمل بحبل واحد، يقودها الحمار الذى يركبه قائدها. رأيت ثلاثمائة منها فى قافلة واحدة. كانت تحمل أكثر من أى حصان، لكن تحميلها يمثل فنًا خاصًا بسبب السنام الموجود فى ظهرها. بدت لى مخلوقات دميمة، رءوسها ليست جميلة وغير متناسبة مع أجسادها. حملت تلك الحيوانات كل الأمتعة واستخدمت للحرث كالجاموس، والجاموس كذلك حيوانات لا تعرفينها،

فهى أكبر وأكثر فظاعة من الثيران، قصيرة ذات قرون سوداء قريبة من رءوسها تنمو للوراء، يقولون إنها تصبح جميلة جدا عندما يصقلونها. وشعر جلودها قصير جدا وعيونها بيضاء وضيقة كالشياطين. يصبغ الفلاحون ذيولها وشعور جبهتها باللون الأحمر للزينة.

أما الخيول هنا فلا توكل إليها أى أعمال مجهدة، ولا هى مناسبة لذلك على الأطلاق. فهى جميلة ومفعمة بالحيوية لكنها بشكل عام قليلة العدد، وليست قوية كتلك التى تربى فى بلاد أكثر برودة، وهى شديدة الوداعة بكل حيويتها ورقتها وثباتها. لدىّ حصان أبيض صغير أحبه، لدرجة أننى لا أجرؤ على ركوبه، فهو يتبختر تحتى بحيوية شديدة، ربما تعتقدين أننى شجاعة لدرجة الجرأة على امتطائه، لكنى أؤكد لك أننى لم أمتط حصانًا فى حياتى واستطعت السيطرة عليه. ويعد سرجى الأول من نوعه فى هذا الجزء من العالم، وهم يحملقون فيه بكثير من الدهشة، مثلما حدث مع سفينة كولومبوس فى أمريكا. هنا يربُّون بعض الطيور كنوع من التوقير الدينى، ولذا يعاملونها باستثناء شديد، والسلاحف لبراءتها، واللقلق يعتبرونه فألاً حسنًا للحج إلى مكة. وللحقيقة هذه الكائنات أسعد مخلوقات تحت لواء الحكم التركى، وهى تعى تميزها فتسير فى الشارع دون خوف، وعمومًا تشيد أماكنها فى الأدوار السفلى من المنازل. وهى مخلوقات سعيدة بتميُّزها. أما العامة من الأتراك فمقتنعون تماما أنهم لن يهاجموا هذا العام بالحرائق ولا الطاعون. حظيت بسعادة وجود حظيرة من حظائرها المقدسة تحت نافذة حجرتى مباشرة.

ولأحدثك الآن عن حجرتى، أظن أن وصف المنازل هنا سيكون جديدا عليك مثل وصف أعشاش الطيور وحظائر البهائم. أظن أنك قرأت فى معظم حكاياتنا عن تركيا أن بناياتها بائسة أكثر من أى مكان فى العالم. أستطيع أن أتكلم عن ذلك الموضوع بمعرفة تامة لأننى ولجت الكثير منها، وأؤكد لك أنها ليست كذلك بالمرة . نحن نقطن الآن فى قصر يخص الخليفة . أعتقد حقًا أن طرز المعمار هنا متناغمة جدا ومناسبة للمكان. صحيح أنهم لا يهتمون كثيرا بالناحية الجمالية خارج بيوتهم، وأغلبها مبنى بالخشب، وفى ظنى أنه سبب كثير من الإزعاج، لكن هذا ليس نتيجة سوء ذوق الشعب بل هو انصياع لأوامر الحكومة. فكل البيوت لدى موت صاحبها تؤول لملكية الخليفة، ولذلك لا يهتم أحد بالإنفاق الكثير. حيث إنهم غير واثقين أن ما سينفقونه سيؤول إلى عائلاتهم. وتكمن كل التصميمات فى مجرد بناء منزل واسع ملائم لغرضه، يمكن أن يفى بهذا الغرض فى حياتهم، ولا يهمهم إذا سقط فى العام التالى.

كل البيوت، الكبير والصغير منها، مقسمة إلى جزءين منفصلين، يربط بينهما ممر ضيق. البيت الأول أمامه فناء كبير وتحيط به الشرفات المفتوحة التى تبدو لى رائعة. هذه الشرفة تؤدى إلى كل الحجرات، وهى عادة حجرات كبيرة، وبها صفان من النوافذ ، الصف الأول مغطى بالزجاج الملون وفى المنازل القليلة المكونة من طابقين، كل منهما به نفس الشرفات،الدرج عريض ولا يتجاوز ثلاثين درجة. أحد المنزلين يخص

السيد والمنزل المجاور له يخص الحريم ويسمى الحرملك ويمثل الشقة التى تقيم فيها السيدات، وبه كذلك شرفة حوله تؤدى إلى الحديقة ، تفتح عليها كل النوافذ ونفس عدد الحجرات فى المنزل الثانى ، لكنها أكثر بهجة وروعة فى ألوان طلائها وأثاثها. الصف الثانى من النوافذ منخفض جدا وله قضبان كقضبان نوافذ الأديرة، الحجرات كلها مفروشة بالسجاجيد الفارسية، وهى مرفوعة من أحد طرفيها بارتفاع قدمين (سجادة حجرتى مرفوعة من طرفيها الاثنين). توجد أريكة مغطاة بسجادة من نوع أكثر قيمة وثراء، ويحيط بها من الجانبين نوع من الأرائك المنخفضة بارتفاع قدم مغطى بحرير ثمين حسب ذوق صاحبها. سجادتى من القماش القرمزى بشراشيب ذهبية، حولها مقابل للحائط صفان من الوسائد، الصف الأول وسائد كبيرة جدا والتالى أصغر منها، ويتخذ الأتراك من هذه الوسائد طريقة لاستعراض الأبهة، فهى غالبًا مقصَّبة أو مطرَّزة بسلوك الذهب فوق الحرير الأبيض، يفوق كل ما رأيت بهجة وروعة. مقاعدهم مريحة جدا، لن أحتمل بعد الآن الجلوس على الكراسى المتعبة. أسقف الحجرات منخفضة ولا أظن أن ذلك عيبًا، والسقف دائما من الخشب، وغالبا مطعم أو مطلى ومذهب. وهم لا يستخدمون الستائر، فتبدو الحجرات كلها مبطنة بخشب الأرز المثبت بمسامير من الفضة أو مزركش بالزهور، والحجرات مفتوحة على أماكن كثيرة بأبواب أوكورديون، وتؤدى إلى الخزائن، أعتقد أنها ملائمة أكثر من حجراتنا. وبين النوافذ عقود صغيرة لتوضع بها أوانى مليئة بالعطور

أو سلال الزهور. لكن أكثر ما أبهجنى هو طراز النوافير الرخام فى الجزء الأسفل من الحجرة التى تنتشر حولها عدة مزاريب مياه وتمنح فى الوقت نفسه بعض البرودة اللطيفة، وعنوبة صوت طرطشة المياه، وهى تسقط من حوض وتصب فى آخر. بعض هذه النوافير باهظ التكلفة. كل منزل به حمّام تركى ويتكون عادة من حجرتين أوثلاث حجرات صغيرة ، سطحها وأرضها مبلطة بالرخام وبها أحواض وصنابير مياه وجميعها مناسبة سواء لحمّام بارد أو ساخن.

ربما تندهشين لهذا الوصف، شديد الاختلاف عن كل ما سمعته واستمتعت به من كتب الرحالة عامة، فأغلبهم مولعون بالكلام عما لايعرفونه. ربما لا يحظى بهذه المعرفة إلا الشخصيات المتميزة أو فى مناسبات خاصة جدا، أن يسمح لشخص مسيحى بالدخول لبيت واحد من علية القوم، فحجرات الحرملك لا يدخلها غريب، حيث لا يظهرن عليه ولا يراهن، وشقق النساء مبنية كلها فى الخلف، بعيدة عن العيان، وتطل فقط على الحدائق المسيجة بحوائط مرتفعة، وهى حدائق تخلو من الممرات الصغيرة المعهودة لدينا، مزروعة بأشجار سامقة تنشر ظلالها ...يرة على المكان، وتمثل بالنسبة لى مشهداً مبهجًا. فى منتصف الحديقة يقوم الكشك وهو عبارة عن قاعة كبيرة تزين عادة بنافورة لطيفة فى منتصفها. وترتفع عن الأرض بمقدار تسع أو عشر درجات، وتسيج بالمشربيات المذهبة، يحيط بها الكروم والياسمين وأشجار الجدى ذات الزهور طيبة الرائحة المزدوجة كأنها حائط أخضر. الأشجار العالية

مزروعة حول هذه البقعة وهو منظر يثير البهجة ويمتع الناظرين، وتقضى السيدات معظم أوقاتهن فى ذلك المكان، يستمتعن بالعزف على الآلات الموسيقية أو أشغال الإبرة. وفى الحدائق العامة أكشاك عامة، يرتادها لشرب القهوة والشربات أولئك الذين لا يملكون مثل هذه الإمكانيات فى بيوتهم ، أو لم يهتموا ببناء بيوت متينة، ولايهتم الأتراك ببناء بيوت متينة وأكبر دليل على ذلك ما نراه من مساجدهم ؛ فكلها مبنية من الحجر السلس، وفنادقهم أو خاناتهم شديدة الجمال وكثير منها به ساحة فسيحة حولها دكاكين تحت العقود الحجرية حيث يقيم الصناع الفقراء فيها مجانًا. ودائما يلحق بها مسجد، أما صحن الخان فغالبًا يكون صالة فخمة تسع ثلاثمائة أو أربعمائة شخص، الفناء فسيح والأروقة المعمدة المسقوفة من حوله تشبه طابع مبانى مدارسنا. أعترف أن هذا المعمار يعد قطعة رائعة من المنشآت أكثر من معمار الأديرة.

أعتقد أننى أخبرتك هذه المرة بالكثير . إذا لم تروقك الموضوعات التى اخترتها، اخبرينى عن الموضوعات التى تحبين أن أكتب لك عنها، فلا يوجد من هو أكثر منى رغبة فى تسليتك.

* * *

إلى السيدة هيويت
أدرنة فى ١ أبريل ١٧١٧

لعلك يا عزيزتى السيدة هيويت تظنين أننى أغبى كائن خلقه الله، لإهمالى مراسلتك، لكن حتى هذه اللحظة كان الأمر خارجًا عن إرادتى تماما. تلك الشهور الثمانية الماضية كنت ألهث جيئة وذهابًا، دون أن ألتقط أنفاسى. مأخوذة تماما، إما فى سفر سريع أو حفل استقبال رسمى لا يمكن التنصل منه. رغم أن هذه الأمور كما تعلمين لا تبهجنى. فأنا أحب الترحال ولا يمكننى الآن أن أشكو بأننى لم أحظ بالكثير منه، لأننى طفت الآن عبر كل الأراضى التركية فى أوروبا، ناهيك عن أسفارى عبر المجر وبوهيميا وجولتى فى ألمانيا، لكن كانت كلها تفاهات قياسًا بالرحلة الأخيرة ,لا يمكننى على أى حال (حمدا لله) أن أشكو من معاناة التعب لا بالنسب لصحتى ولا صحة عائلتى ، فابنى فى خير صحة وعافية. مؤكد أن هذا البلد من أفضل بلاد العالم، فحتى الآن كل ما رأيته جديد علىّ كأننى أشهد كل يوم مشهدًا أوبراليًا جديدًا. لن أضجرك بالحكى عن الأماكن وأنماط الحياة اليومية، وربما لا تثير فضولك، لكن سيكون لطيفًا أن أسمع منك بقدر ما تستطيعين عما يجرى فى ذلك الجزء الآخر من الأرض حيث تعيشين. قبل أن تتسلمى هذا الخطاب، لابد أن تخبرينى بكل ما رأيتيه فى الشهور الستة الماضية فى أى موضوع، وأنا متأكدة أنه سيكون جديدا علىّ . فلديك مجال كبير

تكتبين لى عنه إذا اتسع صدرك لى ، لأن ذلك سيكون عطاءً كبيراً منك وخاليا من التفاخر (أنا أقدر لك تعبك فى إرسال خطابات لى هنا) وسيكون شديد النفع لروحك الكريمة التى أرجو من الله أن يلهمك التأمل وعمل ما يمليه عليك ضميرك النقى.

* * *

إلى الكونتيسة مار
أدرنة فى ٨ أبريل ١٧١٧

كتبت لك يا شقيقتى الغالية وإلى كل من يراسلوننى من أصدقائى الإنجليز، من آخر سفينة صعدت إليها، و يعلم الله متى تحين لى فرصة أخرى لأكتب لكم، لكنى لا أملك منع نفسى من الكتابة على الرغم من أننى قد لا أتمكن من إرسال خطابى لك قبل شهرين. واعترافًا بالحقيقة رأسى ملىء بالمسرات التى استمتعت بها بالأمس، ذلك أنه من الضرورى والحتمى لراحتى أن أحظى ببعض الترويح. ودون إطالة فى المقدمات سأحكى مباشرة.

كنت قد تلقيت دعوة على الغداء من حرم الوزير الأعظم، وبكل ممنونية وسعادة أعددت نفسى لمتعة لم يحظ بها مسيحى من قبل. وكان علىّ أن أشبع فضولها قليلاً (لا أشك لحظة أنه سبب دعوتها لى)

فلا أذهب بثوب اعتادت رؤيته، وبناء عليه ارتديت الزى الرسمى السائد فى بلاط فيينا، وهو يبدو أكثر بهاء وتألقًا من أزيائنا الإنجليزية. على أى حال اخترت الذهاب كسيدة عادية (غير معروفة) لتجنب أى إزعاج خاص بطقوس الحفل، فذهبت فى عربة تركية ولم يكن بصحبتى سوى المرأة التى تمثل حاشيتى والسيدة اليونانية التى تقوم بالترجمة. التقيت عند باب القصر بخصيها الأسود الذى ساعدنى على النزول من العربة باحترام شديد ، وقادنى خلال عدة غرف إلى حيث تقف جواريها فى أبهى هندام مصفوفات على الجانبين. وجدت فى نهاية القاعة السيدة جالسة على كنبتها ترتدى صدرة من فراء السمور. تقدمت للقائى وقدمت لى اثنتى عشرة صديقة من صديقاتها بلطف شديد. إنها امرأة طيبة المعشر جدا، تقترب من الخمسين من عمرها. دهشتُ لملاحظة القليل من التألق فى بيتها، فالأثاث متواضع للغاية، وفيما عدا مظهرها الشخصى وعدد جواريها لاشىء يبدو باهظًا. خمنت ما أفكر فيه وقالت لى إنها لم تعد فى السن التى تجعلها تنفق وقتها أو مالها على المظاهر، ذلك أن كل نفقاتها تروح على البر والإحسان، وكل ما يشغلها الصلاة والدعاء لله. لم يكن فى حديثها أى تكلف أو ادعاء، فهى وزوجها يكرسان نفسيهما تماما للتقوى وأعمال الخير. فهو لا يرفع عينيه إلى امرأة أخرى إطلاقًا، والأكثر غرابة أنه لا يلمس أية رشوة، على نقيض من سبقوه فى منصبه. وهو كثير الشكوك فى هذه النقطة، لدرجة أنه لم يتقبل هدية السيد ورتلى حتى تأكد تماما أنها منحة معتادة خاصة بعمله يقدمها كل سفير.

لقد أمتعتنى بكل سبل اللطف والكياسة حتى وصل العشاء الذى قُدم طبقًا بعد آخر بعدد كبير، كلها أطعمة لذيذة حسب ذوقهم، ولا أعتقد أن ذلك سيئ وربما سمعت عن تلك الطريقة فى تقديم الطعام. وأنا أستطيع الحكم على طعامهم، لأننى عشت ثلاثة أسابيع فى منزل أحد الأفندية فى بلجراد، وكان يقدم لنا أشهى الأطعمة بيد طهاته، مما أسعدنى فى الأسبوع الأول إلى أقصى درجة، لكنى أعترف أننى بدأت بعد ذلك أشعر بالقلق ورغبت أن يقوم طاهينا بتقديم طبق أو اثنين حسب ذوقنا نحن. لكنى أعزى ذلك للتعود. وأظن أنه من الطبيعى أن الشخص الهندى الذى لم يتذوق أطعمتنا يفضل عليها أطعمتهم. إن الصلصات التى يعدونها رائعة النكهة واللحم يشوى زيادة. وهم يضيفون لطعامهم قدرًا كبيرًا من التوابل الحريفة. الحساء يُقدم فى آخر طبق، ولديهم عدد كبير من أطباق الخضروات المطهية مثلنا. أسفت جدا لضعف قدرتى أن آكل بالكثرة التى كانت السيدة تتمناها، وكانت جادة جدا فى تقديم كل الأطعمة لى. كان آخر شيء هو القهوة ثم الروائح العطرية القيّمة ، ركعت جاريتان على ركبتيهما تطيبان شعرى وملابسى ومنديلى. بعد هذا الطقس أمرت جواريها بالرقص والغناء ، فغنين ورقصن وفى أيديهن آلات الجيتار، واعتذرت لى عن ضآلة مواهبهن، قائلة إنها لم ترع مواهبهن فى ذلك الفن رعاية جيدة.

وأنا بالمقابل شكرتها، وعندما استأذنتها فى الانصراف، أُعيدت لى نفس الطقوس التى تمت لدى دخولى، وكان المفترض أن أعود مباشرة

إلى منزلى، لكن السيدة اليونانية التى كانت بصحبتى رجتنى بإلحاح أن أزور زوجة نائب الوزير الأعظم ، قائلة إنه الضابط الثانى فى الإمبراطورية، ومن الواجب حقًا أن نلتقى به باعتباره الرجل الأول، لأن الوزير الأعظم واجهة فقط أما نائبه فهو صاحب السلطة الحقيقية. لم أجد كثيرا من التسلية فى منزل الحريم الذى غادرته وليس بى رغبة لدخول أى منزل آخر. لكنها أقنعتنى بإلحاحها وسعدت جدا لأننى وافقتها الرأى.

كل الأشياء هنا كانت على خلاف جو منزل الوزير الأعظم، والمنزل فى حد ذاته عبّر عن الاختلاف بين زهد المسنين وجمال الشباب؛ كان منزلاً لطيفًا وفخمًا. قابلنى على الباب اثنان من الخصى السود قادانى عبر بهو طويل بين صفين من الفتيات الحسناوات شعورهن مجدولة بشكل جميل، تصل تقريبًا إلى أقدامهن، كلهن يرتدين الحرير الدمسقى الخفيف المشغول بالفضة. أسفت أن أصول اللياقة لم تسمح لى بالتطلع إليهن عن قرب أكثر، لكن هذه الفكرة تلاشت لدى دخولى إلى قاعة كبيرة تحيط بها شبابيك ضلفها مذهبة ومعظمها مفتوح على الحديقة، وتلقى الأشجار المزروعة بالقرب منها بظلالها الوارفة مانعة إزعاج أشعة الشمس. ويفوح الشذا الذكى من أشجار الياسمين والجدى الملتفة على جذوعها، تزيدها بهاء النافورة الرخامية البيضاء التى تنشر المياه العذبة فى الجزء الأسفل من الحجرة، وتصب فى ثلاثة أو أربعة أحواض بخريرها المبهج. والسقف مزدان بأشكال الزهور تنتهى بسلال ذهبية

تبدو كأنها ستسقط على الأرض. على الأريكة المرتفعة بمقدار ثلاثة أقدام ومغطاة بالسجاجيد الفارسية الجميلة تجلس زوجة نائب الوزير الأعظم، متكئة على وسائد من الحرير الأبيض المطرز ، تجلس عند قدميها فتاتان صغيرتان كبراهما في حوالى الثانية عشرة من عمرها ، وديعة كالملائكة، ثيابهما تدل على الثراء وتكاد المجوهرات تغطيهما. لكنهما لا يقارنَّ إطلاقا بفاطيمة (هذا اسمها) ذات الجمال الباهر الذى لا يضاهى بكل من رأيتهن وكل من يطلق عليهن جميلات فى إنجلترا أو ألمانيا ، وينبغى أن أقر بأننى لم أر فى حياتى جمالاً بهذا البهاء الشديد ولا حتى أتذكر أننى رأيت وجهًا يقارب جمال وجهها. نهضت لاستقبالى وحيتنى حسب طريقتهم فوضعت يدها على قلبها بكل رقة وعظمة لا يجدها المرء فى أى بلاط، وأمرت بتقديم الوسائد لى واعتنت بمجلسى فى ركن متميز تعبيراً عن الحفاوة والتكريم . كانت السيدة اليونانية قد أعطتنى فكرة مسبقة عن جمالها لكن ذلك لم يمنع دهشتى بها المفعمة بالإعجاب ، لدرجة أن لسانى انعقد لحظات لم أستطع أن أنبس فى حضورها وأنا أحملق فيها مدهوشة. يا لتناغم قسماتها! يا لسحرها الأخاذ! يا لنسب قوامها المثالية! يا لنضارة بشرتها التى لم ترسمها يد فنان! يا لسحر ابتسامتها الذى لا يوصف! ويا لعيونها! واسعة وسوداء بها كل سمات الرقة النادرة! كل لفتة منها تبوح بسر جديد.

بعدما هدأت دهشتى الأولى حاولت التطلع إلى وجهها بلطف لاكتشاف أى عيب فيه فراحت جهودى هباء، واقتنعت بخطأ الفكرة

الشائعة أن الوجه إذا اكتمل جماله بشكل قياسى فقد بعضا من حسنه، إذ إن الطبيعة حبتها المزيد من التألق، ذلك التألق الذى كتب عنه شعراء اليونان ، بملامح شديدة الدقة تكوّن وجهًا مثاليًا وبالإضافة لذلك سلوك فى منتهى الرقة والعذوبة ، وخفة فى الحركة ، ومظهر ملكى يخلو من العنف والكلفة ، وأنا مقتنعة بأنها لو نقلت فجأة إلى أرقى عرش فى أوروبا لن يظن أحد سوى أنها ولدت وتربت لتصبح ملكة، رغم أنها تلقت تعليمها فى بلد ننعته بالهمجية، والخلاصة فى كلمة واحدة ، أن أجمل جميلات الإنجليز بكل حسنهن لا يوازين جمالها وحسنها.

كانت ترتدى قفطانًا مقصبًا بالذهب ومنقوشًا بورود من الفضة مناسبًا لجسمها تماما ويظهر جمال صدرها. وهو من نفس لون قميصها الذى ترتديه تحته، إلا أنه يختلف عنه درجة قليلة. سروالها من اللون الوردى الفاتح ممزوجًا بالأخضر والفضى، ترتدى خفًا أبيض مشغولاً بتطريز دقيق ، وذراعها تغطيها الأساور المطعمة بالماس وزنارها العريض مرصع بالماس، على رأسها منديل تركى أنيق من اللون الوردى والفضى، وشعرها أسود طبيعى يتدلى على جسمها طويلاً فى ضفائر وعلى أحد جانبى رأسها بعض دبابيس الشعر المرصعة بالجواهر. أخشى أن تتهمينى بالمغالاة فى هذا الوصف. أظننى قرأت فى كتاب ما أن النساء دائما يتحدثن فى نشوة عندما يتطرق الحديث إلى موضوعات تتعلق بالجمال، ولا أدرى ما المانع، على العكس أعتقد أنه من الفضيلة بمكان أن يعجب المرء بالجمال دون أن يصحب ذلك نوع من

الرغبة أو الحسد. إن أكثر الكتّاب رزانة تحدثوا عن بعض اللوحات والتماثيل بدفء شديد وحفاوة بالغة. من المؤكد أن براعة الخلق السماوى تفوق كل محاكاتنا البشرية الضعيفة، وينبغى أن نثنى عليها أكثر من ذلك، وأنا لا أخجل من الاعتراف أننى سعدت سعادة بالغة برؤيتى لجمال فاطيمة، أكثر مما يمكن لأروع تمثال من الحجر أن يطبع فى أحاسيسى.

أخبرتنى السيدة أن الفتاتين الجالستين عند قدميها ابنتاها، على الرغم من أنها تبدو أصغر بكثير من أن تكون أمًا لهما. كانت جارياتها الجميلات يصطففن أسفل الأريكة ويصل عددهن إلى عشرين، مما ذكرنى بلوحات الحوريات القديمة. لا أعتقد أن الطبيعة برمتها يمكن أن تصنع مشهداً بهذا الجمال. أشارت إليهن ليبدأن العزف والرقص. فى التو بدأت أربع منهن بالعزف على بعض الآلات الموسيقية ما بين جيتار وعود مصحوباً بغنائهن، بينما تناوبت الأخريات على الرقص، كان رقصاً مختلفًا تماماً عن كل ما رأيته من قبل. فاق كل ذلك فتنة وتناغما لإثارة أفكار بعينها. كانت النغمات شديدة العذوبة! والحركات بالغة الرشاقة! مصحوبة بلحظات من الصمت والعيون الناعسة! كنّ يرتمين على ظهورهن كأنهن يوشكن على الوقوع ثم يعتدلن فى حركات مفعمة بالفن، وأنا على يقين عميق أن أكثر البشر تحفظـاً وبروداً على وجه الأرض لا يمكنهم رؤية هذا الرقص دون أن تجول بخواطرهم أفكار مسكوت عنها. أظنك قرأت أن الأتراك ليس عندهم موسيقى إلا ما ينفر الآذان، لكن هذا

لا ينطبق إلا على الذين يعزفون فى الشوارع ، وهذا مثله مثل الأجنبى عندما يسمع الموسيقى الإنجليزية من مثانة حيوان مملوءة بالهواء ومزودة ببعض الأوتار أو العظام المجوفة وساطور الجزار. بوسعى أن أؤكد لك أن موسيقاهم شجية جدا ، صحيح أننى افضل الموسيقى الإيطالية لكن ربما أكون متحيزة. تعرفت على سيدة يونانية تغنى أفضل من مسز روبنسون(*)(فنانة شهيرة وقتها)، وهى ماهرة جدا فى الاثنين وحتمى تفضل الموسيقى التركية. من المؤكد أن لديهم أصواتًا رائعة، أولئك المغنيات كان صوتهن جميلاً. عندما انتهى الرقص دخلت إلى الحجرة أربع جوار جميلات يحملن فى أيديهن المباخر وبخرن المكان ببخور طيب الرائحة من خشب الألوة (الصبر) وغيره. ثم قدمن لنا القهوة فى فناجين من الخزف الفاخر وأكواب صغيرة من الفضة والذهب وهن راكعات على ركبهن. حرصت فاطيمة طول الوقت على الترحيب بى بأسلوب شديد التهذيب والرقة، وهى تنادينى جوزيل سلطانة أو السلطانة الجميلة، وأعربت عن رغبتها فى صداقتى بأرق أسلوب فى العالم، وهى تعتذر لأنها لا تستطيع أن ترحب بى بلغتى.

عندما استأذنت فى الانصراف أحضرت خادمتان مجموعة من المناديل المطرزة فى سلال فضية جميلة ، ورجتنى السيدة أن آخذ أفضل ما فيها لأجل خاطرها، وقدمت البقية للمرأة والمترجمة المصاحبتين لى.

(*) مسز روبنسون فنانة شهيرة وقتها .

عندما غادرت المكان وانتهت المقابلة بنفس الطقوس السابقة لدرجة أننى لم أتمالك إحساسى بأننى كنت أقضى بعض الوقت فى الفردوس، لقد افتتنت جدا بما رأيته. لا أعرف كيف يبدو لك سرد هذه القصة لكنى أتمنى أن تسعدك كما أسعدتنى ولو قليلا، إننى أتمنى يا شقيقتى العزيزة أن تشاركينى كل ما استمتعت به.

* * *

إلى الأب كونتى

أدرنة فى ١٧ مايو ١٧١٧

أزمع مغادرة أدرنة، ولن أفعل ذلك إلا بعد أن أحكى لك عن كل الغرائب التى توجد فيها والتى بذلت كثيرا من الجهد لأراها.

لن أضجرك برسالة مطولة حكيمة عما إذا كانت هذه المدينة هى نفسها مدينة أورست أو أورستيس قديما أم لا، فأنت تعرف ذلك أكثر منى. يسمونها الآن على اسم الإمبراطور أدريان، وهى أول مدينة أوروبية تحتلها الإمبراطورية التركية، وكثير من السلاطين يفضلون الإقامة فيها. أغرم بها محمد الرابع ومصطفى شقيق الإمبراطور الحالى لدرجة أنهما أقاما فيها وتركا القسطنطينية، ومن مدعاة السخرية أن ذلك أثار سخط الجراكسة جدا، ومثل دافعًا وحافزًا للتمرد الذى أدى

إلى خلعهما. ومع ذلك يبدو أن السلطان الحالى يحب إقامة بلاطه هنا. ولا أرى سببًا مقنعًا لهذا التحيز. صحيح أن الموقع لطيف والبلدة كلها جميلة جدا لكن الجو سيئ للغاية وسراى السلطان نفسه لا يخلو من آثاره السيئة. يقال إن البلدة محيطها ثمانية أميال، وأظنهم يحسبون الحدائق ضمن هذه المساحة. هناك بعض المنازل المعقولة، أقصد أنها كبيرة من حيث الحجم، وحيث إن أسلوب البناء فى قصورهم لا يقدم معمارًا فنيًا؛ فهى الآن مليئة جدا بالسكان ، لكن معظمهم يقيمون بنايات ملحقة بالقصر، أو معسكرات ، وقيل لى إنهم يزيلونها بعد ذلك لأنها ليست مدينة سكنية . نهر ماريسا (كان يطلق عليه قديما نهر هبروس) يجف كل صيف مما يتسبب فى إلحاق كثير من الضرر بهم. فى الوقت الحالى يعتبر نهرا يبهج النفس ويسر العين. وقد شيد فوقه جسران فخمان.

حدا بى الفضول أن أذهب لرؤية السوق فى ردائى التركى الذى يخفى شخصيتى الحقيقية، ومع ذلك شعرت بالقلق عند رؤيتى للزحام الذى يحدثه الجراكسة رغم أنهم لا يجرءون على التحرش بامرأة، وقد أوسعوا لى الطريق باحترام شديد كما لو كنت أظهر بشخصيتى الحقيقية. ذلك السوق طوله نصف ميل والسقف مقبب ونظيف جدا، به ثلاثمائة وخمسة وستون متجرًا مفروشة بكل أنواع البضائع الثمينة المعروضة للبيع بنفس الطريقة التى تعرض بها المبيعات فى السوق الجديد فى لندن، لكن أرصفة الشوارع أكثر نظافة، وكل المتاجر نظيفة

كأنها طليت حديثًا. العاطلون من كل الضروب يسيرون هنا للتسلية أويمتعون أنفسهم بشرب القهوة أو المرطبات، وينادون عليها كما يحدث لدينا مع البرتقال والحلوى فى المسارح.

لاحظت أن معظم التجار الأثرياء من اليهود، وهؤلاء القوم لهم قوة غير معقولة فى هذا البلد، لديهم من الامتيازات ما يفوق كل المواطنين الأتراك أنفسهم، وهم يشكلون كومونولث قويًا هنا، فيحاكمون بقوانينهم الخاصة ويمسكون بتجارة الإمبراطورية كلها بين أيديهم إلى حد كبير نتيجة لاتحادهم الشديد، وهم يعتمدون على مزاج الأتراك الميالين للكسل والتراخي ويفتقدون لملكات العمل. كل باشا لديه اليهودى الخاص به يعمل لديه بمثابة مدير لأعماله، فيطلع على كل أسراره ويدير كل أعماله. لا يتمم صفقة ولا يتسلم رشوة ولا تقام له عروض ترويجية لسلعه، إلا ما يمر من تحت أيديهم فقط. ومنهم الأطباء والقهرمانات[٥] والمترجمون لكل علية القوم.

يمكنك الآن أن تدرك أية ميزات يستمتع بها أولئك القوم الذين لا يفشلون أبدا فى الاستفادة من أصغر ميزة تتاح لهم. لقد اكتشفوا سر أن يجعلوا وجودهم ضرورة، وهم بالطبع فى حماية البلاط، مهما اختلفت الوزارات القائمة، حتى التجار الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين الذين

---

(١) القهرمان وكيل مسئول عن إدارة القصر والإقطاعية .

يدركون مكرهم يضطرون للتفاوض معهم، فلا يمكن لأية تجارة أن تفلح دون تدخلهم، وأحقر شخص فيهم يمثل أهمية كبيرة لا يمكن معها إغضابه أو الامتناع عن مجاملته، لأن بقية أفراد الطائفة يولونه التقدير والاحترام الذى يولونه لأكبر شخص فيهم. كثيرون منهم على ثراء فاحش، لكنهم يحرصون على عدم إظهاره علانية بشكل واضح، رغم أنهم يعيشون فى بيوتهم فى أعلى درجات الرغد والرفاهية. هذا الموضوع المستفيض سحبنى من وصف السوق التجارى الذى أسسه على باشا، ويحمل اسمه . بالقرب من تكارتشى شارع طوله ميل، ملىء بالحوانيت الحافلة بكل أنواع البضائع الجميلة لكنها غالية الأثمان، وكلها مستوردة ومغطاة من أعلى بألواح خشبية تحميها من الأمطار، حيث يجد التجار راحتهم فى كل فصول السنة. يقع البيسيتان بالقرب منه؛ وهو سوق آخر مبنى على أعمدة يباع فيه كل لوازم الخيول، وكل الأشياء تبرق بالذهب والأشغال اليدوية الفخمة والمجوهرات فى عرض شديد البهاء.

ذهبت من هذا المكان فى عربتى التركية إلى المعسكر، الذى سينتقل بعد بضعة أيام إلى الحدود. كان السلطان قد وصل بالفعل إلى خيامه وبصحبته كل كبار رجاله، ومظهرهم حقيقة غاية فى العظمة. وخيام كبار رجال الدولة أقرب إلى القصور منها إلى الخيام، منصوبة على قطعة أرض كبيرة، ومقسمة إلى عدد كبير من الوحدات، كلها خضراء اللون، وخيام الباشا لها ثلاثة أطراف بها رايات ترمز لقوتها، موضوعة بطريقة رائعة أمام خيامهم، مزينة فى أعلاها بكرات

مذهبة تتفق كثيراً أو قليلاً مع اختلاف رتبهم. تذهب السيدات فى تركيا لمشاهدة هذا المعسكر بنفس الرغبة التى تحدو سيداتنا للذهاب إلى حدائق هايدبارك، لكن من السهل على المرء أن يلحظ أن الجنود لا يبدءون حملاتهم بأى إحساس ينم عن المرح أوالبهجة، فالحرب تمثل ضيمًا عظيمًا على الشعب وتمثل صعوبة أكثر على التجار ، وقد تقرر أن يقوم الخليفة بقيادة جيشه، وعلى كل سرية منهم إزاء هذه المناسبة أن تقدم عرضًا يعبر عن قدراتها.

تكبدتُ عناء اليقظة فى السادسة صباحا لمشاهدة هذا الحفل الذى لم يبدأ مع ذلك إلا فى الثامنة. كان الخليفة يطل من نافذة سراى الحريم ليشاهد الموكب الذى طاف بكل الشوارع الرئيسية، وكان يتقدم الموكب أفندى يمتطى جملاً مزدانًا بأبهة وفخامة شديدة يتلو القرآن بصوت مرتفع، كان يقرأ من كتاب فاخر التجليد موضوع على وسادة، ومحاطًا بمجموعة من الصبية يرتدون ملابس بيضاء ويغنون يتبعهم رجل يلف نفسه بالأغصان الخضراء، يمثل مزارعًا نظيفًا ينثر البذور، ووراءه العديد من الحصادين يحملون أكاليل الزهور وسنابل القمح، مثل لوحة سيريس (إلهة الحصاد عند الإغريق)، وفى أيديهم المناجل كأنهم يحصدون بها، ثم مرت آلة صغيرة يجرها الثيران عليها طاحونة هواء وصبية يعملون فى طحن الحبوب ، تتبعهم آلة أخرى تجرها الجواميس تحمل موقدًا وولدين أحدهما يعجن الخبز والآخر يسحبه من الفرن. كان الأولاد يلقون بقطع الكعك الصغيرة على الجانبين للجمهور، وتتبعهم

فرقة كاملة من الخبازين يسيرون على أقدامهم اثنين اثنين، مرتدين أفضل ملابسهم وهم يحملون على رءوسهم كل أنواع الكعك والخبز والفطائر والعجائن ، ووراءهم مهرجان لطّخا وجهيهما وملابسهما بالدقيق، ويبهجان الجماهير بإيماءاتهما وإشاراتهما الغريبة، وبنفس الطريقة يتبعهم كل أصحاب الحرف فى الإمبراطورية، وأصحاب المهن الأرقى مثل الجواهرجية والبزازين وغيرهما يمرون ممتطين خيولهم، ووراءهم المواكب التى تمثل الحرف التى يعملون بها فى أبهة شديدة، ومن بينهم تجار الفراء ودباغوها الذين قدموا أفضل العروض، فقدموا آلة شديدة الفخامة مطوقة بفراء القاقوم والثعالب وغيرها ، وقد تم حشوها جيدا حتى بدت كأن الحيوانات مازالت حية، ووراءهم الموسيقى والراقصون. أعتقد أن المشاركين فى هذا الموكب لايقلون عن عشرين ألف فرد ، وكلهم على أتم استعداد لإطاعة جلالته، إذا طلب منهم أى شىء. وطوقت مؤخرة الجيش بالمتطوعين الذين قدموا يطلبون شرف الموت فى سبيله. بدا لى هذا الجزء من العرض شديد التوحش، فابتعدت عن النافذة منذ بدءوا فى الظهور. كانوا جميعًا عراة الصدور، بعضهم وخزوا أذرعهم بالسهام وتركوها مكانها ، وآخرون وخزوا بها رءوسهم والدم يقطر على وجوههم، وغيرهم شرّطوا أذرعهم بنصال حادة تاركين الدم ينهمر منها ويلطخ الواقفين بجوارهم، ذلك كله تعبيرًا عن حماسهم للمجد. قيل لى إن البعض يتخذون من هذه المظاهر تعبيرًا عن الحب، وعندما يقتربون من نافذة المنزل الذى تقطن فيه المحبوبة يوخزون

أجسادهم بسهم جديد من أجلها، حتى تمنحهم علامة ما على الاستحسان والتشجيع لهذا التودد (كل النساء فى البلدة يختبئن خلف النوافذ لمشاهدة هذا المنظر). يستغرق هذا الاستعراض فى مجمله مايربو على ثمانى ساعات، لأسفى الشديد أصابنى تعب بالغ رغم أننى كنت فى منزل أرملة الأميرال التى قدمت لى القهوة لتنعشنى والحلوى والمرطبات وغيرها، بكل ما أوتيت من لطف وكياسة.

بعد ذلك بيومين ذهبتُ لرؤية جامع السلطان سليم الأول، وهو بناء جدير بإشباع فضول الرحالة بدرجة عالية جدا. ارتديت ملابسى التركية ودخلت دون تردد، مع ذلك خمنت أنهم أدركوا حقيقة شخصيتى، وقد بدا ذلك واضحًا فى معاملة البواب الذى عرض علىَّ خدماته دون طلب منى، وأرانى كل جزء من المسجد، والمسجد قائم فى وسط المدينة وهو موقع له فوائده، ففى أعلى جزء منه يُتاح للمرء رؤية ممتازة. الجزء الأمامى له أربع بوابات والداخلى ثلاث. وكل منها محاط بأروقة ذات أعمدة رخامية على الطراز الأيوبى، جميل الصقل وألوانه مفعمة بالحيوية، وكل الأرضية من الرخام الأبيض، وسطح الأروقة مقسم إلى عدة قباب تنتهى بكرات مذهبة من أعلى. فى وسط كل فناء نوافير جميلة من الرخام الأبيض، وأمام بوابة المسجد الكبيرة رواق معمد بأعمدة من الرخام الأخضر. المسجد له خمس بوابات، أما صحن المسجد نفسه فعلى شكل قبة هائلة.

على الرغم من أننى لا أفهم كثيراً فى فن العمارة، ولا يمكننى الكلام عن النسب، لكنى متأكدة من اتساقها، فالمسجد شديد الارتفاع، وفى اعتقادى أنه أروع بناء رأيته فى حياتى، به صفان من الأعمدة ذات الدرابزين الرخامى، والأرضية الرخام مغطاة بسجاجيد عجمى، تمثل إضافة كبيرة لجمال المكان، ذلك أنها ليست مقسمة إلى صفوف من المقاعد، ولامثقلة بأشكال وبنوك مثل الموجودة فى كنائسنا، ولا الأعمدة (معظمها من الرخام الأحمر والأبيض) مشوهة المنظر بالزخارف والأيقونات الصغيرة المبهرجة التى تكسو الكنائس الكاثوليكية بجو كأجواء محال لعب الأطفال. والحوائط مطعمة بتلك الألوان المفعمة بالحيوية بأسلوب الحفر التنزيلى للزهور الصغيرة. لم أستطع تخمين أى نوع من الأحجار صنعت منها. لكن عندما اقتربت منها أكثر ودققت النظر أدركت أنها مكسوة بالخزف اليابانى، الذى يعكس تأثيراً بالغ الجمال. فى المنتصف تتدلى ثريا ضخمة من الفضة مطلية بالذهب بالإضافة إلى ذلك أعتقد أن به ألفين غيرها بأحجام أصغر. يبدو لى المشهد شديد البهاء حين تضاء كل هذه الثريات، لكن هذا يحدث فى المساء ولا يمكن لامرأة أن تفكر فى دخوله فى ذلك الوقت. أسفل الثريا الضخمة منبر كبير من الخشب المنحوت مطلى بالذهب ويجواره تماماً نافورة للوضوء ، وهو كما تعرف جزء أساسى من شعائر عبادتهم. فى أحد الأركان رواق صغير مسيج بمشربية مذهبة خاص بالسلطان.

فى نهايته من جهة الشمال محراب فى الحائط شبيه بالمذبح يرتفع عن الأرض مقدار قدمين ومغطى بالقماش المطرز بالذهب وأمامه شمعدانان من الفضة المذهبة بارتفاع قامة رجل، ويهما شموع بيضاء فى حجم رجل. خارج المسجد أربعة أبراج عالية جدا قمتها مذهبة، يتلو منها المؤذن الأذان لدعوة الناس للصلاة. حدا بى الفضول أن أصعد إحداها ورسمت لذلك خطة رائعة، وكانت بمثابة مفاجأة للجميع أنى استطعت رؤيتها . لم يكن هناك سوى باب واحد يؤدى إلى ثلاثة سلالم مختلفة تؤدى بدورها إلى طوابق البرج الثلاثة ، حيث يصعد بتلك الطريقة ثلاثة شيوخ دون أن يلتقى أحدهم بالآخر، وهى حيلة تثير الإعجاب.

يقع وراء المسجد سوق ملىء بالحوانيت يقطن فيه الحرفيون الفقراء مجانًا. رأيت كثيراً من الدراويش فى أثناء تأديتهم فروض الصلاة وهم يرتدون قطعًا صغيرة من الصوف ، عراة الأذرع وعلى رءوسهم غطاء أشبه بقبعة عالية دون حواف. ذهبتُ لمشاهدة مساجد أخرى بنيت على نفس طراز مسجد السلطان سليم الأول، لكنها لا تقارن به فى العظمة أوالفخامة التى وصفتها، والتى لا تضاهيها أية كنيسة فى ألمانيا أو إنجلترا، لن أتحدث عن بلدان أخرى لم أرها . لم يكن قصر السلطان شديد العظمة، لكن حدائقه فسيحة جدا وتصلها مياه الرى بوفرة ومليئة بالأشجار التى لم أعرف منها شيئًا .

لن أحكى لك عن اللقاءات الرسمية وحفلات الاستقبال التى حظى بها السيد ورتلى، فهذه الأمور كما هى عادة وقد وصفتها كثيرا من قبل ولن أضجرك بتكرارها. جلس الأمير الصغير وهو فى حوالى الحادية عشرة من عمره بقرب والده عندما بدأ الكلام ، وهو ولد وسيم لكن من المحتمل أنه لن يصبح سلطانًا بسرعة، فهناك ولدان غيره للسلطان مصطفى ، أكبر منه سنًا، أكبرهما فى حوالى العشرين من عمره، والجماهير تعلق آمالها عليه. فالعهد الحالى تسيطر عليه الدموية والجشع. أميل للاعتقاد أن صبرهم قد نفد فى انتظار نهايته.

سأكتب لك مرة أخرى من القسطنطينية.

* * *

إلى الأب كونتى

القسطنطينية فى ٢٩ مايو ١٧١٧

لقد حظيت بطقس رائع طوال رحلتى، والآن يبدو الصيف بجماله، استمتعت ببهجة مشاهدة مناظر جميلة، وتبدو المروج مليئة بكل أنواع الزهور والأعشاب الطيبة، حتى أن عربتى البرلينة[٦] تفوح عطرًا طيبًا

(٦) البرلينة مركبة كبيرة مقفلة ذات أربع عجلات كانوا يستخدمونها فى السفر فى ذلك الوقت .

بمرورها عليـها . وقد منحنا السلطان ثلاثين عربة مـغطاة لنقل أمتـعتنا وخمس حافلات من البلدة خاصة بالنساء المصاحبات لى. وجدنا الطريق مليئًا بفرسـان السـباهى الكبـار، ومـا يتبعـهم من خيل وسـائقين وخدم قادمين من آسيا لأجل الحـرب. وهـم دائما يسـافرون ومـعـهم خيـامـهم، لكننى فضلت النوم فى بيوت طوال الطريق.

لن أضجرك بأسماء القرى التى مررنا بها، فلم يكن بها ما يستحق الذكر،لكن فى قرية تكوارلو، حيث أقمنا فى كوناك أو حرملك صغير بنى خصيصا لإقامة السلطان عند مروره بهذه الناحية. استبد بى الفضول لرؤية كل الحجرات الخاصة بالسيدات. كانت مقامة فى وسط خميلة من الأشـجار تنعشـها النوافـير، لكن مـا أدهشنى كـثيـرا الحـوائط المغطاة تقريبا بأبيات الشعر التركى مكتوبة بقلم دقيق. جعلت المترجم الخاص بى يشرح لى مـعناها، تأثرت بكثير منها، وعلى الرغم من أننى صدقتـها، فإننى أظن أنها فقدت الكثير من رونقـها فى الترجمة. كان مـعنى أحد أبياتها حرفيًا باللغة الإنجليزية

نأتى إلى هذا العالم، نعيش فيه ونرحل عنه

لكنه لا يأتى إطلاقًا، إنه يســـــكن فى قلبى

مررنا فيما تبقى من رحلتنا عبر مروج رائعة الألوان، بجوار بحر مرمـرة، بروبونتـيس قديمـًا. مكثنا الليلة التالـية فى سـيلفريا؛ وهـى بلدة كـانت ذائعـة الصـيت فـيمـا مـضـى، والآن تعـتـبر مـيناء شـديد الأهـمـيـة

وبناياتها نظيفة للغاية وبها جسر به اثنان وثلاثون قنطرة. فى البلدة كنيسة يونانية قديمة مشهورة.أعطيت إحدى العربات الخاصة بالسيدات لسيدة يونانية ، أعربت عن رغبتها فى الاستمتاع بالسفر معى، وقررت أداء طقوس الصلاة فى تلك الكنيسة وكنت سعيدة بالذهاب معها. وجدتها مكانًا سيئ البناء، بنيت على غرار الكنائس الكاثوليكية، وبها نفس الزخارف لكنها أقل فخامة. أرونى جسداً لأحد القديسين، ألقيت أمامه علبة نقود. وأرونى كذلك صورة للعذراء مريم يقولون رسمها القديس لوقا، ليس بها كثير من سمات أعماله الفنية، ومع ذلك فحتى صورة المادونا الأكثر روعة فى إيطاليا لا تباريها فى شهرة معجزاتها. لليونانيين ذوق فظيع فيما يتعلق باللوحات الفنية، فهى كثيرة البهرجة وغالبا خلفيتها ذهبية. لك أن تتصور أى جو تبعثه حولها، لكن ليس بها أى تصور أو ظلال أو نسب مقبولة. لديهم أسقف هنا يقود صلاة القداس فى ردائه الأرجوانى. عندما وصلت إلى المكان الذى أقيم فيه وجدته قد أرسل لى شمعة هدية تصل إلى حجمى أنا شخصياً.

مكثنا الليلة التالية فى بلدة تدعى بوجوق (الجسر الكبير)، والليلة التى تليها قضيناها فى بلدة الجسر الصغير، فى مكان مريح جدا، كان فيما مضى تكية للدراويش، أقيم أمامه قصر كبير مطوق بالأعمدة الرخامية ونافورة جميلة فى المنتصف، يبدو المشهد من هذا المكان بحدائقه التى تحيط به من أجمل المناظر التى رأيتها فى حياتى، مما يؤكد لى أن الرهبان من كل الأديان يعرفون كيف يختارون خلواتهم .

وهذا المكان يخص الآن خوجة أو مدرس يعلّم الأولاد هنا، عندما طلبتُ منه أن يريني بيته، دهشت لرؤيته يشير إلى شجرة سرو كبيرة فى الحديقة. أعد فى أعلاها مكانًا لنومه، وأسفل منه بقليل مكانًا لنوم زوجته وطفليه، ينامون جميعا فى الشجرة كل ليلة. سررت كثيرا بذلك الابتكار وقررت معاينة عشّه عن قرب، لكن بعد صعود خمسين خطوة وجدت أمامى خمسين خطوة أخرى علىّ أن أصعدها، ثم أتسلق للهبوط من غصن لغصن، ولن يخلو الأمر من بعض المجازفة بعنقى، فأدركت أن أسلم وسيلة هى الهبوط.

وصلنا الليلة التالية القسطنطينية، لكن حتى الآن لا يمكننى أن أخبرك عنها الكثير، فكل وقتى أقضيه فى استقبال الزيارات، وهذا يمثل - على الأقل - متعة للعين، فكل الشابات هنا حسناوات، ويضفن حسنًا إلى حسنهن بذوقهن الراقى فى إختيار الملابس. يقع القصر الذى نقيم فيه فى بيرا، وهى ضاحية من ضواحى القسطنطينية مثلما تعتبر وستمنستر ضاحية من ضواحى لندن. كل السفراء يقيمون قريبا من بعضهم بعضًا. هناك جزء من منزلنا يسمح لنا برؤية الميناء والمدينة وسراى السلطان وتلال آسيا البعيدة، ربما يعد المشهد برمته من أجمل المناظر فى العالم.

يقول أحد الكتّاب الفرنسيين إن القسطنطينية أكبر من باريس بما يساوى الضعف. والسيد ورتلى لا يريد الاعتراف أنها أكبر من لندن،

رغم أنني أقر أنها تبدو لي كذلك، لكني لا أعتقد أنها آهلة بالسكان مثلها، فأراضي المقابر التي تحيط بها أكبر من المدينة نفسها. من المدهش تلك المساحة الخربة من الأراضي في تركيا. رأيت أكثر من مرة المقابر تمتد عدة أميال تتبع قرى غير ذات قيمة، كانت فيما مضى مدناً كبيرة ولم يبق منها أية علامة أخرى تدل على عظمة ماضيها. فهم يرفعون الأحجار التي تدل على أثر عتيق تحت أي ظرف من الظروف، بعضها نفيس لأنه مصنوع من رخام شديد البهاء، ويقيمون شاهداً منحوتا بنقوش في أعلاه، نُحت على هيئة عمامة لذكرى شخص ما، ولأن تلك العمائم بأشكالها المختلفة توضح صفات ذلك الشخص أو طبيعة عمله، وهي طريقة توضح المنزلة الاجتماعية لأسرة الفقيد، بالإضافة لذلك يحمل الشاهد عادة كتابة بحروف كبيرة مكتوبة بالذهب. والسيدات أيضا لهن شواهد بسيطة، دون أية زخارف عدا من توفيت دون زواج، حيث توضع لها في أعلى الشواهد وردة. أضرحة العائلات الكبيرة مسيجة ومحاطة بالأشجار، و في أضرحة السلاطين وبعض كبار رجال الدولة مصابيح دائمة الإضاءة .

عندما تحدثت عن معتقداتهم نسيت أن أذكر لك أمرين غريبين؛ أحدهما قرأت عنه وكان يبدو لي شديد الغرابة، لم أصدقه لكني اكتشفت بعد ذلك مدى صحته! عندما يطلِّق رجل زوجته بطريقة شرعية يمكنه أن يعيدها إلى عصمته مرة أخرى دون أية شروط إلا السماح لرجل آخر بقضاء ليلة معها، وهناك أمثلة عديدة على من خضعوا لهذا

الإجراء، وإلا ما كان باستطاعتهم استعادة تلك المحبوبة. الموضوع الثانى غريب بالمرة؛ أية امرأة تموت وهى غير متزوجة ينظر إليها على أنها ماتت وهى فى حالة خروج من زمرة الأبرار ، وللتأكيد على ذلك المعتقد يستخرجون له منطقًا، هو أن غاية خلق المرأة الوفرة والتعدد وأنها لا تصلح لشىء سوى العمل فى الوظيفة المعدة لها، وهى إنجاب الأطفال وتربيتهم (ليس أقل من أربعة)، وتلك هى الفضيلة الوحيدة التى يخصها بها الخالق عز وجل.

وفى الواقع لايسمح نمط الحياة التى تحياها المرأة بعيدة كل البعد عن الأنشطة العامة بأى عمل آخر. أما الفكرة السوقية الشائعة لدينا بأنهم لا يقرون بأن النساء لهن أرواح، فهى فكرة خاطئة. صحيح أنهم يقولون إن جنس النساء أقل قيمة، ولذلك عليهن ألا يأملن فى دخول الجنة المعدة للرجال الذين سيستمتعون بكل الجنة والخلود، لكن هناك مكانًا للسعادة معد لأرواح الطبقات الأقل قيمة ستذهب إليه كل النساء اللاتى سيحظين بالخلود. وكثير من النساء تسيطر على فكرهن روح الخرافة بشكل غير عادى ، ولا يبقين أرامل عشرة أيام خوفا من الموت فى حالة خروج من زمرة الأبرار ، أو كونهن مخلوقات لا فائدة منها، لكن أولئك اللاتى يفضلن حريتهن يسعدن أنفسهن بالزواج عندما يشعرن بخشية الموت. وهذه النظرية الفقهية تختلف عما تعلمناه، إنه لا شىء أكثر قبولاً للخالق من التكريس للتبتل الدائم، وأعتقد أنها نظرية أكثر منطقية تاركة لك الحكم فى ذلك.

استطعتُ بالفعل تكوين مجموعة من الميداليات اليونانية. فهنا يوجد كثير من الخبراء فى شئون الأنتيكات، وهم على أتم استعداد لخدمة أى شخص يرغب فى شراء هذه الأشياء. لكنك لا تستطيع تصور حملقتهم فى وجهى عندما أسأل عنها، كما لو كان غير مسموح لأى شخص بالبحث عن تلك الميداليات إلا إذا قدموها له بأنفسهم. لدىّ الآن مجموعة قيمة جدا من ميداليات لملوك مقدونيا خاصة ميدالية الملك برسيوس، وهى رائعة، أتصور أننى أرى كل مسالبه فى وجهه. لدى حجر سماقى لصورة رأس جميلة الصنع وهى تمثال يونانى أصلى، لكن خمن لمن هذه الصورة؟ أعتقد أننى سأعرف ذلك من أهل الخبرة عند عودتى. لا أظن أنك تعرف أى شىء عن تلك الأنتيكات (كلها يونانية). وهذه التجارة قائمة فقط على عمليات البيع، ولديهم علاقات تجارية مع حلب، والقاهرة الكبرى، والجزيرة العربية، وفلسطين، وهم يرسلون لهم كل ما يستطيعون العثور عليه، وغالبًا أكوام كبيرة لا تصلح إلا للصهر والتحول إلى أوانى للقلى وغلايات. ويطلبون أعلى سعر يستطيعون الحصول عليه مقابل هذه التحف دون تمييز القيِّم من الردىء. أما من يتظاهرون بالمهارة فتجد لديهم عمومًا صور القديسين على ميداليات للمدن اليونانية. أرانى أحدهم تمثالاً لأثينا تحمل فى يدها صولجان النصر مقلوبًا وأكد لى أنها صورة العذراء مريم تحمل المسيح مصلوبًا. هذا الرجل نفسه عرض علىّ تمثالاً من العقيق لرأس سقراط، وليزيد من قيمته ادعى أنه القديس أغسطين.

أوصيت على مومياء، وأتمنى أن تصل إلىّ سليمة، ولا يصيبها سوء الحظ الذى أصاب مومياء كانت قادمة خصيصًا لملك السويد. كان قد دفع فيها ثمنًا غاليًا ولكن الأتراك ظنوا أنه أعد مشروعًا مهمًا يعتمد عليها. تصوروها جسدًا لشخص يعلم الله من هو، و أن قدر مملكتهم يتوقف بشكل غامض على الاحتفاظ بها. تذكروا بعض النبوءات القديمة فى تلك المناسبة وحبسوا المومياء فى الأبراج السبعة وبقيت منذ ذلك الحين تحت حراسة مشددة. لم أجرؤ حتى على محاولة إرضاء فضولى فى أمر شديد الأهمية مثل تحريرها من قبضتهم، لكنى أتمنى أن تصل المومياء الخاصة بى دون فحوص.

لا يسعنى فى الوقت الحاضر أن أحكى لك المزيد عن هذه المدينة الشهيرة. عندما أخلو إلى نفسى قليلاً ستسمع منى المزيد.

* * *

إلى السيد بوب (الشاعر ألكسندر بوب)

قرية بلجراد فى السابع عشر من يونيو ١٧١٧

أتمنى أن تكون وصلتك قبل هذه الرسالة رسالتان أو ثلاث غيرها. لم أتلق رسالتك إلا بالأمس، برغم أنها مؤرخة بتاريخ الثالث من فبراير، كنت تظننى مت ودفنت. فلتعلم أننى مازلت على قيد الحياة، لكن إذا

توخينا الحقيقة، أنا أتأمل ظروفى الحالية فأرانى أشبه تماما مَن رحلوا عنا بأرواحهم.

دفعتنى درجة حرارة القسطنطينية الملتهبة إلى هذا المكان الذى تنطبق عليه أوصاف بساتين الفردوس. أعيش فى منتصف غابة من أشجار الفواكه ، ترويها أعداد هائلة من ينابيع الماء الشهيرة بروعة مياهها، وتتفرع إلى عدة ممرات ظليلة مقامة على الكلأ القصير الذى يبدو كأنه من صنع الانسان، لكنهم أكدوا لى أنه من عمل الطبيعة البكر. موقعنا يطل على البحر الأسود الذى يمتعنا بشكل دومًا بالنسيم العليل، فلا نشعر بحرارة الصيف. القرية لا يسكنها إلا المسيحيون الأثرياء الذين يلتقون كل مساء لدى نافورة على بعد أربعين قدمًا من منزلى فيرقصون ويغنون، ويطابق حسن النساء وملابسهن ما نعرفه عن الحوريات فى قديم الزمان، كما وصفها لنا الشعراء والرسامون. لكن أكثر ما يقنعنى أننى ميتة (وفى الجنة) موقف ذهنى الذى يتجلى فى عدم اكتراثى بكل ما يجرى حولى بين الناس(وتأتينى أخبارهم بالصدفة) والهدوء الشديد الذى أعيشه. ومع ذلك لا زال بى توق لأصدقائى ومعارفى الذين خلفتهم فى العالم طبقًا للنص الذى قاله ذلك المؤلف البارع:

يا لطبيعة الأرواح الراحلة

تطوف بالأصدقاء والأقارب زائرة

الحقيقة المهيبة أنى مثال على ذلك الموت. وفى ظنى أن فرجيل كان له نفس الرأى بأن الأرواح البشرية تظل تحمل بعض الألم الإنسانى بعد الموت، ويلزمنا الوصول للفردوس المثالى، حيث نهر النسيان، لكنى لم أسعد بالعثور عليه.

للحقيقة، أحيانًا يصيبنى الاكتئاب من هذا الغناء والرقص والشمس الساطعة، وأتوق لرائحة الدخان ووقاحة العالم الذى تشقى بالعمل فيه، إلا أننى أحاول إقناع نفسى أننى أعيش فى متعة أكثر منك، فيوم الاثنين نخرج للصيد، والثلاثاء أقرأ فى كتب الأدب الإنجليزى، والأربعاء أدرس اللغة التركية (بالمناسبة لقد أجدتها جدا) ، أما الخميس فأقرأ فى الأدب الكلاسيكى، والجمعة أقضيها فى الكتابة، والسبت فى أشغال الإبرة، والأحد أستقبل الزيارات وأستمع للموسيقى، وهى طريقة لقضاء أيام الأسبوع أفضل من تلك التى أقضى فيها الاثنين فى قاعة الاستقبال فى القصر، والثلاثاء لدى السيدة موهون، والأربعاء فى الأوبرا، والخميس فى العزف، والجمعة لدى السيدة شيتوايند إلى غير ذلك .... إنها دائرة من سماع نفس الفضائح ومشاهدة نفس الحماقات ترتكب مرات ومرات، ولا تؤثر فىّ أكثر مما تؤثر فى الأموات. فى وسعى الإصغاء إلى أمور مؤسفة فيعترينى إحساس بالشفقة ودون سخط. إن انعكاسات الهوة الكبيرة بينى وبينكم تفقدنى الحماس لأى أخبار تصلنى هنا، فلا تلمسنى مشاعر البهجة ولا مشاعر الحزن، وعندما أفكر أنه من المحتمل أن سبب ذلك كله ربما زال قبل أن يصل الخطاب إلى يدى، لكنى (كما

قلت لك من قبل) أكن لك ولمستر كونجريف شعوراً طيبًا، وأرغب أن أحيا فى ذاكرتك رغم موتى عن كل العالم حولى.

* * *

إلى ليدى ـــ

قرية بلجراد فى السابع عشر من يونيو ١٧١٧

سيدتى أطلب مغفرتك من كل قلبى ، لكنى حقًا لم أتمالك نفسى من الضحك من أعماقى لدى قراءة خطابك وإدراك المهام التى تشرفيننى بها بكل ممنونية.

إن رغبتك أن أبتاع لك جارية يونانية وأن تكون فتاة تتمتع بألف من الخصال الطيبة، تحتم علىّ أن أخبرك أن اليونانيات تابعات ولسن جوارى. أما من تباع بتلك الطريقة إما سُلبت فى حرب ، أو سرقها التتار من روسيا ، أو جراكسة أو من جورجيا، وجميعهن بائسات سمجات يثرن الشفقة ولن تفكرى إطلاقًا أن تعمل أى منهن خادمة فى منزلك. صحيح أن عدة آلاف منهن وقعن فى المورة ، لكن الغالبية تمت إعادتهن بمساعدة المحسنين المسيحيين، أو دفع لهن الأقارب فدية فى البندقية، أما تلك الجوارى اللاتى يعملن فى خدمة سيدات الطبقة الراقية أو ملذات الرجال، فكلهن تم ابتياعهن فى سن الثامنة أو التاسعة ، وتلقين تعليمًا

رفيعًا باهتمام شديد ليجدن الغناء والرقص وأشغال الإبرة وغير ذلك .... وهن غالبا جراكسة والسادة لا يبيعوهن إطلاقًا إلا على سبيل العقاب لخطأ فادح، أو إذا زهد صاحب الجارية منها أو ملَّها فإنه قد يهديها لأحد أصدقائه أو يعتقها، لكن أولئك اللاتى يعرضن للبيع فى الأسواق إما مرتكبات لجرم ما ، أو لا يجدن أى شىء بالمرة، فلا فائدة ترجى منهن إطلاقًا. أخشى أن ترتابى فى قولى الذى أعترف لك أنه يختلف تمام الاختلاف عن الأفكار الشائعة فى إنجلترا، لكن هذه هى الحقيقة.

إن خطابك ملىء بالأفكار الخاطئة من بدايته حتى نهايته. أرى أنك تبنيت أفكارك عن تركيا من الكاتب المعروف دومون،الذى كتب عن جهل لا يضاهيه إلا ثقته العمياء فى نفسه. أنا أستمتع بقراءة كتاب الرحلات إلى الشرق، برغم أننى أرى أن تلك الرحلات بعيدة كل البعد عن الحقيقة، ومليئة بالسخافات. بالطبع هذه الكتابات تسلينى، فهى لا تخلو من وصف النساء اللاتى من المؤكد أنه لم يرهن البتة، وحديثه المطلع عن عبقرية الرجال الذين لم ولن يسمحوا بوجوده بينهم على الإطلاق، وغالبا ما يصف المساجد التى لا يجرؤ على اختلاس النظر إليها. إن الأتراك شعب معتد بنفسه جدا ، وهم لا يتحدثون مع شخص غريب إن لم يكونوا متأكدين أنه ذو أهمية ومكانة مرموقة فى بلاده. بالطبع أنا أتحدث عن أفراد الطبقات الراقية رفيعة المستوى، أما بالنسبة للعامة لك أن تتصورى أية أفكار يمكن للحديث معهم أن يفيدك عن عبقرية عامة ذلك الشعب.

أما بالنسبة لبلسم مكة، فبالتأكيد سأرسل لك بعضاً منه، لكنه ليس من السهل الحصول عليه كما تظنين، ولا أستطيع لما يمليه علىّ ضميرى أن أنصحك باستخدامه. لا أدرى كيف يلقى مثل هذا الاستحسان العالمى؛ فكل السيدات اللاتى أعرفهن فى لندن وفيينا توسلن لى أن أرسل لهن بعضًا منه. جاءتنى كمية صغيرة منه كهدية (أؤكد لك أنها ثمينة جدا) ومن أفضل نوع، وبمنتهى البهجة وضعتها على وجهى متوقعة بعض الأثر الرائع والفائدة. فى الصباح التالى كان التغير بالفعل مدهشًا، انتفخ وجهى وتورم لدرجة غير عادية ، واكتسى بلون أحمر مثل وجه ليدى بى ، وبقى على هذه الحال المؤلمة ثلاثة أيام، لك أن تتصورى ما عانيت فيها. لا أعتقد أن هناك طرائق أخرى لاستخدامه ولإضافة عذاب إلى عذابى، ظل السيد ورتلى يلومنى على فعلتى الحمقاء دون توقف، ومع ذلك فوجهى كما هو، إلا أن السيدات هنا يقولون إنه يتحسن كثيرا، الأمر الذى أعترف أننى لا أستطيع إدراكه فى مرآتى. حقيقة إذا كان على المرء أن يكوّن رأيه فى هذا البلسم من خلال رؤيته لوجوه النساء هنا ، فالمؤكد أنه سيرى الأمر طيبًا جدا. فالجميع يستخدمنه ولديهن ألطف بشرة متوردة فى العالم. أما أنا فلا أنوى إطلاقًا أن أتحمل ذلك الألم مرة أخرى، ولتأخذ بشرتى مجراها الطبيعى وتذبل فى وقتها المناسب، فأنا لا أحبذ استخدام تلك الأدوية كثيرا، لكن افعلى ما تشائين يا سيدتى، فقط تذكرى قبل أن تستخدميه أن وجهك لن يكون بالشكل الذى تريدينه فى قاعة الاستقبال فى البلاط لعدة أيام.

إذا كان على المرء أن يصدق النساء فى هذا البلد ، فهناك طريقة يدعين أنها مؤكدة لجذب الحبيب أكثر من الجمال، فهن يدعين معرفة أســرار خــاصة بأمور السحر والشعوذة تمنحهن اليد العليا فى كافة ما يتعلق بالحب لدرجة تسعدهن فوق ما يتصورن. أما أنا فلا أميل للاعتقاد فى المعجزات ولا أملك إيمانًا بمثل هذه الأمور. كنت أناقش هذا الأمر مساء أمس مع سيدة تتحدث حقيقة بشكل شديد الوعى فى أى موضوع آخر، لكنها غضبت منى بحق لأنى لم أقتنع بصدق الأربعين قصة التى حكتها لى من هذا القبيل، وفى نهاية الأمر ذكرت لى عدة زيجات غير منطقية، لم يكن من سبب غير السحر يمكن عزوها إليه. أكدتُ لها أنه فى إنجلترا حيث نجهل تماما كل أمور السحر، والطقس ليس بمثل هذا الدفء ، ولا النساء بنصف هذا الحسن، والأمر لا يخلو من زيجات غير منطقية، لكننا لا نعتبر ذلك خارقًا للطبيعة عندما يلعب الرجل دور الأحمق لأجل امرأة. لكن حديثى لم يقنعها (كما قالت) ضد معرفتها الأكيدة ، إلا أنها أضافت هى بنفسها أنها ترتاب فى استخدام السحر لكنها قد تلجأ إليه إذا اضطرتها الظروف لذلك، وقالت وهى تحملق فى وجهى (بأسلوب العارفين بالأمر) إن السحر لن يستطيع التأثير فىّ، وأن هناك أشخاص معفيين من تأثير تلك القوى، لكنهم قليلون جدا. وتخيلى أن كلامها هذا أضحكنى بشدة، لكن جميع النساء هنا يعتقدن فى هذه الأمور، إنهن لا يدعين التعامل مع الشيطان إلا أن هناك وصفات تثير الحب، ولو أمكن أن أرسل حمولة سفينة من هذه

الوصفات ربما أمكنني أن أشترى عزبة ، وتخيلى كيف سيكون إقبال بعض السيدات على هذه البضائع؟

عذرا يا سيدتى العزيزة ، لا يمكننى أن أختتم خطابى بموضوع يمنحك المزيد من المشاهد المبهجة للخيال. أتركك مع نفسك تتصورين مدى الحفاوة التى سأحظى بها لدى عودتى، إذا أمدتنى أسفارى بمثل ذلك المجال النافع من العلم.

المخلصة

* * *

إلى السيد بوب

الأول من سبتمبر ١٧١٧

حين كتبت لك آخر خطاب، كانت بلجراد تحت سلطة الأتراك، لكن فى اللحظة الراهنة تغيرت الأمور وصارت بين يدى قوات إمبراطور النمسا . استغرق جندى من الإنكشارية تسعة أيام للوصول للقسطنطينية دون أية مساعدة سوى حالة الرعب الشديد المسيطرة عليه ، قادمًا من الجيش التركى الموجود على أبواب بلجراد ، ليحمل الأخبار للسيد ورتلى عن النصر التام الذى أحرزته قوات الإمبراطور تحت قيادة الأمير يوجين

على القوات العثمانية. قيل إن الأمير كشف عن بسالة وبراعة شديدة. وبعد يومين من المعركة استسلمت المدينة ، وأثارت الهزيمة التى وقعت هنا رعبًا شديداً فى النفوس، وأثار خوف السلطان نشوب ثورة لدى الشعب نبعت من حنقهم وسخطهم، وقد أشعلها بعض القواد، بدأ السلطان احتياطاته بعد فترة حكمه الرغدة بإصدار الأوامر بشنق عدد من الشخصيات التى كانت موضع شك وريبة من جلالته. أمر أيضا خازنه بدفع راتب شهر مقدمًا للإنكشارية، ولم يبد ذلك الأمر ضرورياً لأن سلوكهم فى تلك الحملة كان على درجة من السوء، وأثارت وحشيتهم فى عدم الالتزام بالقواعد احتقار العامة. عاد بعضهم إلى العاصمة فى جماعات مشردة أو لاجئين، مفتقدين المقدرة النفسية أو الشجاعة الكافية للدفاع عن أنفسهم ضد إهانة العامة، حتى الأطفال الصغار يهينونهم بسخرية ، والجماهير تبصق عليهم عندما يمرون بهم. لقد رفضوا فى أثناء المعركة تقديم مساعداتهم لإنقاذ أمتعة وخزائن الجيش التى كان يدافع عنها الباشاوات وحاشيتهم، بينما كان الإنكشارية والمشاة والسباهى والفرسان يعملون بكل شرف ونبل فى نهب معسكراتهم.

ها أنت ترى أننى أردُّ على خطابك الرقيق بخطاب شديد الكرم. لقد أمتعتنى فى خطابك بما حكيته لى عن صلاتك اللطيفة بأهل الثقافة والكتَّاب، وتلك اللحظات الجميلة التى قضيتها بينهم فى ظلال الريف، وأنا بالمقابل أحكى لك عن تلك المناظر البربرية للأتراك والألمان وهم

يسفكون دماء بعضهم بعضًا . لكن ماذا يمكنك أن تتوقع من بلد مثل هذا، هرب منه الإلهام وتلاشت منه الثقافة للأبد، ولا يسعون فى حياتهم الخاصة طلبًا للسعادة لشىء أكثر من اللهو والشهوات الكسولة، ومن يهتمون بالقضايا العامة يعيشون فى قلق وريبة ورعب! ها هى المتعة هنا وأنا لست عدوة لها عندما تكون ملائمة وصادرة عن تكوين عقلى طيب، فمن المؤكد أنها ستكون مقبولة. إن الذوق العام والحديث المهذب والصلات الإنسانية الطيبة أمور لا يعرفها الأتراك، ومع ذلك هم قادرون بالفعل على نيلها كلها، إذا توقفت روح الفساد فى حكوماتهم عن إعاقة العبقريات وتثبيط الاطلاع والمعرفة، وقمع مئات الأفكار التى تنقى وتستنبط حياة أفضل. إن أهواء ورغبات القصر هى الوحيدة التى تشبع هنا غالبا، لكنها تمتزج كثيرا مع روح الطغيان المستبد من ناحية، والغم والحصار النفسى الناتج عنه من ناحية أخرى. المرأة هنا لا تعيش فى الواقع قيودا شديدة كما يحكى الكثيرون، فهى تستمتع بدرجة عالية من الحرية حتى فى قلب العبودية، ولها طرق فى المراوغة والتخفى، مما يفضلن ممارستها فيما يخص العلاقات العاطفية، لكنها مع ذلك لاتزال ترزح تحت وطأة مخاوف ترقب الشر، فإذا اكتشف أمرها تتعرض لغضب ، غيرة لا تعرف الرحمة ، والأمر هنا لا ينتهى إلا بإراقة الدم. ويبدو أن هذا الأمر يمثل أحد أسباب المتعة الرئيسية لسيدات علية القوم والأثرياء، فهن يرتبطن بحاشيتهن من الجوارى ويستمتعن بأدائهن للغناء والرقص وعزف الموسيقى والتزين بالملابس والحلى، لكن هناك كذلك جوًا

من الشكليات الفارغة والجمود وسط هذه الأبهة يعوق شعورهن بالبهجة والسعادة على المدى الطويل، مع ذلك اعترانى إحساس بالانبهار لرؤيتى لهذه الأشكال فى المرة الأولى. هذا الأسلوب الجامد والشكلى يحتل مكانة متميزة لدى السيدات التركيات، أما سحر المرأة اليونانية فيتجلى فى شخصية جد مختلفة، وطبيعة نفسية مختلفة، فمتعتهن تظهر فى أشكال أكثر حميمية وشخصياتهن وأسلوبهن وحديثهن ولهوهن، كلها أمور لا تخلو من الأناقة والبساطة.

لم يدهشنى خبر ترشيح مستر أديسون للوزارة، ذلك أننى أعلم أن ذلك المنصب عُرض عليه من قبل، وأنه رفضه، وأعتقد أنه كان يفعل خيراً لو رفضه اليوم. فمثل ذلك المنصب وتلك الكونتيسة كزوجة ليس من التعقل فى شىء. جدير برجل مصاب بالربو أن يتروى فى قبول هذه الأمور، وقد يأتى اليوم الذى نراه فيه سعيداً بتخليه عن الأمرين معًا. رائع أنه ركن جانبًا فكرة معجمه الغزير، الذى سمعتك أنت أو غيرك يرددون ذكره كثيرا. لن أتحدث أكثر من هذا فى هذا الموضوع، ولا أريد أن أطيل فى هذا الشأن، لست واثقة إذا كان هذا الخطاب سيصل فى أمان ولن يقع فى يد من يفتحه. كم أشتاق للخطو على الأرض الإنجليزية، حتى تتاح لى رؤيتك ورؤية مستر كونجريف، لقد أعدتما لتلك الأرض كلاسيكيتها، أم أنك ترفض حصول وزيرنا الحالى على جزء من تلك الميزة، مهما تكن الأسباب التى تدعوك للإحساس بعدم الرضا عنه لاعتبارات أخرى. أنتم الثلاثة أسعد الشعراء، أحدكم وزير ، والآخر

يستمتع بقضاء وقت فراغه بكل مهابة فى وظيفتين مربحتين، وأنت برغم أن عقيدتك الدينية تمثل عقبة كأداء لرضا القصر وتحرمك من شغل الوظائف الرفيعة، إلا أنك استطعت العثور على حجر الفلاسفة منذ ترجمت الإلياذة وحولتها إلى إبداع إنجليزى متميز دون أن تفقدها شيئًا من جمالها، لقد ساعدت على تدفق التيار الذهبى من باكتولوس إلى تويكنهام(*) فى نظرى تعد هذه بمثابة العثور على حجر الفلاسفة، لأنك وحدك من اكتشف السر ولا أحد سواك. لقد حاول ذلك كل من أديسون و تيكيل، لكن مساعيهما باءت بالفشل، وإن لم يكونا فقدا أموالهما فعلى الأقل فقدا جزءًا من سمعتهما فى تلك المحاولة، بينما استطعت أنت أن تلمس عن قرب عباءة الشاعر الذى بلغ عنان السماء، وتشربت روحه بها. آمل أن نحظى قريبا بترجمة للأوديسا من يدك الميمونة، وأظننى سأتبع بسعادة فريدة خطوات الرحالة عوليس، الذى كان يتمتع بقوة ملاحظة للبشر وأنماط سلوكهم فى أسفاره التى ترويها أبياتك الشعرية. أحبه أكثر بكثير من ابن بليوس المتهور الذى تمرد على قائده ، وبكى من أجل عشيقته ، وما إلى ذلك من أفعال... صحيح أن عظمة الإلياذة لا تعتمد على مزاياه الشخصية أو مكانته، لكننى أتمنى مع ذلك لو أن هوميروس اختار بطلاً أقل انفعالاً وجنوحًا للخيال، فالبطل المثالى ينزع للخيال وهو ليس طبيعيًا، فلا يمكن أن يصبح قدوة أو يعلِّم درسًا بينما ينبغى

(*) تويكنهام : مقر إقامة بوب .

تصوير بطل الملحمة محفوفًا بالنقائض الموجودة بكثرة فى الطبيعة الإنسانية، إلا أنه لا ينبغى إطلاقًا أن يصور على أنه مناف للعقل تماماً. لكن مِن السخيف أن ألعب دور الناقدة، لذلك أستأذنك فى الختام هذه المرة، وأرجو أن تصدقنى، مع احترامى الشديد.

* * *

إلى السيدة ثيستيلثوايت

بيرا / القسطنطينية ، فى الرابع من يناير ١٨١٧

عزيزتى السيدة ثيستيلثوايت، أنا ممتنة لك بشدة على خطابك المشوق. أنت الوحيدة فيمن أراسلهم التى حكمت حكمًا صائبًا لأنك فكرت أننى سأسعد بتلقى أخباركم. أما مَن كتبوا لى فقد أخبرونى (تقريبا بنفس الأخبار) أنهم يفترضون أننى أعرف كل شىء. لماذا يفترضون هذا؟ بالطبع لا يمكننى تخمين السبب.

أتمنى أن أستطيع رد كرمك معى بما يمتعك ويسليك ببعض ما يحدث هنا. لكنى لا أعرف أى جانب من المناظر يشبع فضولك، أو إذا كان لديك فضول بالمرة لأشياء بعيدة عنك. للحقيقة أقول لك إن متاعب الحمل التى أمر بها هذه الفترة لا تجعلنى أجد أية متعة فيما أراه حولى، فرأسى مشحون تماما بالاستعدادات الضرورية لاستقبال الوافد الجديد

والذى أتوقع قدومه كل يوم. تستطيعين بسهولة تخمين حالة القلق التى أعيشها . لكنى هادئة بعض الشيء بسبب البهجة التى أحسها لانتظار طفل جديد، وإلا لوصلت إلى حالة من الازدراء وأصبحت فريسة لحالة القلق والتوتر. لن تعرفى ما الذى يمكنك عمله حيال هذا الكلام، لكن فى هذا البلد إذا تزوجت المرأة ولم تنجب أطفالاً تصبح أكثر ازدراء من المرأة التى تنجب أطفالاً دون زواج لدينا . فلديهم تصوّر أن المرأة حين تكف عن إنجاب الأطفال فذلك لأنها تجاوزت سن الإنجاب مهما كان مظهرها ينبئ عن عكس ذلك، وهذا الرأى يجعل السيدات هنا على أقصى استعداد لإثبات شبابهن (وهو أمر شديد الأهمية لحسن استقبالهن، مثل إثبات حسن الحسب والدماء النبيلة للحصول على لقب فارس مالطا) فلا يكتفين باستخدام الوسائل الطبيعية، بل يجرين وراء كل أنواع الدجل والشعوذة لتجنب فضيحة تجاوز سن القدرة على إنجاب الأطفال، وغالبا يعرِّضن أنفسهن للموت بهذه الوسائل. ودون أية مبالغة، كل النساء اللاتى أعرفهن والتى مضى على زواجهن عشر سنوات لديهن اثنا عشر أو ثلاثة عشر طفلاً، أما الكبيرات اللاتى تجاوزن سن الإنجاب فيتباهين بأنهن أنجبن خمسة وعشرين أو ثلاثين طفلاً، وهن يلقين احتراماً بقدر عدد الذرية التى ينجبنها . عندما يكون لدى المرأة طفل واحد فالتعبير الشائع الذى يقال فى هذه المناسبة أنهن يأملن أن يكون الله رحيماً فيرسل لهن اثنين هذه المرة، وعندما سألت كيف يتوقعن النهوض بأعباء مثل هذا القطيع الذى يرغبن فى إنجابه؟ كانت الإجابة أن الطاعون سيتولى قتل نصفهم، وهو ما يحدث حقًا،

والوالدان لا يباليان به كثيراً ؛ لأنهما راضيان بغرور أن بإمكانهما الإنجاب مرات أخرى عديدة.

تضطر زوجة السفير الفرنسى أن تواجه هذا النمط من السلوك مثلى تماما. فلم يمر على وجودها هنا عام بعد، لكنها عانت من ذلك. والجميل أن الحصانة التى تتمتع بها المرأة الولود أنقذتها من لعنة انتمائها لجنس النساء. فهن يتلقين الصديقات يوم الولادة ، وفى نهاية الأسبوعين الأولين يقمن برد الزيارات مرتديات حليهن ومجوهراتهن وملابس جديدة. أتمنى اكتشاف تأثير الطقس علىّ فى هذه المناسبة. لكنى أخشى أننى سأظل امرأة إنجليزية فيما يتعلق بالولادة، كما أفعل بصدد خوفى من الحرائق والطاعون، وهما أمران لا يثيران الكثير من الفزع هنا، فمعظم العائلات احترق منزلها مرة أو مرتين، وذلك بسبب طريقتهم الغريبة فى التدفئة، التى لا يستخدمون فيها لا مواقد ولا مدافىء، بل آلة معينة تسمى (تندور) بارتفاع قدمين فى شكل منضدة مغطاة بسجادة جميلة أو قطعة قماش مطرزة. وهى تصنع فقط من الخشب ويضعون فيها كمية ضئيلة من الرماد الساخن، ويجلسون واضعين أقدامهم تحت هذه السجادة. وعلى هذه المنضدة يعملون ويقرءون وغالبا ينامون أيضا، وإذا استغرقوا فى النوم وراحوا فى الأحلام يرفسون التندور، فتشتعل النار ويحترق المنزل. هناك خمسمائة منزل احترقت بهذه الطريقة منذ أسبوعين، وقد رأيت عديداً من أصحاب تلك البيوت لا يبدو عليهم أقل تأثير بما حدث أكثر من اعتباره سوء حظ.

وهم يضعون أمتعتهم فى مركب صغير ذى ثلاثة صوارى، ويقفون لمشاهدة بيوتهم تحترق بفلسفة عظيمة، فنادراً ما يصاب أحد بأى أذى حيث لا توجد لديهم سلالم يهبطونها.

أنا أحاول أن أقص عليك ما يسليك ويشوقك، فأحكى لك أموراً لا تروقنى، بينما ينبغى أن أحكى لك شيئًا مما يسرنى. الطقس هنا هذه الأيام رائع جدا. اليوم الرابع من يناير وأنا أجلس والنوافذ مفتوحة أستمتع بأشعة الشمس ، بينما تتجمدين أنت من البرد أمام مدفأة الفحم البائسة، وتزدان حجرة نومى بزهور القرنفل والورود والنرجس النضرة التى قطفتها من حديقتى. ويعجبنى كذلك بعض نقاط فى القانون التركى ولابد من الاعتراف أن تخطيطها وتنفيذها أفضل من قوانيننا؛ وبالذات العقوبة المفروضة على من يثبت كذبهم (يعلم الله أنهم فى بلادنا مجرمون منتصرون) حيث تكوى جباههم بقضيب من حديد محمى مما يثبت افتراءهم بكذب فاضح. كم من الجباه البيضاء يمكننا أن نراها مشوهة، وكم من السادة المرموقين النبلاء قد يضطرون لارتداء شعورهم المستعارة حتى تغطى حواجبهم. هل يمكن لهذه القوانين أن تطبق لدينا! سأرسل لك تباعًا الكثير من أشكال العدل هنا، لكن علىَّ الآن أن أستدعى القابلة.

* * *

إلى الكونتيسة مار

بيرا/ القسطنطينية ، فى العاشر من مارس ١٧١٨

لم أكتب لك يا شقيقتى العزيزة طيلة هذه الشهور، وفى هذا قدر وافٍ من إنكار الذات. فلم أكن أعرف إلى أين أرسل خطابى، ولا فى أى جزء من العالم أنت. فلم أتلق منك رسالة منذ تلك الرسالة القصيرة فى أبريل الماضى حين أخبرتينى بعزمك على مغادرة إنجلترا ، ووعدتى بإبلاغى بالمكان الذى ستكونين فيه، لكنى انتظرت ذلك دون جدوى حتى هذه اللحظة. والآن فقط عرفت من جريدة الجازيت أنك عدت إلى إنجلترا، مما حدا بى أن أخاطر وأرسل لك هذه الرسالة إلى منزلك فى لندن. أرجح أن الخطابات العشرة التى أرسلتها لك قد فقدت، بينما تتصورين أننى لم أكتب لك ، وسيكون من حسن الحظ إذا كانت واحدة من تلك الرسائل قد وصلتك. على أى حال، أنا أحتفظ بنسخة من كل رسالة كشهادة على رغبتى فى الكتابة لك من أعماق قلبى ، أكثر من كل الأمور المشوقة والمسلية التى استمتعت بها فى أسفارى، وأعفيك من الاستماع لما لقيته من متاعب وعوائق مزعجة.

فى المقام الأول أتمنى أن تكونى مستمتعة بصحبة ابنة أختك، فمنذ خمسة أسابيع اضطررت أن ألزم بيتى وأرقد فى الفراش بسبب الولادة. لا أحكى هذا كنوع من المغامرات المسلية، على الرغم من أننى ينبغى أن أعترف أن هذا ليس مخزياً نصف قدر ما يحدث فى إنجلترا

فهناك اختلاف كالفرق بين الإصابة بنزلة برد التى تحدث هنا كثيرا ، والإصابة بالداء المنتشر فى لندن. فلا ينبغى هنا لأحد أن يبقى راقدًا فى منزله لمدة شهر، وأنا لست مغرمة بأى من عاداتنا لأتذكرها بلا داعى. قمت برد الزيارات التى تلقيتها فى نهايات الأسابيع الثلاثة الماضية، ومنذ أربعة أيام تقريبًا عبرت البحر الذى يفصل المكان هنا عن القسطنطينية، لأقوم بزيارة أخرى حيث حظيت بفرصة طيبة للإلمام بكثير من الطرائف.

ذهبت لزيارة السلطانة هافيتان والتى كانت أثيرة لدى الإمبراطور السابق مصطفى، ذلك الذى كما تعلمين (وقد لا تعلمين) قد خلعه من العرش أخوه أحمد وهو السلطان الحالى، وقد مات مسمومًا بعدها بعدة أسابيع قليلة، كما يعتقد الناس هنا عامة. تعرضت هذه السيدة على أثر وفاته مباشرة للإهانة الشديدة بتلقيها أمرًا صارمًا أن تترك سراى السلطان وتختار لنفسها زوجًا من كبار رجال الباب العالى. لعلك تتصورينها شديدة البهجة بعرض هذا الزواج. إلا أن الأمر على النقيض تماما، فأولئك النساء اللاتى يسمين أنفسهن ملكات ويقدِّرن أنفسهن على هذا الأساس، ينظرن إلى تلك الحرية باعتبارها أكبر احتقار وإهانة يمكن أن تصيبهن. ألقت بنفسها تحت قدمى السلطان وتوسلت إليه أن يقتلها بخنجره ؛ ويعاملها باعتبارها أرملة شقيقه فلا يهينها بهذا الشكل. ارتمت أمامه بكل أحزانها وبما أصابها من ذلك الحظ العاثر، وذكَّرته أنها قد أنجبت لعائلة السلطان خمسة أمراء، ماتوا جميعًا ولم

يبق منهم إلا فتاة واحدة، ولم يلق هذا العذر صدى لديه، وأرغمت أن تختار، فاختارت بكير أفندى الذى يعمل وزيرًا، ويبلغ الثمانين من عمره، لتقنع العالم أنها عازمة بحسم على تكريس ذاتها لما نذرته، بألا تسمح لزوج آخر أن يقترب من فراشها، ولكن لأن عليها أن تضفى عليه شرفًا كبيرًا لتستحق لقب زوجة له، اختارته كتعبير عن امتنانها ؛ لأنه هو نفسه الشخص الذى قدَّمها وهى فى العاشرة من عمرها لزوجها وسيدها السابق. لكنها لم تسمح له إطلاقًا أن يزورها ولو مرة واحدة، على الرغم من أنها قضت حتى الآن خمسة عشر عامًا فى بيته حيث تمضى وقتها فى حداد دائم، وذلك أمر شديد الندرة فى البيوت المسيحية، خاصة على أرملة فى الحادية والعشرين من عمرها، فهى الآن فى السادسة والثلاثين. ليس لديها خصيان لحراستها، وزوجها يعاملها بكل احترام كملكة، ولا يسأل إطلاقًا عما يجرى من أمور فى شقتها، حيث اقتادونى إلى غرفة فسيحة، بها كنبة بطولها، مزدانة بأعمدة من الرخام الأبيض مصطفة بانتظام، مغطاة بقطيفة مشجرة من اللون الأزرق الباهت على أرضية فضية، ووسائد من نفس الطراز، و دعونى للجلوس والاسترخاء حتى حضرت السلطانة التى ابتكرت هذا الأسلوب فى الاستقبال لتتجنب النهوض لدى دخولى، رغم أنها أحنت لى رأسها بالتحية عندما نهضت لاستقبالها. كنت سعيدة جدا لرؤية سيدة كانت متميزة ومفضلة لدى إمبراطور يرى الجميلات والحسناوات من كل بقاع العالم كل يوم. لكنى لم أر فيها نصف حسن وبهاء فاطيمة التى رأيتها

فى أدرنة، ومع ذلك تبدو على سماتها آثار جمالها اللطيف، الذى حطَّمه الحزن وليس العمر. كان ثوبها رائع الفخامة، لا يمكننى أن أتمالك نفسى من وصفه لك. كانت ترتدى صدرة، تختلف عن القفطان بأكمامها الطويلة، المثنية فى نهاياتها، أرجوانية اللون، على مقاس جسمها العريض من الجانبين، وتصل إلى قدميها، ومزينة حول أكمامها باللؤلؤ من أفضل الأنواع بنفس الحجم الذى صنعت منه الأزرار. لا تظنى أنها فى مثل حجم اللآلئ الكبيرة التى يستخدمها لورداتنا، لكنها تقارب حجم حبة البازلاء، وعلى هذه الأزرار تثبت عُرًى من الماس، على شكل تلك العُرى الذهبية التى تستخدم عادة فى المعاطف التى يرتديها الرجال كزى رسمى لحضور أعياد الميلاد. كان هذا الرداء مربوطًا عند الخصر بشرابتين كبيرتين من لآلئ أصغر حجمًا، وحول الذراعين تطريز بأحجار ماس كبيرة على شكل المعين، وحزامها عريض مثل أعرض شريط إنجليزى، ومغطى تماما بأحجار الماس. ترتدى حول عنقها ثلاث سلاسل تصل إلى ركبتيها: واحدة من اللآلئ الكبيرة تتدلى منها زمردة ملونة رائعة فى مثل حجم بيضة أنثى الديك الرومى، والثانية مكونة من مائتى زمردة من اللون الأخضر الزاهى ملضومة معا. وكل واحدة كبيرة فى مثل حجم نصف كراون وفى سمك ثلاثة كراونات، والثالثة من حجر الزمرد صغير الحجم كاملة الاستدارة. أما القرط الذى تضعه فى أذنيها فيفوق كل حليها، وهو عبارة عن ماستين تشبهان تمامًا ثمرة الكمثرى وفى حجم بندقة كبيرة. ترتدى قلنسوة تلفها أربعة عقود من اللؤلؤ،

بياضـها وكمـالها من أروع ما صُنع فى العـالم، وهى على الأقل تكفى لصنع أربع قلادات، كل واحدة منها كبيرة كالتى ترتديها دوقة مالبورو، ومثبتة بوردتين ، تتوسط كل وردة ياقوتة كبيرة تحيطها عشرون ماسة نقية. بالإضافة لهذا، كان غطاء رأسها مغطى بدبابيس شعر من الزمرد والماس. كانت ترتدى سوارًا كبيرًا من أحجار الماس، و خمسة خواتم فى أصابعـها، كل خاتم به ماسة كبيرة لم أر فى حياتى حجمًا كبيرًا مثلها (إلا مـا يرتديه مـسـتـر بيت رئيس الوزراء). تجـار المجـوهرات فـقط يستطيعون تقدير قيمة ما تتزين به من حلى، لكن وفقًا للتقدير العام للمـجوهرات فى بلادنا فإن ما ترتديه لابد أن يسـاوى ثروة نقـدية بمائة ألف جنيه إسـترلينى. وأنا على يقـين أنه ولا ملكة أوروبية تتـحلى بنصف هذا الكم، وحتى مجوهرات إمبراطورة النمسا رغم روعتها تبدو مقارنة بذلك القدر شديدة التواضع.

قُدم لى الغداء فى خمسين طبقًا من اللحوم و (طبقًا لنمط حياتهم) وُضـعت كلها على المائدة طبقًا بـعد طبق، وقد استـغرق ذلك وقتًا طويلاً. لكن عظمـة مائدتـها كـانت مـتـفـقـة تمامًا مع مـا ترتديه من زينة وحلى. فـالسكاكين من الذهب ، ومـقـابضـها مرصعة بأحـجار الماس، لكن أمـارة الرفـاهية والفـخـامة التى خطفت أبصارى كـانت فـى المفرش الذى يغطى المائدة ، ومناديل المائدة التى كانت كلها مـصنوعة من الحرير ، ومشـغولة بالذهب والفـضـة على هيـئـة زهور طبـيـعـية فى أحلى أشكالهـا. شعـرت بالأسف لاضـطرارى لاسـتـخـدام هذه المناديل رائعـة الصنع التـى تماثل

أروع مناديل يد دخلت هذا البلد. و ثقى أنها اتسخت تماما قبل أن ينتهى الغداء. قُدم الشربات (وهو المشروب الذى يشربونه مع الوجبات) فى سلاطين من الخزف، لكن الأغطية والصوانى من الذهب الثقيل. بعد الغداء أُحضر الماء فى طسوت من الذهب ومناشف من نفس نوع مناديل المائدة، فترددت فى تجفيف يدىَّ بها، وقُدمت القهوة فى فناجين من الخزف وأطباق من الذهب.

بدت السلطانة شديدة المرح وتحدثت معى بكل كياسة ولطف. ولم أغفل هذه المناسبة لأتعلم من خلالها كل ما يمكن أن أعرفه عن سراى السلطان، وهى أمور غير معروفة لدينا إطلاقًا. أكدت لى أن قصة إلقاء السلطان لمنديله خرافة تمامًا، وأن الأسلوب المتبع فى هذه المناسبة يقتصر على إرسال الكسلر أغا لينقل للسيدة الشرف الذى يزمع إضفاءه عليها. وفى الحال بدأ الآخرون فى تهنئتها على ذلك وقادوها إلى حمام الاغتسال حيث عطروها وألبسوها أفضل الأثواب.

تبع السلطان ذلك بزيارته لها ومعه هدية ملكية ثم دخل شقتها. وأراد السلطان ذات مرة التعبير عن بهجته مصطحبًا معه كل نسائه اللاتى وقفن فى دائرة حوله، وهى تعرف أنهن فى تلك اللحظة يمتن غيرة وحسدًا من تلك السعيدة التى اختارها وميزها بتفضيلها عليهن بأى شكل، لكن هذا يبدو لى لا أفضل ولا أسوأ مما يدور فى معظم القصور

حيث يراقب الجميع نظرة الملك وكل ابتسامة منه تنتظر بفارغ الصبر وتلاقى حسد أولئك اللاتى لم يحظين بها.

لم تذكر السلطان مرة واحدة دون أن تتدفق الدموع من عينيها، ومع ذلك تبدو مولعة بالحديث عنه. فتقول : سعادتى الماضية التى " تبدو لى كحلم ومع ذلك لا يمكننى أن أنسى أننى حظيت يوما بحب أعظم وأرق رجل فى العالم. لقد اختارنى دون الأخريات لأصحبه فى كل حملاته العسكرية، لم أكن لأحظى بدوام ذكراه لو لم أكن مغرمة بالأميرة ابنتى. ومع ذلك فكل حنانى لها بالكاد يجعلنى أبقى على حياتى. عندما فقدته قضيت اثنى عشر شهراً لا أرى النور، لكن الزمن خفف من يأسى وأحزانى، ومع ذلك للآن لا يمر يومان أو ثلاثة من كل أسبوع دون أن أسبح فى دموعى بكاء على ذكرى سلطانى".

لم يكن ثمة تصنُّع أو زيف فى هذه الكلمات ؛ فقد كان من السهل رؤية أحزانها العميقة برغم أن روحها المرحة جعلتها ترغب فى التسرية عنى.

دعتنى أن نتمشى فى حديقتها، وفى الحال أحضرت لها إحدى جواريها حرملة رقيقة من القماش المطرز المبطن بالفراء. انتظرتها فى الحديقة ولم يكن بها شىء يستحق الذكر سوى النافورات، ومن هناك أرتنى كل شقتها، كان الحمّام الخاص بحجرة نومها ظاهراً للعيان، وبه مرآتان مؤطرتان باللؤلؤ، وكان التولبوك الذى تضعه على رأسها

فى المساء معلقًا على مقبض من المجوهرات ، وبالقرب منه ثلاث صدريات من الفراء الجميل تساوى كل واحدة منها ما لا يقل عن ألف دولار (مئتا جنيه إسترلينى). ليس لدىّ أدنى شك أن هذه الملابس الفخمة قد وُضعت بادية للعيان عن قصد، برغم أنها كانت تبدو كأنها ملقاة على الكنبة بلا مبالاة. عندما استأذنتها فى المغادرة طيبتنى بالعطور كما حدث فى منزل كبير الوزراء ، وأهدتنى منديل يد مشغولاً شديد الروعة. يبلغ عدد جواريها ثلاثين، بالإضافة لعشر صغيرات لا تتجاوز كبراهن سبع سنوات. كن أجمل فتيات رأيتهن فى حياتى، يرتدين جميعا أفخر الثياب، وقد لاحظت أن السلطانة تبتهج جدا بوجود أولئك الصغيرات الجميلات، وهن يكلفنها كثيرا، حيث لا تباع الطفلة الجميلة فى مثل هذا العمر بأقل من مائة جنيه إسترلينى. كن يضعن على رءوسهن أكاليل الزهور، وكانت شعورهن المجدولة هى كل ما يغطى رءوسهن، وأثوابهن مشغولة بالذهب. قدمن لها القهوة راكعات ، وأحضرن لها الماء عندما اغتسلت وما إلى ذلك... ويكمن قدر كبير من عمل الجوارى اللاتى يكبرنهن سنًا فى العناية بأولئك الفتيات، فيعلمنهن أشغال الإبرة ويخدمنهن بعناية كما لو كن أطفال العائلة.

والآن ، هل لى أن أتصور أنك تتخيلين أننى أسليك بكل هذا وأحكى لك حكاية عربية من حكايات ألف ليلة وليلة؟ حقًا إنها تشبه كثيرا (كما تقولين) الحواديت العربية. تلك المناديل المطرزة! والجوهرة التى تصل لحجم بيضة أنثى الديك الرومى! لقد نسيت يا شقيقتى العزيزة أن

تلك القصص كتبها مؤلف من هذه البلاد، (فيما عدا موضوعات السحر) وهى أمور حقيقية بالنسبة لنمط العيش هنا. نحن الرحالة نعانى كثيرا، إذا لم نقل شيئًا إلا ما قيل قبلنا نبدو مملين وكأننا لم نر شيئًا، أما إذا حكينا عن أى شىء جديد يسخر منه الآخرون، باعتباره خرافيًا ورومانسيًا، وغير مسموح بمراعاة الظروف الاجتماعية التى ينتج عنها فروق فى البشر الذين يتاح لك لقاؤهم، والمزيد من الأمور الغريبة أو اختلاف العادات التى تحدث كل عشرين سنة فى كل البلاد. لكن الناس يحكمون على الرحالة بنفس الحياد تماما ونفس الطبيعة الطيبة والنزاهة، التى يحكمون بها على جيرانهم فى كل المناسبات. بالنسبة لى إذا عشت لحين العودة بينكم، ولأننى ملمة جيدا بأخلاق كل أصدقائى ومعارفى الأعزاء، قررت ألا أحكى لهم أى شىء إطلاقًا لتجنب إلصاق أية حكايات مبالغ فيها بى (تلك التى من المؤكد أن خصالهم الطيبة ستدفعهم لتوريطى فيها). لكنى أعتمد على معرفتك بى بما يكفى لتصديقى مهما يكن ما أدافع عنه كحقيقة جادة، إلا أننى سأتركك تندهشين بحكاية جديدة جدا عليك.

ماذا ستقولين إذا قلت لك إننى دخلت جناح الحريم ، حيث الشقة الشتوية جدرانها من خشب السنديان المرصع بالنقوش ومطعم بالصدف والعاج بألوانه المختلفة ومن شجر الزيتون، تماما مثل تلك الصناديق الصغيرة التى يحضرونها من هذه البلاد، والحجرات الصيفية حوائطها مكسوة بقشرة من الخزف اليابانى، والأسقف مذهبة والأرضيات

مفروشة بأروع سجاجيد فارسية؟ ومع ذلك لا شىء أكثر حقيقة مما أرويه لك، وهذا ما ينطبق على قصر صديقتى العزيزة الجميلة فاطيمة، التى تعرفت عليها فى أدرنة. ذهبت بالأمس لزيارتها، وإذا كان من الممكن أن أقول إنها بدت لى أكثر روعة وبهاء مما رأيتها من قبل، واستقبلتنى عند باب حجرة نومها وصافحتنى بأرق وألطف مصافحة فى العالم، وعلى محياها ابتسامة بدت فى رقة هلال مليح، وهى تقول لى :"أنتن أيتها السيدات المسيحيات يقال عنكن أنكن متقلبات ، ولم أتوقع برغم كل الطيبة التى عبرت عنها نحوى فى أدرنة أننى سأراك مرة أخرى إطلاقًا، لكنى الآن مقتنعة بأننى حظيت بسعادة إرضائك، ولو تعلمين كيف أتحدث عنك بين سيداتنا، تأكدى أنك ستوفيننى حق قدرى إذا صدقت أننى صديقتك." أجلستنى فى ركن على الأريكة وقضيت وقت الظهيرة فى حديث طلى معها منحنى أكبر سعادة فى العالم.

أما السلطانة هافيتان ، تلك السيدة التى يتوقع المرء بطبيعة الحال أن يجد خصالها فى السيدة التركية، ترغب فى المجاملة، لكنها لا تعرف كيف تفعل ذلك! ومن السهل أن تدركى من تصرفاتها أنها عاشت حياتها بمعزل عن العالم. لكن فاطيمة لديها كل التهذيب والتربية الطيبة التى يحظى بها من يتربى فى القصور، ويبدو ذلك من الجو الذى تبعثه روحها فيمن حولها مباشرة، من احترام ورقة، والآن عندما أتقنت فهم لغتها وجدتها ذكية ذكاءً يماثل جمالها، فهى شديدة التطلع لمعرفة ما يجرى من أمور فى البلاد الأخرى وليست متعصبة لبلدها، وهو الأمر الشائع بين

صغار العقول. السيدة اليونانية التى صحبتنى لزيارتها ولم تكن رأتها من قبل (ولم يكن باستطاعتها أن تراها يومًا إن لم تكن بصحبتى) عبّرت عن دهشتها لجمالها وأسلوبها مما لا تخطئه العين من النظرة الأولى، وقالت لى بالإيطالية :" هذه لا يمكن أن تكون تركية، مؤكد أنها مسيحية" خمنت فاطيمة ما قالته المرأة ، وسألتنى فلم أصرح لها بما قالته اعتقادًا منى أنها لن تسعد بتلك المجاملة أكثر من سعادة إحدى جميلات قصورنا إذا قال لها أحدهم أن ملامحها تركية، لكن السيدة اليونانية أخبرتها بذلك، فابتسمت قائلة :" ليست المرة الأولى التى أسمع فيها هذا الكلام، فأمى بولندية أُسرت فى حصار مدينة كامينيس ، وقد اعتاد أبى مداعبتى بقوله إنه يعتقد أن زوجته المسيحية وجدت شابًا أنيقًا مسيحيًا أنجبتنى منه، لأن ملامحى لا تشبه ملامح الفتيات التركيات". أكدت لها أنه لو كانت كل السيدات التركيات مثلها لكان من الضرورى بلا جدال أن نمنعهن من أن يراهن أحد، من أجل راحة الجنس البشرى، وأضفت شارحة لها الضجة التى يمكن إثارتها لمرأى وجه مثل وجهها فى لندن أو باريس، أجابت بلطف : " لا أستطيع أن أصدقك، فلو أن الجمال له كل هذا التقدير فى بلادك كما تقولين لمنعوك من مغادرتها"، ربما يا شقيقتى الغالية تسخرين من غرورى بهذه المجاملة. أنا أحكى لك ذلك لأننى أعتقد أنها مؤثرة جدا كمثال على الروح التى يتصف بها حوارها.

كان منزلها مؤثثًا بفخامة ويبعث الراحة فى النفس، حجراتها الشتوية مفروشة بالقطيفة المشجرة على أرضية ذهبية، والحجرات الصيفية مفروشة بضرابيات هندية جميلة مشغولة بالذهب. إن منازل السيدات التركيات الأرستقراطيات نظيفة جدا مثل منازل الهولنديات. كان منزلها يقع على جزء مرتفع من البلدة، ومن مزايا الشقة الصيفية أنها ترى البحر والجزر وجبال آسيا.

طال خطابى دون أن أدرى وأنا خجلة من ذلك. هذه علامة سيئة جدا. وهذا مقبول إذا لم أنحدر إلى مستوى الحكاءة (الكاذبة). ربما ينطبق على ذلك مثلنا الشعبى الذى يقول : " قد لا تكون المعرفة عبئًا على صاحبها، لكنها حين تزيد عن الحد تكون سببًا فى إزعاج الآخرين".

* * *

إلى السيدة ــــــ

بيرا/ القسطنطينية ، فى السادس عشر من مارس ١٧١٨

أشعر بأقصى درجات السعادة يا سيدتى العزيزة لأنك أخيراً عثرت على مهمة تكلفيننى بها، وباستطاعتى تلبيتها دون إحباط لتوقعاتك، على الرغم أننى لابد أن أقول لك إنها ليست شديدة السهولة

كما قد تظنين، إن لم يكن فضولى يفوق فضول أى رحالة آخر حتى هذه اللحظة، وإلا كنت اضطررت للاعتذار كما حدث عندما طلبت منى ابتياع جارية يونانية، لكنى هذه المرة استطعت أن أفى بطلبك وأكتب لك قصيدة غرامية من الأدب التركى، ووضعتها فى علبة صغيرة وأمرت قبطان سفينة سميرنيوت أن يسلمها لك مع الخطاب. وقد قمت بترجمتها ترجمة حرفية، القطعة الأولى التى ينبغى أن تسحبيها من الكيس هى لؤلؤة صغيرة، وهم بالتركية يسمونها إنجى:

يا أروع فتاة فى العالم

رقيقة كالقرنفلة

نقية كالوردة

أعشقك منذ زمن طويل

وأنت لاتدرين

أطلب منك أن ترقى لى

سارعى نحوى

وإلا سارع الموت

أو حتى الجدينى بكلمة

كما ترين، هذا الخطاب كله قصائد، وبإمكانى أن أؤكد لك أن هذا الشعر به من الخيال فى اختيار الألفاظ والجمل ما يوازى أجمل وأرق تعبيراتنا فى الإنجليزية. أعتقد أن هناك ملايين القصائد كُتبت فى هذا الغرض لا يوجد بها لون ، ولا زهرة ، ولا عشبة ضارة ، ولا ثمرة ولا عشبة ، نافعة ولا حصاة ، ولا ريشة طائر، إنها قصائد تخلو من رائحة الشعر تماما، وقد تتشاجرين ، أو توبخين أحدهم أو ترسلين خطابات عاطفية أو خطابات صداقة وود أو لطف ومجاملة ، أو حتى أخبار دون أن تلوثى أصابعك بالحبر.

أتصــور أنك تتعجبين الآن من ثقافتــى العميقــة، لكن واحسرتاه! يا سيدتى العزيزة ، لقد أصبت تقريبا بسوء الحظ الذى يشيع حدوثه بين أصحاب الطموح عندما توظف طاقاتهم فى غزو أشياء بعيدة، تافهة ، خارج أوطانهم. الثائر ينهض فى وطنه، أنا فى خطر شديد أن أفقد إنجليزيتى، فأنا لا أستطيع الكتابة بنصف السهولة التى كنت أكتب بها منذ اثنتى عشرة سنة مضت. وأرغم على الدرس لأستطيع التعبير عن نفسى بشكل جيد، بينما يجب أن أترك كل اللغات الأخرى وأحاول تعلم لغتى الأم. إن الفهم الإنسانى شديد المحدودية مثل القوى الإنسانية تماما، أو الكفاءة الإنسانية. يمكن للذاكرة أن تبقى لكنها فقط مجموعة من الصور، ولأنه من المستحيل على مخلوق بشرى أن يتقن عشر لغات مختلفة إتقانًا تامًا، كما يستحيل أن يكون حاكمًا مثاليًا لعشرة ممالك، أو يقاتل عشرة رجال فى وقت واحد، أخشى فى النهاية ألا أجيد أية لغة

كما ينبغى. أنا أعيش فى مكان يشبه جدا برج بابل، فى بيرا يتحدثون التركية، واليونانية، والعبرية، والأرمينية، والعربية، والفارسية، والروسية، والسلافية، والهندية، والألمانية، والهولندية، والفرنسية، والإنجليزية، والإيطالية، والمجرية، والأسوأ من ذلك هناك عشر من هذه اللغات تنطق داخل بيتى. فسائسو الخيل الذين يعملون لدى عرب، وحرس المشاة فرنسيون وإنجليز وألمان، والممرضة أرمينية، والخادمات روسيات، ونصف دستة أخرى من الخدم يونانيون، والقهرمان إيطالى، والجنود الإنكشارية أتراك، وهكذا تجديننى أحيا استماعًا أبديًا لهذا المزيج من الأصوات التى ينتج عنها تأثير غير معقول لمن يعيشون هنا، فهم يتعلمون كل هذِه اللغات فى آن واحد، ودون معرفة كافية للقراءة والكتابة. القليل جدا من الرجال والنساء أو حتى الأطفال من لا ينطقون بجملة واحدة من خمس أو ست من هذه اللغات . أنا شخصيًا أعرف عديدًا من الأطفال الذين يبلغون الثالثة أو الرابعة من أعمارهم ويتحدثون الإيطالية ، والفرنسية ، واليونانية، والتركية ، والروسية، وهم يتعلمونها من مربياتهم اللاتى ينتمين عمومًا لهذه البلاد. يبدو لك هذا غير معقول، لكنه بالنسبة لى واحد من أغرب الأشياء فى هذا البلد، وهو أمر ينزع الكثير من أصالة سيداتنا اللاتى يوقع الغرور فى أنفسهن الطموح لاكتساب تلك العبقريات غير العادية و ضمان المعرفة السطحية للفرنسية والإيطالية.

ولأنني أفضل الإنجليزية عما عداها من كل هذه اللغات، فأنا مشوشة إلى أقصى درجة بسبب هذا التدهور اليومى الذى يحدث فى رأسى، بينما أؤكد لك (بحزن من عمق قلبى) أن هذا الانحطاط يقلل من عدد كلماتى لدرجة أننى لا أستطيع أن أتذكر جملة ممكنة لأختم بها رسالتى، وأضطر أن أقول لسيادتك بكل صدق إننى خادمتك المخلصة المتواضعة.

* * *

إلى الكونتيسة بريستول

العاشر من أبريل ١٧١٨

أخيراً وصلتنى منك أخبار لأول مرة يا سيدتى العزيزة. أنا مقتنعة بالطبع أنك تكرمت و كتبت لى من قبل، لكن حظى العاثر أفقدنى خطاباتك. منذ خطابى الأخير وأنا أعيش فى هدوء فى القسطنطينية، ولعل من واجبى أن أقدم عنها لسيادتك فكرة صائبة لأننى أعرف أنه لم يتح لك عنها إلا تلك الفكرة الضئيلة والمغلوطة التى وردت فى كتابات الرحالة. مؤكد أن هناك كثيرين قضوا سنوات هنا فى بيرا دون أن يروا القسطنطينية، ومع ذلك كان لديهم من الجرأة أن يصفوها .

بيرا ، وتوفانا ، وغلطة تمتلئ تماماً بسكان من الأوروبيين المسيحيين (وهى مدن ذات مظهر جميل جدا) ويفصل بينها البحر،

إنما لا يصل إلى نصف عرض نهر التيمس. لكن الرجال المسيحيين يشمئزون من المخاطرة بالمجازفة ، والمخاطرة التى يواجهونها أحيانًا من المراكبية أو الملاحين (أفظع من المراكبية لدينا)، ويتحتم على النساء أن يغطين وجوههن إذا ذهبن إلى القسطنطينية، وهو أمر بغيض فى نظرهن. صحيح أنهن يرتدين الحجاب فى بيرا لكن ذلك فقط بهدف إظهار جمالهن أكثر، مما لا يسمح به فى القسطنطينية. والأخذ بهذه الأسباب يمنع تقريبا كل المخلوقات من الاقتراب من العاصمة، ويخيل إلىّ أن حرم سفير فرنسا ستعود إلى فرنسا دون أن تذهب هناك إطلاقًا.

ستتعجبين سيدتى عندما تسمعيننى أضيف أننى أتردد هناك كثيرًا. فاليشمك أو الحجاب التركى سهل جدا وكذلك يروقنى، وإن لم يكن الأمر كذلك لرضيت بتحمل بعض الإزعاج لإرضاء عاطفة قوية فى نفسى وهى الفضول. وفى الواقع ، إن متعة الذهاب إلى تشلسى فى زورق لا تقارن برحلة التجديف فى القناة البحرية طوال عشرين ميلاً فى البسفور، حيث تطل عليك أجمل مناظر فى العالم . فالضفة الآسيوية مغطاة بأشجار الفواكه والقرى وأجمل مناظر طبيعية فى العالم. أما على الضفة الأوروبية على نهر التيمس فتقوم مدينة القسطنطينية فوق سبعة تلال. وذلك الارتفاع يظهرها كبيرة كما هى فى حقيقتها. (فهى بالفعل من أكبر المدن فى العالم) ويشمل منظرها خليطًا رائعًا من الحدائق، وأشجار الصنوبر ، والسرو ، والقصور ، والمساجد ، والبنايات العامة تصطف وراء بعضها بعضًا بأروع ما يمكن أن يعرضه مشهد جميل ومتناغم رأيته فى حياتك.

عنيت بمشاهدة أكبر قدر يمكن رؤيته من سراى القصر. إنه مقام على أرض تمتد فوق البحر على مساحة شاسعة، لكنه غير متناسق، فالحدائق تحتل مساحة كبيرة من الأرض مليئة بأشجار السرو العالية، وهى الأشجار الوحيدة التى أعرفها من بين أشجاره، البنايات كلها من الأحجار البيضاء ، فى أعلاها أبراج صغيرة وقمم مستدقة تبدو شديدة الفخامة، وحقيقة لا أعتقد أن هناك قصراً لملك مسيحى فى نصف اتساعه، حيث يتكون من ستة قصور كبيرة كلها مستديرة ومحاطة بالأشجار والأروقة الحجرية المعمدة؛ واحد لإقامة الحرس ، والآخر للخدم والثالث للطهاة ، والرابع لإسطبلات الخيول ، والخامس للديوان السلطانى والسادس للمقابلات الرسمية. فى الجناح الخاص بالسيدات هناك قصور على الأقل أكبر مما سبق، بل وهناك أيضا قصور تخص خصيانهن وخدمهن ومطابخهن وما إلى ذلك ...

البناء الآخر الجدير بالذكر هو كنيسة سانت صوفيا، وهى من الصعب دخولها. اضطررت أن أرسل ثلاث مرات إلى القائم مقام (حاكم البلدة) وقام باستشارة الأفندية الكبار أو رجال القانون وسأل المفتى إذا كان التصريح لى بدخولها يعد أمراً قانونيًا أم لا. مرت عدة أيام فى هذا النقاش المهم ، كنى ألححت فى طلبى، فسمح لى بما طلبت. يقال إن قبة سانت صوفيا يصل قطرها إلى مائة وثلاثين قدمًا، وتقوم على أقواس مدعمة بأعمدة كبيرة من الرخام، والأروقة والسلالم من

الرخام أيضا، وفيها صفان من الأعمدة مدعمة بأعمدة أصغر منها من الرخام الملون، والسقف كله من الفسيفساء. هناك جزء تهدم بسرعة وسقط. أهدونى حفنة من أطلاله، بدا لى البناء برمته وكأنه نوع من الزجاج أو معجون بالمجوهرات المقلدة. شاهدت مقبرة الإمبراطور قسطنطين، وهم يولونها توقيراً شديداً. بالطبع هذا وصف ممل لا يفى ذلك البناء العظيم حقه، لكنى لا أفهم الكثير فى المعمار، لذلك أخشى أن أتفوه بهراء إذا حاولت الحديث بشكل متخصص. ربما أكون مخطئة لكن بعض المساجد التركية بعثت فى نفسى بهجة أكثر ، مثل جامع السلطان سليمان وهو مربع تماما وله أربع مآذن فى زواياه الأربع، وفى منتصفه قبة ضخمة مدعمة بأعمدة رخامية جميلة ، وقبتان أصغر على طرفيه مدعمتان بنفس الطريقة، الأروقة والأبهاء حول المسجد من الرخام، تحت القبة الكبيرة نافورة مزينة بأعمدة ملونة بالغة الجمال لا أكاد أصدق أنها من الرخام الأبيض، وفى الجانب الآخر الرواق الصغير الخاص بالخليفة يؤدى إليها سلم جميل مبنى من المشربيات المذهبة. فى نهايته من أعلى نوع من المذبح مكتوب عليه اسم الله، وأمامه شمعدانان بارتفاع قامة رجل، بهما شمعتان فى سمك ثلاثة مشاعل. الأرضية مفروشة بسجاجيد جميلة والمسجد مضاء بعدد كبير من المصابيح، والفناء المؤدى إليه رحب جدا وبه أعمدة من الرخام وأعمدة خضراء مغطاة بثمانى وعشرين قبة تسير فى اتجاهين، ونافورة جميلة فى منتصفها ثلاثة أحواض.

هذا الوصف قد ينطبق على كل مساجد القسطنطينية، فهى على نفس النموذج بالضبط، والاختلاف الوحيد يكمن فقط فى المساحة وثراء

الخامات. مسجد الوالدة أكبرها جميعًا ومبنى كله بالرخام وهو أروع منها جميعا، وأعتقد أنه أجمل بناء رأيته في حياتي، ويقال إنه مكرمة لجنسنا لأن من أسسته والدة محمد الرابع. ويمكننا - لصداقتنا - أن نقول بيننا بصراحة إن كنيسة سانت بول ليست سوى بناء يثير الشفقة مقارنة به، مثل أى ميدان من ميادينا بالنسبة لميدان أتليردان ، أو إسطبل الخيل (آت بالتركية تعنى حصانًا) . كان هذا مضمارًا لسباق الخيل فى عصر الأباطرة اليونانيين العظام، فى منتصفه عمود نحاسى مكون من ثلاث حيات ملتفة على بعضها وأفواهها مفتوحة. ومن المستحيل أن تعرفى سبب إقامة مثل هذا العمود الغريب فى ذلك المكان، حتى اليونانيين ليس لديهم ما يقولونه فى هذا الصدد إلا بعض الأساطير الخرافية إذا سألهم أحد عن معناه، ولا توجد عليه أية علامة أو حتى نقش يوضح وظيفته. فى نهاية المضمار توجد مسلة من الرخام السماقى ربما جُلبت من مصر، مغطاة كلها بالكتابة الهيروغليفية، لا أرى فيها أكثر من مجرد كتابة قديمة. وهى مقامة على أربعة أعمدة نحاسية صغيرة، تحتها قاعدة مربعة من الحجر السلس مليئة بنقوش ضئيلة البروز على الجانبين، أحد المربعات يمثل معركة ، والثانى يشبهه والآخران بهما كتابة منقوشة باليونانية واللاتينية. دونت الكتابة اللاتينية فى مفكرتى وها أنا أنقلها لك ويمكن أن يفسرها لك زوجك. لا تظنى أنها رسالة حب منى إليه! فجميع التماثيل تحمل رءوسها سليمة، وقد سبق لى القول إن الرحالة الذين ذكروا قطع رءوس التماثيل هنا كاذبون

ولم يشاهدوا شيئًا بأنفسهم، وكل كتاباتهم مقتبسة من اليونانيين الذين يقاومون بشدة ما يرونه بعيونهم، فى حين يلفقون الأكاذيب للحط من شأن أعدائهم. فيقولون لك إذا سألتيهم إنه ليس فى القسطنطينية ما يستحق المشاهدة سوى سانت صوفيا رغم وجود العديد من المساجد الأكثر اتساعًا وضخامة، ومنها جامع السلطان أحمد الذى يتميز بخصوصية شديدة، فبواباته من النحاس الأصفر. وفى كل هذه المساجد يوجد مصلى صغير، وبها مقابر مؤسسيها وعائلاتهم، حولها الشموع الكبيرة.

والأسواق تقوم فى مبانٍ فخمة مليئة بالممرات الكبيرة الجميلة، المدعمة فى أغلبها بالأعمدة وهى نظيفة نظافة مدهشة. كل سلعة تجارية لها ممرها الخاص بها، والتجار يعرضون بضاعتهم بنفس طريقة نيو ماركت فى لندن. والبيزستان أو القسم الخاص ببيع المجوهرات يعرض كثيرًا من الحلى النفيسة جدا ، وكميات هائلة من أحجار الماس وكل أنواع الأحجار الكريمة التى تخطف الأبصار. وكذلك تتألق محلات بيع الأقمشة المطرزة فى بهاء، والناس يتجولون للفرجة والشراء معًا. الحوانيت فى أغلبها مربعة الشكل جميلة، وتثير الإعجاب ربما أكثر من أى سوق فى أى مكان آخر فى العالم.

أعرف أنك تتوقعين أن أحكى لك طرائف عن الجوارى، ربما يخيل إليك أننى أصبحت نصف تركية ؛ إذ لا أتحدث بنفس الطريقة التى تحدثت بها المسيحيات من قبلى. لكنى لا أستطيع أن أمنع نفسى من

الثناء على الانسانية التى يتعامل بها الأتراك مع هذه الكائنات، فهم لا يسيئون معاملتهن إطلاقًا، وفى رأيى ليست عبوديتهن أسوأ من معاملة خادمات البيوت فى أى مكان فى العالم. صحيح أنهن لا يتقاضين رواتب لكنهن يحصلن سنويًا على ملابس أكثر قيمة من الرواتب التى نمنحها لخادماتنا العاديات. لكنك ستعترضين على أن الرجال يبتاعون للنساء وعينهم الأخرى على المقابل. فى نظرى، أرى أنهم يبيعون ويشترون علنًا ويلاقون على ذلك سمعة أسوأ مما يستحقون مقارنة بما يحدث فى كل مدننا المسيحية الكبرى.

لابد أن أضيف إلى وصف القسطنطينية أن العمود التاريخى الشهير لم يعد له وجود، فقد سقط قبل وصولى بعامين. لم أر آثاراً للعصور القديمة عدا قناطر المياه، وهى شديدة الاتساع وأميل للاعتقاد أنها شديدة القدم عن عصور الإمبراطورية اليونانية، رغم أن الأتراك لصقوا عليها بعض الأحجار المنقوشة بكتابات تركية، ليضيفوا على قوميتهم مجد الأعمال العظيمة - لكن هذه الحيلة - سهلة الكشف.

من البنايات العامة الأخرى الحانات و الأديرة (تكايا الدراويش)، الأولى كثيرة جدا، والثانية قليلة فى العدد ولا تتميز بالفخامة. حدا بى الفضول أن أزور إحداها وأرى شعائر العبادة التى تتم فيها، وهى غريبة كمثيلاتها فى روما. أولئك الأشخاص لديهم تصريح بالزواج لكنهم

يرتدون ملابس غريبة وهى ليست أكثر من قطعة قماش أبيض خشن يلتفون بها، وأذرعهم وسيقانهم عارية. وهذا النظام له قوانين قليلة أخرى فيما عدا ذلك يقيمون شعائر الصلاة كل أربعاء وجمعة بالطريقة التالية: يلتقون جميعا فى قاعة كبيرة يقفون مثبتين عيونهم على الأرض، وأذرعهم مربعة، ويقرأ الإمام جزءًا من القرآن الموضوع على منبر فى المنتصف، وعندما ينتهى من القراءة يبدأ ثمانية أو عشرة منهم فى العزف على المزمار (وهى آلة موسيقية) عزفًا حزينًا. ثم يترأسهم مرة أخرى ويقوم بشرح موجز لما قرأه فيعودون للعزف والغناء حتى ينهض كبيرهم (الوحيد الذى يرتدى اللون الأخضر) ويبدأ فى رقصة وقورة. يلتفون حوله فى دائرة منتظمة، بينما يعزف بعضهم ، ويربط الآخرون ثيابهم (وهى شديدة الاتساع) ويلصقونها بشدة على خصورهم ويبدأون فى التمايل حوله فى نعومة مدهشة وهم يسايرون الموسيقى فيتحركون أبطأ وأسرع حسب الأنغام التى تعزف. يستمر هذا لمدة تتجاوز الساعة دون أن يبدى أى منهم أقل مظاهر الدوار، وهو أمر لا يثير عجبك عندما تعرفين أنهم يمارسون هذا الطقس منذ طفولتهم، فمعظمهم مكرسون لطريقة العيش هذه منذ ميلادهم، وهم أبناء لدراويش. ويتحرك بينهم دراويش صغار فى السادسة أو السابعة من العمر، و يبدون متناغمين مع الحركة التى يؤديها الجميع. فى نهاية إتمام الطقس يصيحون بصوت عال لا إله إلا الله محمد رسول الله، ثم يقبِّلون كبيرهم وينصرفون. يتم الحفل كله فى وقار وسمو شديد. ليس هناك درجة

تقشف أكثر من تلك التى يحياها أولئك الأشخاص، فهم لا يرفعون عيونهم عن الأرض إطلاقًا، ويبدو عليهم التفانى فى التأمل الروحانى. وغرابة هذا الوصف ترجع لشىء مؤثر فى جو الخضوع والتفانى الذى يبدونه.

طال هذا الخطاب بشكل مروع وتستطيعين إحراقه عندما تنتهين من قراءته.

* * *

إلى الكونتيسة ــــــ

العاشر من أبريل

أستعد الآن لمغادرة القسطنطينية، وقد تتهميننى بالرياء والنفاق عندما أقول لك إننى أشعر بالأسف لمغادرتى إياها، و قد اعتدت عليها وأتقنت لغتها، وأشعر بالراحة فيها، وعلى الرغم من حبى الشديد للترحال فقد أرانى أرتعش لفكرة القلق المصاحبة لرحلة كبيرة بها هذا العدد الكبير من الأتباع، وطفل صغير فى مرحلة الرضاع. فإننى أسعى أن تمر هذه المناسبة مثلما مر غيرها من تلك التنقلات الغريبة التى حدثت فى حياتى ، وأحولها بقدر استطاعتى لمصدر للبهجة ، ولذلك أخرج كل يوم ملتفة بالفراجية واليشمك فى دروب القسطنطينية وأسعد نفسى برؤية كل ما هو غريب فيها.

أعرف أنك تتوقعين أن يصحب هذا التصريح بعض الحكايات مما أشاهده. لكنى لست فى حال مزاجية تسمح لى بكتابة ما كتبته وكررته من قبل. فلأى غرض مثلاً أقول لك إن القسطنطينية هى بيزنطة القديمة؟ وإنها فى الوقت الحاضر محل غزو سلالة من البشر المفترض أنهم سفاحون؟ وإن بها خمسة أو ستة الآف مسجد؟ وإن مسجد القديسة صوفيا بناه الإمبراطور قسطنطين؟ وما إلى ذلك ... أؤكد لك أنها ليست مجرد رغبة فى العلم أن أتعهد بكتابة كل هذه الأشياء الجميلة. أستطيع أيضا ببعض المعاناة أن أقرأ لك كل ما كتبه نولز وسير بول ريكوت لأقدم لك قائمة بالأباطرة الأتراك، لكنى لن أحكى لك عما يمكن أن تعثرى عليه لدى المؤلفين الذين كتبوا عن هذا البلد. أنا أهتم أكثر بتناقضات أحوال المرأة لأخبرك عن زيف جزء كبير مما قرأته لدى أولئك المؤلفين، مثلاً، فى كتب السيد هيل التى تحوز الإعجاب يروى بجسارة أنه رأى فى كنيسة القديسة صوفيا عموداً ينضح بالزيت يشفى أوجاع الرأس. ليس هناك إطلاقًا أى شىء من هذا القبيل، وأظن أنه رآه فى رؤية أثناء إقامته فى سراديب المقابر المصرية، لأنى واثقة تمام الثقة أنه لم يسمع حتى بمثل هذه المعجزات هنا.

ومن المثير كذلك أن تشهدى كيف يميل هو وغيره من كتّاب الرحلات لرثاء حالة المرأة التركية التى ترسف فى القيود، ربما تكون فى واقع الأمر أكثر النساء تحرراً فى الكون، والمرأة الوحيدة فى العالم التى تستمتع بمباهج الحياة دون تدخل أو خشية، فهن يقضين أوقاتهن

فى تبادل الزيارات وارتياد الحمّامات، واللهو والإنفاق، ويخترعن أيضا أسبابًا جديدة للبهجة ، وقد يظن البعض أن رجالهن مجانين إذ يدعوهن ينفقن بهذا البذخ الذى لا يحده إلا ماتراه هى نفسها. إن مسئولية الرجل تكمن فى الحصول على المال وهى تنفقه، وهذا الكرم لا يقتصر على طبقة بعينها، بل إنه يسع حتى الطبقات الدنيا، فالرجل الذى يحمل على ظهره صرة المناديل المشغولة ليبيعها، وهو شخص فقير لا يزيد عن أقل بائع متجول، أؤكد لك أن زوجته تخجل أن ترتدى شيئًا أقل من الملابس المرصعة بالذهب ولديها ملابس من الفراء، وعلى رأسها مجموعة رائعة من الحلى والمجوهرات. صحيح أنهم ليس لديهم أماكن عامة سوى الحمّامات التركية وهناك لا يمكن اختلاط الجنسين، ومع ذلك فهى تمثل نوعًا من اللهو يستمتعن به كثيرا.

منذ ثلاثة أيام كنت فى واحد من أروع حمّامات المدينة، وحظيت بفرصة مشاهدة عروس تركية يستقبلونها هناك، وشهدت كل الطقوس التى تتم فى تلك المناسبة، مما جعل عقلى يستحضر قصيدة زفاف هيلين لثيوقراط، ويبدو لى أن تلك العادات لا زالت مستمرة هنا. كان الجمع من النساء من الصديقات والقريبات والمعارف من كلا العائلتين مندمجين معا بعد هذا التعارف الجديد ، ولقائهن فى الحمّام، وجاءت أخريات من باب الفضول وأعتقد أن ذلك اليوم كان بالحمّام ما لايقل عن مائتى امرأة. أولئك المتزوجات أو اللاتى كن متزوجات من قبل جلسن معا فى الحجرة ذات الأرائك الرخام، أما العذارى فخلعن ملابسهن بسرعة وظهرن دون

أية أردية عدا شعورهن الطويلة المجدولة باللؤلؤ والأشرطة. اثنتان منهن استقبلتا العروس عند الباب، ترافقها أمها وواحدة من قريباتها. كانت العروس فتاة جميلة فى السابعة عشرة من عمرها ترتدى ملابس فخمة وتبرق بالمجوهرات، لكنها بدت أقل جمالاً بعد ذلك بطبيعتها عندما تجردت من الحلى. امرأتان أخريان تحملان آنية فضية مذهبة مليئة بالعصير، بدأتا الطقوس وتبعتهما الباقيات اثنتان اثنتان حتى وصل عددهن إلى ثلاثين امرأة. وأولئك اللاتى يقدن الأمور كن يغنين أغانى الزفاف والباقيات يرددن خلفهن فى كورس، وآخر اثنتين قادتا العروس الجميلة وهى خافضة البصر و وجهها يتورد حياءً وسحراً، طفن حول قاعات الحمّام الثلاث الكبيرة. ليس من السهل أن أصور لك جمال هذا المنظر، معظمهن رشيقات وبيضاوات وكلهن ناعمات البشرة تماما، وأجسادهن المصقولة تلمع من كثرة استخدام الحمّام، بعد انتهاء الجولة الأولى أُقتيدت العروس مرة أخرى إلى العقيلات فى الحجرات الأخرى، فحيينها بلطف ورقة وقدمت لها كل واحدة هدية، البعض قدمنها من المجوهرات ، والبعض قدمن قطعًا من القماش أو المناديل المطرزة أو أشياء لطيفة من هذا القبيل، وقد عبّرت عن شكرها لهن بتقبيل أيديهن.

سعدت جدا برؤية هذا الحفل، وصدقينى أن السيدات التركيات شديدات الذكاء والكياسة وكذلك متحررات الفكر والثقافة مثل كثيرات من سيداتنا. صحيح أن هذه العادات نفسها هى التى منحتهن الفرص

لتوريط أنفسهن فى نزوات (إذا كان منهن من يقترف هذه النزوات) وهذا أيضا يعرِّضهن لانتقام أزواجهن عندما يكتشفون مثل تلك الأمور، وليس لدىّ أدنى شك أنهن أحيانًا يعانين بشدة جزاء أعمالهن الحمقاء وينلن عقابًا قاسيًا جدا.

منذ شهرين عُثر ساعة الفجر - ليس بعيدا عن بيتى - على جثة امرأة شابة دامية وعارية إلا من قطعة قماش ملفوفة حولها، بها جرحان أثر طعنات سكين ، إحداهما فى جنبها ، والأخرى فى صدرها. لم تكن جثتها قد بردت بعد وكانت شديدة الجمال لدرجة أن أغلب رجال بيرا ذهبوا لمشاهدتها، ولكن لم يستطع أحد التعرف عليها، فوجوه النساء غير معروفة لهم، وسرت الظنون بأنها لقيت حتفها فى القسطنطينية وتم إحضارها فى جُنح الليل وإلقاؤها فى ذلك المكان. كان التحقيق الذى تم إجراؤه حول جريمة القتل تلك تحقيقًا ضعيفًا للغاية، وتم دفن الجثة بسرية ودون ضجة تذكر. جرائم القتل هنا لا يتم استقصاؤها من قبل ضباط الملك كما يحدث لدينا، ومن شأن أهل القتيل أن يأخذوا بثأره، وإذا فضلوا تسوية الموقف مقابل المال (وهم غالبا يفعلون ذلك) ينتهى الأمر عند ذاك الحد. قد يتخيل المرء أن هذه نقيصة تتسم بها حكومتهم تسهل من تكرار حدوث هذه المآسى، ومع ذلك فهى نادرة الحدوث، وهذا يؤكد بشدة أن هؤلاء القوم ليست القسوة من طبعهم ، ولا أعتقد كذلك أنهم يستحقون الأوصاف البربرية التى نصفهم بها. أنا على معرفة جيدة بامرأة مسيحية من الطبقة الراقية اختارت بنفسها

الزواج من رجل تركى ، وهى سيدة لطيفة ومثقفة. أما قصتها فشديدة العجب، لا يمكننى إلا أن أحكيها لك، لكن أعدك أننى سأوجز بقدر استطاعتى.

إنها إسبانية وكانت تعيش فى نابلس مع أسرتها حين كانت تلك المملكة تحت سيطرة الإسبان. أتت إلى هنا فى فلوكة وبصحبتها شقيقها، قبض عليها الأميرال التركى وهاجم قاربها الشراعى وأخذه. والآن، كيف لى أن أحكى لك بكل تواضع بقية مغامرتها؟ لقد حدثت نفس الحادثة مع الجميلة لوكريتيا قبلها بسنين طويلة، لكنها كانت متمسكة بدينها المسيحى لدرجة أنها قتلت نفسها، كما فعلت تلك الرومانية الوثنية. كان الأميرال شديد السحر، حريصًا على أسيرته الجميلة التى عانت طويلاً من قبل، وكان أول موقف دمث منه أنه منح شقيقها ومرافقيه حريتهم، فأسرع بالرحيل إلى إسبانيا وفى غضون عدة شهور قليلة أرسل أربعة الآف جنيه إسترلينى كفدية لشقيقته. أخذ التركى النقود بعد أن أخبرها بها ومنحها حريتها، لكن السيدة بمنتهى الحكمة والتعقل فكرت فى المعاملة التى ستلقاها إذا عادت لوطنها ؛ لأن أقاربها الكاثوليك من المؤكد سيحبسونها فى دير حتى نهاية عمرها (حيث إن هذا أفضل شىء يمكن أن يصنعوه بها فى ظروفها الحالية). كان حبيبها التركى شديد الوسامة والحنو، مغرمًا بها، يلقى بسخاء تحت قدميها بكل عظمته التركية. فأجابته عن عزم وتصميم أن حريتها ليست أغلى عليها من شرفها، وليس أمامه من سبيل لاستبقائها غير الزواج منها،

أقنعته أن يقبل فديتها كدوطة لزواجه منها، حتى يعرف الجميع أنه لا يمكن لرجل أن يتشرف بوصالها دون زواج. انتشى الأميرال لهذا العرض الطيب وأعاد النقود لأهلها قائلاً إنه سعيد بالارتباط بها دون دوطة. تزوجها ولم يتزوج غيرها إطلاقًا. و (كما تقول هى نفسها) لأنها لم تشعر إطلاقًا بالندم على اختيارها. بعد ذلك بعدة سنوات تركها سعيًا وراء أرملة من أغنى نساء القسطنطينية، ولأنه لا ينبغى للمرأة هنا أن تبقى بلا زواج، دفعتها هذه الاعتبارات للزواج من الباشقبطان الحالى (الأميرال)، أى سلف زوجها فى عمله - أخشى أن تظنى أن صديقتى وقعت فى غرام مغتصبها، لكنى أكثر ميلاً لتصديق ما روته بنفسها، أنها تصرفت تمامًا بكل ما يمليه الشرف والكرامة على الرغم من أننى أرى منطقيًا أنها تأثرت بكرمه معها وهى صفة يتميز بها أهل هذه الطبقة من الأتراك.

وللحقيقة هى درجة من الكرم، ومن النادر جدا أن تجدى تركيًا يتصف بالزيف. أنا لا أتحدث عن الطبقات الدنيا لأن الإهمال ينتشر بينهم بشكل كبير ولا يتمسكون إلا بقليل من الفضيلة، والحيل والمكائد عندهم أرخص مما يحدث فى المسيحية، وهؤلاء البؤساء لا يعاقبون بالقسوة التى يستحقونها حتى لو انفضح أمرهم علانية.

الآن أحدثك عن قوانينهم، لا أعرف إذا كنت قد ذكرت لك من قبل إحدى العادات المعروفة فى بلادهم، أقصد التبنى، وهو أمر شائع جدا لدى الأتراك وأكثر شيوعًا بين اليونانيين والأرمن. وهم لا يفعلون ذلك مع

أخذ الأصدقاء أو ذوى القرابة عن بعد لتجنب الوقوع فى خيانة الخليفة، عندما ييأسون من إنجاب أطفال بأنفسهم يختارون طفلاً جميلاً ولداً أو بنتًا من أكثر الناس وضاعة ، ويأخذون الطفل ووالديه إلى القاضى ويعلنون أنهم يستأجرونه. فى نفس الوقت يتبرأ الوالدان من المطالبة به مستقبلاً ، وتكتب وثيقة بذلك ، ويوقع عليها الشهود ، وهكذا لا يحرم هذا الطفل من حقوقه الطبيعية فى حياة أفضل. ومع ذلك رأيت بعض المتسولين الذين يرفضون ترك أولادهم بهذه الطريقة لأغنى العائلات اليونانية (غريزة ارتباط الوالدين بالأطفال غريزة شديدة القوة لديهم) مع أن الآباء الذين يتبنون الأطفال يعاملونهم بحنو شديد ويطلقون عليهم أبناءهم بالروح. وأشهد أن تلك العادة تسعدنى أكثر بكثير مما يحدث لدينا من عبث الانتماء بالاسم. ففى ظنى أنه أكثر معقولية أن تجعل طفلاً يتيمًا سعيداً وثريًا وتمنحه تعليمًا يرضيك، وينشأ على ركبتيك (على حد التعبير التركى) فيتعلم كيف يتطلع إليك باحترام نابع من شعوره بالبنوة تجاهك ، أكثر من أن تمنح ضيعة بحالها لمخلوق دون أية ميزة أخرى أو علاقة سوى قليل من الخطابات. ومع ذلك فهذا العبث كثيراً ما يحدث بيننا.

لقد ذكرت لك الأرمن ، وربما يكون من المناسب أن أحكى لك عن هؤلاء القوم الذين لا أظنك تعرفين شيئًا عنهم. لن أزعجك بالحكى فى الأمور الجغرافية لموقع هذا البلد، تستطيعين أن ترى ذلك فى الخريطة، ولن أحكى لك عن عظمتهم فى الأزمان السحيقة، تستطيعين أن تقرئى

ذلك فى كتب التاريخ الرومانى. وهم من رعايا الأتراك وهم متفوقون فى شئون التجارة، وعدد سكانهم كبير حيث ينتشرون فى كل بقاع الدولة التركية. يحكى أنهم تبعوا الديانة المسيحية على يد القديس جريجورى وربما يكونون أكثر المسيحيين تقوى فى العالم أجمع. تقتضى التعاليم الدينية لكهنتهم فرض الحفاظ الشديد على فترات الصيام الدينية، وهى لا تقل بأى حال عن سبعة شهور فى العام، ولا يعفى منها أى شخص حتى فى أقصى حالات الضرورة، ولا توجد مناسبة مهما كانت يمكنها أن تقصيهم عن ذلك ، فلا يمسون شيئًا أكثر من بعض الأعشاب أو جذور النباتات والخبز الجاف (دون استخدام الزيوت). ذلك هو نظام الصوم عندهم. والمستر ورتلى لديه مترجم منهم، وذلك الشخص البائس نشأ على ممارسة هذه الأصوام القاسية لدرجة اليأس من الحياة. ومع ذلك فلا أوامر سيده ولا توسلات طبيبه (الذى أعلنها صراحة أنه أمر ضرورى لإنقاذ حياته) أفلحت فى إقناعه أن يأخذ ملعقتين أو ثلاث من الحساء، وهو ما يمكن أن يطلق عليه تعود ، أكثر من كونه نوعًا من الدين لا أرى كثيرا من الاختلاف العقائدى بيننا وبينهم.

يتميز الزواج بالغرابة الشديدة فى عاداتهم ، وهو طقس لا أعتقد أن له مثيلاً فى كل المعمورة؛ فهم عادة يخطبون الفتيات فى سن صغيرة جدا، وعندما يتزوجون لا يرى العريس عروسه إلا بعد ثلاثة أيام من عقد القران. يحملون العروس إلى الكنيسة وعلى رأسها قبعة على طراز معين من الخشب العريض وفوقها حجاب حريرى أحمر يغطيها تمامًا

من رأسها حتى أخمص قدميها. يسأل الكاهن العريس إذا كان يقبل الزواج من تلك المرأة، حتى إذا كانت بكماء أو عمياء، هذه هى الكلمات حرفيًا التى يجيب عليها بالموافقة، فيقودونها إلى منزله، يرافقها كل أصدقاء وأقارب الطرفين، يغنون ويرقصون، ويجلسونها على وسادة فى ركن من كنبة، لكن حجابها لا يرفعه أحد إطلاقًا ولا حتى زوجها، حتى تتم ثلاثة أيام بعد عقد القران. ثمة شىء شديد الغرابة والبشاعة فى هذا الأسلوب لدرجة أننى لم أصدق هذا حتى رأيته بنفسى فى كثير من أفراح أولئك الأرمن الذين أكدوا لى حقيقة الأمر، خاصة أحد الشباب الذى بكى وهو يحدثنى لأن والدته خطبت له فتاة يتحتم عليه أن يتزوجها بهذه الطريقة رغم أنه صرَّح لى باعتراضه على الأمر ، لدرجة أنه يفضل الموت على الخضوع لهذه العبودية، خاصة أنه رأى عروسه بالفعل وهى فى عينيه شائهة إلى أبعد حد.

أتصورك تحسدين نفسك على نعمة الله الذى لم يضعك فى مثل هذا الموقف. لا يسعنى أن أختم خطابى بالمزيد من هذه القصص المشوقة، ومع ذلك فهى حقيقية جدا مثل وجودى أنا شخصيًا على قيد الحياة.

شقيقتك ـــ

* * *

إلى الأب كونتى

القسطنطينية فى التاسع عشر من مايو ١٧١٨

أنا فى أقصى حالات السعادة لسماعى أخبارك، وقد ركبنى غير قليل من الغرور لتلك الأسئلة الطريفة التى سألتنى إياها، على الرغم من عدم قدرتى على إجابتها إجابة وافية. فى الواقع حتى لو كانت لى مقدرة إقليدس الرياضية، فالأمر يتطلب عمراً لملاحظة الهواء والبخار. وأنا لم أكمل عاماً هنا بعد، بالإضافة إلى أننى دائمة التنقل. فقدرى أن أهيم على وجه الأرض. ولو أن ذلك سيدهشك ويدهش أى شخص فإنه يدهشنى أنا أيضا بنفس القدر.

ربما تتهمنى بالكسل أو البلادة أو الاثنين معا لأننى من الممكن أن أغادر هذا المكان دون أن أمنحك بعض المعلومات عن البلاط التركى. لكنى أستطيع فقط أن أقول لك إنه إذا كان يسعدك أن تقرأ كتب السير بول ريكوت ستجد فيها موضوعات مشبعة وصادقة عن الوزراء والبكوات والحكومة المدنية ، والحكومة الدينية ، والقصر الحاكم وغير ذلك من الأمور التى من السهل جدا أن تجدها مدونة فى قائمة وتعتمد عليها فى استيقاء معلوماتك، أما غير ذلك من القصص فالله وحده يعلم - لا أقول أكثر من ذلك - مدى الحرية فى كتابة ما يرونه من ملاحظات، لكن أنماط العيش لدى البشر قابلة للتغيير ، بل إن بعضها لا يسعى الرحالة أن يلمسوه أو حتى يلاحظوه، لكن الأمر ليس بهذا الشكل فيما يتعلق بالحكومة ولأننى لا يمكننى إضافة أى جديد لن أقول شيئاً فى هذا الصدد.

وبنفس منطق الصمت هذا سنمر على ترسانة صناعة الأسلحة والأبراج السبعة، أما المساجد فقد وصفت لك سابقًا واحدًا من أرقى المساجد التى رأيتها بتفصيل شديد. لكنى لا أستطيع السكوت عما ورد من أخطاء فى كتابات الرحالة الجملى (لأننى أوقره أكثر من أى كاتب رحلات آخر) فهو يقول إنه لا توجد أية آثار لكالكيدونية ، وهذا خطأ حقيقى، كنت هناك بالأمس وعبرت المضيق على متن سفينتى ذات المجاديف، والبحر شديد الضيق بين تلك المدينة والقسطنطينية. لا زالت بلدة كبيرة وبها كثير من المساجد. والمسيحيون يطلقون عليها كالكيدونيا، أما الأتراك فيسمونها اسمًا آخر نسيته،إلا أنه مجرد تحريف لنفس الاسم. وأظن أن خطأ الرحالة يرجع للمرشد الذى كان يصاحبه وأن إقامته القصيرة عاقته عن تصحيح ذلك الخطأ، لأننى أقدره للغاية لتقييمه العادل لموضوعات كثيرة وأقدِّر صدقه ودقته فيها. إن المضيق هنا يثير البهجة، والأتراك يستمتعون تمامًا بجماله، فكل أماكن اللهو والترفيه أقاموها على ضفتيه، ويحظون فى الوقت نفسه بأروع مشهد فى أوروبا وآسيا، وبالقرب منه مئات القصور الفخمة.

إلا أن العظمة البشرية لا تزال هناك أكثر قلقًا من أى مكان آخر، فمن الشائع أن الورثة من بطانة الباشاوات الكبار ليسوا على درجة الثراء التى تخول لهم إصلاح المنازل، وفى غضون أعوام قليلة تتحول إلى خرائب. كنت بالأمس أشاهد منزل الصدر الأعظم السابق الذى قُتل فى بيتروارادين. قد بنى القصر لاستقبال عروسه الملكية، وهى ابنة

السلطان الحالى، لكنه لم يعش حتى يراها فيه. تمنيت أن أصفه لك لكنى راجعت نفسى لإدراكى أننى لن أمنحك الوصف المرجو، فهو مقام على قمة أروع مناطق المضيق، ومبنى من أخشاب جميلة على جانب تل وراءه. وشديد الاتساع ، وأكد لى الحارس أنه يحتوى على ثمانمائة غرفة، لكنى لن أؤكد لك عدد هذه الغرف لأننى لم أعدها بنفسى، لكن من المؤكد أن عددها كبير جدا، و كلها من الرخام والذهب وبأروع الرسوم والنقوش فى شكل فواكه وزهور. والنوافذ كلها من أرقى أنواع الكريستال المجلوب من إنجلترا، وكل مظاهر الفخامة والأبهة التى يمكن أن تتوقعها فى قصر مؤسس لشاب مرفه مختال بثرائه. لكن ولا جزء منه أسرنى كما أسرتنى الحجرات المصممة للحمّامات. هناك اثنتان مبنيتان على نفس الطريقة، متطابقتان تمامًا، والحمّامات والنافورات والأروقة كلها من المرمر الأبيض ، والأسقف مطلية بالذهب والجدران مغطاة بالخزف، لكن هناك حجرتان ملحقتان بهما، الجزء العلوى منهما مقسم إلى كنبة من المرمر الأبيض، حتى نهاية الحجرة من أسفل، حيث ينتهى إلى حوض كبير محاط بالأنابيب التى توصل المياه إلى أعلى بارتفاع الحجرة. و الحوائط لها طبيعة المشربية، مزروع خارجها الكروم ونباتات متعرشة تشكل نوعًا من النسيج الأخضر وتضفى على هذه الحجرات الجميلة غموضًا ساحرًا.

يخيل إلىّ أن أستمر وأحكى لك عن حجرات كثيرة (كلها جديرة بفضولك) لكن الأمر كثير الصعوبة عندما تتصدى لوصف قصر تركى

قح، مبنى كله بشكل غير منتظم بالمرة. فلا شيء يمكن وصفه بأنه واجهة المبنى أو جوانبه ، والمربك والمحير فى ظنى أنه الأجمل عندما تقع عليه عيناك إلا أنه لا يمكن أن يوصف فى خطاب لشدة غموضه. بإمكانى أن أقتصر على وصف القاعة المصممة للسلطان عندما يكون فى زيارة ابنته،الأجزاء السفلى للجدران مغطاة بالصدف المثبت بالزمرد بدلاً من المسامير. هناك حجرات أخرى مزدانة بالصدف وخشب الزيتون، والكثير من الخزف اليابانى. الأروقة - وهى كثيرة العدد وطويلة - عامرة بأوانى الزهور والأطباق البورسلين المليئة بالفاكهة من كل صنف، مصنوعة من الجص الأملس المتقن ، وملون بأسلوب بهى ، مما يترك فى النفس أثراً ساحراً. والحديقة متلائمة مع المنزل، بها الأشجار والنافورات والممرات المتناسقة فى وجودها معًا بشكل يحير الألباب. إنه قصر لا ينقصه شيء من أمور الزينة إلا التماثيل، وهكذا ترى يا سيدى أن هؤلاء القوم ليسوا على درجة قليلة من الثقافة والرقى كما تتصورهم. حقًا إن ذوقهم يختلف عن ذوقنا وربما يفوقه، وفى رأيى الشخصى أنهم يمتلكون حسًا مرهفًا للحياة، يتضح ذلك فى موسيقاهم وحدائقهم وكرومهم وأطعمتهم الشهية بينما نحن نعذب عقولنا بالخطط السياسية أو دراسة علوم لن نستطيع بلوغها إطلاقًا، وحتى إذا بلغناها لن نستطيع إقناع الناس بإرساء تلك القيم المستقاة منها والتى نقتنع بها. من المؤكد أن ما نستشعره ونراه هو مجرد شعور ورؤى توافق أمزجتنا الشخصية (هذا إن كان هناك أصلا توافق)، لكن السمعة الطيبة وحماس الإطراء من الصعب شراؤها

وحتى حين تحصل عليها لا تكافأ بما تستحق من ثواب بسبب ضياع الوقت والصحة. نحن نموت أو نشيخ فى العمر ونعجز قبل حصد ثمار جهودنا. إذا أدركنا إلى أى مدى يعتبر الإنسان حيوانًا ضعيفًا قصير العمر. هل هناك من علم ينفعنا مثل تأمل متعة وسعادة الحاضر؟ لكنى لا أجرؤ علىّ مواصلة الخوض فى هذا الموضوع، ربما لأننى بالفعل تحدثت أكثر من اللازم، لكنى أعتمد على معرفتك الحقيقية بأعماق قلبى وأستبعد نهائيًا المزح السخيف الذى قد أتلقاه كرد على هذا الخطاب من شخص سواك. فأنت قادر على تمييز فكرة السعادة عن فكرة الحزم مما يختلط فى أذهان الحمقى وحدهم. لكنى أسمح لك أن تسخر منى لتفضيلى ذلك الأفندى والمثقف التركى بكل جهله على سير إسحق نيوتن بكل علمه.

* * *

إلى الأب كونتى

تونس فى الحادى والثلاثين من يوليو ١٧١٨

غادرت القسطنطينية فى السادس من الشهر الماضى، وهذا أول خطاب أبعث به من هنا، رغم أننى تمنيت طويلاً أن تسنح لى الفرصة بنقل بعض من متعتى بهذه الرحلة عبر أجمل بقاع العالم، وكل منظر أراه يبعث فى نفسى أبياتًا شعرية.

يلتهب خيـــــالى بنبض الشـــــــعر

تطالع عيناى تلك الجزر الخالدة والبحر الشـــهير

فطالما عزفت عروس الشعر على أوتار قيثارتها

فلم يبق جبـــــــــــــل أو قمة لم تتغن به

أعتذر لك عن هذه الطفرة، وسأكمل لك حكايتى نثرًا. فى اليوم التالى بعد إبحارنا مررنا بجاليبولى وهى مدينة جميلة على خليج كيرسنسيس والأتراك يولونها كثيراً من الأهمية كونها أول بلد غزوها فى أوروبا. فى الخامسة من صباح اليوم التالى رسونا فى هيلسبونت بين قلاع سيستوس وأبيدوس، ويسمونها الآن الدردنيل، و بها حاليًا قلعتان قديمتان بلا قوة، لأنهما أسفل أرض مرتفعة خلفهم، و كان من الممكن ألا ألحظهما إطلاقًا لو لم أسمع تعليقات قبطاننا وضباطه، وراح عقلى يسبح فى خيالاته حول تلك القصة المأساوية ومن المؤكد أنك تعرفها جيدا:

ذلك العاشق السابح، وعروس الأمـاســـى

كيف عشقت هيرو، وكيف مات لياندر غرقًا

ها أنا أعود للشعر مرة أخرى! مؤكد أننى تأثرت تأثرًا شديداً بهذا الجو الشاعرى المحيط بى. ذلك أن المكان فى أبيدوس بلا أدنى شك يثير

العواطف، لدرجة أن تلك العواطف الناعمة ألقت بالقلعة فى أيدى الأتراك فى عهد الملك أوركانونس الذى حاصرها. رأت ابنة الحاكم فى رؤية فى منامها زوج المستقبل (وأشك أنها نامت فوق كعكة العروس أو صامت صيام القديسة أجنس) فتصورت أنها رأت صورته العزيزة فى شكل واحد من محاصريها، ولرغبتها فى الانقياد لقدرها ألقت إليه بورقة من فوق السور، تعرض فيها نفسها والقلعة عليه، فقدمها لرئيسه الذى حاول اختبار إخلاص نواياها ، فتراجع بجيشه وكلّف الشاب بالعودة بصحبة مجموعة منتقاة فى منتصف الليل. قابلته فى الموعد المتفق عليه، فما كان منه إلا أن حطم الحامية العسكرية وأخذ والدها أسيراً وتزوجها. تقع هذه المدينة فى آسيا، وكان أول من أسسها مجموعة جنود مارقين. أما سيتسوس فتقع فى قارة أوروبا، وكانت ذات يوم أهم مدينة فى كورنثوس. منذ رأيت ذلك البوغاز لم أجد غرابة فى مغامرة ذلك العاشق ليندر، أو جسر قوارب إكسيرسيز. إنه بوغاز ضيق جدا لا يثير الدهشة أن يحاول عاشق شاب عبوره سباحة أو أن يحاول ملك طموح عبوره بجيشه. وهذا البوغاز عرضة للعواصف مما يجعل هلاك ذلك العاشق وتحطم جسر الملك الغازى أمرًا عاديًا. ومن ذلك المكان يمكنك التطلع لجبل إيدا لتراه بأكمله.

هناك ذات مرة لاطفت جونو حبيبها جـــــــوبيتر

ووقع سيد العالم أسيراً لهذا الغرام المشـــــــبوب

لا يقبل الناس على الإبحار من هذا المكان، وقد رأيت المكان الذى دُفنت فيه المسكينة هيكوبا (الأرملة التعسة التى فقدت زوجها وأبناءها فى حرب طروادة)، لا يبعد عدة فراسخ بحراً عن هنا، وبعد حوالى فرسخ من ذلك المكان تقع رأس الإنكشارية الناتئة فى عرض البحر، الشهيرة بسيجاى حيث رسونا وأمدنى الفضول بقوة جعلتنى أتسلق قمة ذلك الجبل البارز على سطح البحر لأرى المكان الذى دُفن فيه أخيل، وجرى فيه الإسكندر الأكبر عاريًا حول مقبرته تبجيلاً له، ومما لا شك فيه أن هذا التبجيل أسعد روح أخيل. رأيت هناك أطلال مدينة كبيرة جدا ووجدنا قطعة حجر استطاع المستر ورتلى أن يميز عليها كلمات ساجان بولين. طلبنا بعد ذلك رفعها إلى ظهر السفينة، لكن كاهنا يونانيا أرانا أحجارا كثيرة غيرها أكثر غرابة، على الرغم من أنه رجل جاهل لم يستطع أن يقدم لنا أية معلومات ممكنة. فعلى جانبى كنيسته الصغيرة يوجد حجران ضخمان يبلغ طول كل منهما عشرة أقدام وعرضه خمسة أقدام وسمكه ثلاثة. الحجر الوحيد على يمين الباب من المرمر الأبيض شديد البهاء جانبه مكسو بنقوش منمنمة رائعة تصور امرأة تبدو أنها تمثل إلهة ما، جالسة على مقعد بمسند تحت قدميها وأمامها امرأة أخرى تبكى وتقدم لها طفلاً صغيراً تحمله على ذراعيها، يتبعها موكب من النساء يحملن أطفالاً بنفس الطريقة. من المؤكد أن هذا جزء من مقبرة قديمة، لكنى لا أجد تفسيراً واضحًا لها. أما الحجر القائم على الجانب الأيسر من الباب فعليه نقوش شديدة الجمال وأنا واثقة أنى

نقلتها بالضبط، لكن اللغة اليونانية أقدم ما يعرفه المستر ورتلي، وهو يظن أنه اشتراها من أحد المواطنين الفقراء، وأنها مجرد نسخة مقلدة، ويؤسفني أنها تطابق النسخة التي يمتلكها أحد معارفنا، وفي رأيه يمكن الحصول على النسخة الأصلية من أحد المواطنين الفقراء بمبلغ ضئيل من المال. لكن قبطاننا أكَّد لي أنه دون وجود ماكينات مصنوعة خصيصًا لحمل مثل هذه الأحجار الثقيلة يستحيل نقلها إلى الشاطئ، وحتى لدى وصولها للشاطئ فإن قاربه الطويل ليس كبيرًا بما يسمح بحمل هذه الأحجار.

أطلال هذه المدينة يسكنها الآن فقراء الفلاحين اليونانيين الذين يرتدون ملابس الفلاحين البسيطة، وترتدي نساؤهم جونلات قصيرة مثبتة برباط يلتف حول أكتافهن وقميصًا ذا أكمام طويلة من الكتان الأبيض وأحذية وجوارب نظيفة، وعلى رءوسهن قطعة كبيرة من الموسلين تهبط على أكتافهن في طيات طويلة - أحد أبناء وطني وهو السيد ساندريز (لا شك أنك قرأت كتابه كواحد من أفضل الكتب في مجاله) يتحدث عن هذه الأطلال زاعمًا أنها أسس مدينة بناها قسطنطين قبل ميلاد بيزنطة لكني لا أرى سببًا وجيهًا لهذا الخيال، وأميل للاعتقاد أنها أكثر قدمًا من ذلك بكثير.

رأينا من ذلك الجرف الصخري الناتئ على وجه البحر نهر سيموس نابعًا من جبل إيدا ، متدفقًا عبر واد شديد الاتساع. وقد أصبح الآن نهرًا على أهمية كبيرة ويسمى سيموريس، يلتقي عبر الوادي

بنهر سكاماندر الذى يبدو جدولاً مختنقًا بالوحل، لكنه ربما يكون أكثر طولاً فى الشتاء. كان هذا زانوس بين الآلهة كما يحكى لنا هوميروس وبذلك الاسم السمائى استحضرته الحورية أونوت إلى باريس واعتادت عذارى طروادة منحه عذريتهن باسم سكاماندر، إلى أن حدثت المغامرة التى حكاها مسيو دى لا فونتين فقضت على ذلك الطقس الوثنى. حين اتحد الجدول مع نهر السيموار وسارا معا حتى صبا فى البحر.

كل ما بقى من طروادة الآن مجرد الأرض التى كانت تقوم عليها، ومهما كانت الآثار القديمة التى يعثرون عليها هناك فهى أكثر حداثة، وأعتقد أن سترابون يقول نفس الشئ. على أى حال ثمة بعض المتعة فى رؤية الوادى ؛ حيث أتخيل المبارزة بين مينلوس وباريس، وحيث قامت ذات يوم أعظم مدينة فى العالم، ومن المؤكد أنه أروع موقع فى الوجود لعاصمة إمبراطورية عظيمة، وأنا أجدها تفوق القسطنطينية بمراحل، الميناء هنا ملائم دائما لترسو عليه السفن من كل بقاع العالم، أما ميناء القسطنطينية فلا يتاح العمل به إلا ستة شهور فى السنة حيث تسيطر عليه رياح الشمال.

إلى الشمال من رأس سيجاى رأينا رأس راتو المشهور بضريح آجاكس. بينما كنت أتطلع إلى تلك الحقول والأنهار الشهيرة أعجبت بمعلومات هوميروس الجغرافية ودقتها، وكانت فى يدى. تقريبًا كل وصف أطلقه على جبل أو سهل لا يزال كما هو، وقضيت عدة ساعات فى التأمل مثلما فعل دون كيشوت فى جبل مونتسيوس. أبحرنا ذلك

المساء إلى الشاطئ حيث يشيع خطأ أن الطرواديين حلوا هنا، وبذلت جهداً كبيراً لأكون هناك فى الثانية صباحًا وأرى فى تلك الأطلال التى يشهدها عادة الغرباء والتى يطلق عليها الأتراك إسكى استانبول أو القسطنطينية القديمة. لذلك السبب ولأسباب أخرى خمنت أنها بقايا مدينة بدأت بها القسطنطينية. استأجرت حمارًا (وسيلة النقل الوحيدة المتاحة فى المكان) لأستطيع التوغل داخل البلدة ، وقمت بجولة حول الجدران القديمة التى تمتد فى أطوال كبيرة. عثرنا على أطلال قلعة على تل، وأخرى فى وادٍ ، وكثير من الأعمدة المهدمة، وقاعدتى تماثيل نقلت من عليها بعض النقوش اللاتينية.

لا يعترينى أدنى شك أن أطلال ذلك المعبد الذى وجدناه بالقرب من ذلك المكان هى خرائب متبقية عن أحد معابد الإمبراطور أغسطس، ولا أدرى لماذا يدعوها مستر سانديز معبداً مسيحيًا، فمن المؤكد أن الرومان بنوا معابد فى هذا الجوار. هناك الكثير من المقابر المبنية من المرمر الجميل والتماثيل الكبيرة من الجرانيت يتضاءل حجمها يوماً بعد يوم بسبب القذائف الضخمة التى يصنعها الأتراك منها لمدافعهم. مررنا ذلك المساء بجزيرة تنيدوس التى كانت ذات يوم تحت رعاية أبوللو لكنه تركها بنفسه عن طيب خاطر تودداً إلى دافنى ، ومحيط قطرها لا يزيد على عشرة أميال. لكنها فى تلك الأيام كانت شديدة الثراء وآهلة بالسكان ولا تزال حتى اليوم مشهورة بخمرها الجيد. لم أقل شيئًا عن تينيس الذى تنسب إليه ، لكنى سأحدثك عن ميتايلين التى مررنا بها بعد

ذلك، لا يمكننى أن أسكت عن الحديث عن ليسبوس ، حيث غنت سافو وحكم بيتاكوس ، وهى مشهورة بمولد ألكوس وثيوفراستوس وأريون، وهم سادة الشعر والفلسفة والموسيقى. هذه واحدة من آخر الجزر التى بقيت تحت السيطرة المسيحية بعد غزو الأتراك للقسطنطينية. شعرت بالأسى ونحن نبحر بسرعة من هذه الجزيرة فى بحر إيجا، ثم الأرخبيل تاركين وراءنا سسيو (ثيوس القديمة) على يسارنا، وهى أكثر هذه الجزر ثراءً وعمرانًا بالسكان، معروفة بقطنها الجيد ، وقمحها ، وحريرها، وزراعتها لأشجار البرتقال والليمون، ولا يزال جبل آرفيس معروفًا بالعصائر التى تنتجها محاصيل هذه الجزيرة كما ذكرها فيرجيل. وهنا يُصنع أفضل حرير فى كل تركيا. البلدة جميلة العمارة، وتعرف نساؤها بجمالهن وهن يسرن سافرات الوجوه مثل المسيحيات. وتوجد بها عائلات كثيرة ثرية، رغم ذلك يحرصون على اقتصار بهائهم وغناهم داخل بيوتهم تجنبًا لغيرة الأتراك الذين يولون باشا حاكمًا هنا، على أى حال هم يستمتعون بحرية معقولة ، وهم منغمسون فى روح بلادهم.

يأكلون ويغنون ويرقصون كل أوقاتهم

يستمتعون بنضارة بساتينهم

سعداء مستبشرون بمناخهم

تحكمهم قيود خفيفة على الرغم من أنه ليس ببعيد كانوا يرزحون تحت أغلال شديدة ، فلم يقعوا تحت سيطرة الحكم التركى إلا فى عام

١٥٦٦ . لكن ربما من السهل عليهم الخضوع لحكم السلطان التركى مثل أهل جنوة الذين باعهم لها الإمبراطور اليونانى، لكنى نسيت نفسى فى هذه اللمسات التاريخية الخارجة عن سياق الموضوع الذى أكتب لك عنه. بمرورنا عبر البوغاز الواصل بين جزر أندروس وآكايا وصلنا إلى ليباديا، فرأينا رأس سونيام الجبلى على سطح البحر ويطلق عليه الآن رأس كولونا حيث تنتصب أعمدة معبد منيرفا الهائلة. هذا المشهد المهيب جعلنى أفكر بأسف مزدوج فى معبد شسيوس الجميل والذى أكد لى محدثى أنه كان موجوداً بأكمله فى أثينا حتى آخر حملة عسكرية فى اليونان ، ذلك أن الأتراك حشوه عن آخره بالبارود وحدث أن انفجر. فكرت كثيراً فى النزول إلى شبه جزيرة بيلوبونس المعروفة حالياً باسمها الحديث(موريا) لا لشىء سوى رؤية أنهار إيسوبوس، وبينيوس، وإيناكوس ، وإيروتاس، وحقول آركاديا ، وغيرها من المشاهد المرتبطة بالميثولوجيا القديمة. لكن بدلاً من أنصاف الآلهة والأبطال قيل لى بتأكيد شديد إنها الآن معقل للصوص وأنه من الخطر الجسيم أن أضع نفسى بين أيديهم بالقيام بمثل هذه الرحلة عبر مناطق مهجورة، وعلى أى حال هناك ما يمنعنى شخصياً من إزعاجك بحكى تفاصيل ذلك التاريخ بداية من تأسيس نيكانا وكورينث حتى آخر حملة عسكرية غزت المكان، أبحرنا فى هدوء عن طريق رأس آنجيليو(كان اسمها ماليا) ولم تعد هناك أية آثار لمعبد أبوللو الشهير. رأينا ذلك المساء على مرمى البصر كانديا، وهى أرض جبلية وعرة، استطعنا بسهولة تمييزها عن إيدا،

لدينا نص فيرجيل الذى يقول: كانت هناك مائة مدينة، أكبرها مدينة جنوسيوس ، التى شهدت الآلام العظيمة، كان ميتيلوس أول من غزا ذلك المكان، مكان ميلاد إلهه جوبيتر وقد وقع ذلك النص فيما بعد بين يدىَّ ، أواصل السعى وراء حكاية حصار كانديا غاضبة من نفسى لأننى سأمر بكل تلك الجزر الأخرى بهذا الإحساس المسيطر علىّ، ذلك أنه من المستحيل أن تتصور أروع من هذه الرحلة لو حدثت منذ ألفين أو ثلاثة آلاف سنة، بعدما أشرب كوب شاى قريبا من مقبرة سافو ربما أذهب فى نفس الأمسية لزيارة معبد هوميروس فى كيوس وأقضى هذه الزيارة فى المعابد العظيمة، وتوصيف تلك التماثيل، وتسجيل المعجزات، وأتبادل أطراف الحديث مع أكثر البشر تهذيبًا وأطيبهم خلقًا. واحسرتاه! انقرض الفن هنا ولم تبق إلا العجائب الطبيعية، وقد سعدت برؤية جبل إتنا سعادة كبيرة، الذى ينشر أضواءه وبركاته ليلاً لعدة فراسخ فى البحر، ويملأ دخانه الرأس بآلاف التخمينات، مررنا بترينا كريا دون أن نسمع أى شىء عن السيرانة[1] التى يصفها هوميروس، ووصلنا بأمان إلى مالطا التى كانت تسمى مليتا بسبب وفرة عسل النحل بها، وهى صخرة كبيرة مغطاة بطبقة من التراب، يعيش رئيس الفرسان هنا كأمير حاكم، لكن قوته فى البحر الآن ضئيلة جدا، والحصون حول الجزيرة أقوى تحصينات فى العالم، كلها من الحجر الصلد المصنوع بجهد وتكاليف

(١) السيرانة واحدة من مجموعة كائنات أسطورية عند الإغريق، لها رءوس نساء وأجساد طيور كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك .

غير محدودة. لدى خروجنا من هذه الجزيرة اصطدمنا بعاصفة شديدة، وأسعدنا ثانية قضاء ثمانية أيام فى البحر، وأن نلقى مراسينا فى بورثامارينا على الشاطئ الإفريقى، حيث ترسو الآن سفينتنا. التقينا هنا بالقنصل الإنجليزى الذى يعمل فى تونس. قبلت عن طيب خاطر دعوته لزيارة منزله والبقاء فيه لبضعة أيام، لأننى أتوق لرؤية هذا الجزء من العالم، خاصة أطلال قرطاج. خرجت فى عربته فى التاسعة مساء. كان القمر بدراً تماماً، رأيت البلدة كلها تقريباً كأنها فى وضح النهار، وحرارة الشمس هذه الأيام لا تطاق، من المستحيل التجوال فى أى وقت آخر. أغلب التربة رملية ، لكنها مثمرة فى كل مكان ، ومليئة بالنخيل وأشجار الزيتون والتين التى تنبت بلا عناء ومع ذلك تنتج أفضل ثمار فى العالم، وحقول الكروم ، والبطيخ مطوقة بسياج من الشجيرات التى تسمى التين الهندى ، وهى جميلة المنظر لا يستطيع أى حيوان اختراقها، وهى مرتفعة الأطوال شديدة الكثافة وأشواكها طويلة وحادة مثل الخناجر ، وتنتج ثماراً يتغذى عليها فلاحو المنطقة، وهى طيبة المذاق.

حل الآن موسم رمضان، أو فترة الصوم. والجميع هنا يصومونه، على الأقل المسلمون، فهم يصومون حتى مغيب الشمس ، ويقضون المساء فى الاستمتاع بالولائم. رأينا تحت الأشجار فى أماكن كثيرة جماعات من الفلاحين يأكلون ويغنون ويرقصون على موسيقاهم العاصفة. وهم ليسوا سود البشرة تماماً بل سمر، وتقريباً يسيرون عراة، يرتدون فقط قطعة من الصوف الخشن يلفونها حول أجسادهم،

لكن النســاء يزين أجســادهن من الذراع حـتى الأكـتـاف وأعناقـهن ووجوههن بالزهور والنجوم المرصعة وغير ذلك من الأشكال المتنوعة التى يطبعونها بالبارود، ورغم أن ذلك النوع من الزينة يلقى تقديرًا كبيرًا بينهن إلا أننى أعتقد أنهن يعانين منه وأنه يسبب لهن ألمًا كبيرًا.

على مبعدة ستة أميال من تونس رأينا القناة الرائعة التى تحمل المياه إلى قرطاج فوق عدد من الجبال المرتفعة بارتفاع يصل إلى أربعين ميلا.لاتزال بعض القناطر كما هى. قضينا ساعتين نتفحصها بانتباه شديد، وقد أكد لى مستر ورتلى أن قناطر روما أقل شأنًا منها. والأحجار هائلة الأحجام، ومع ذلك كلها مصقولة ومتلائمة أحدها مع الآخر، مع القليل جدا من الأسمنت للصقها معًا. ومن المحتمل أن تظل كما هى لألف سنة قادمة، إن لم تمتد إليها يد. بعد بزوغ الفجر مباشرة وصلنا إلى تونس وهى بلدة جميلة مبنية من الأحجار البيضاء ، لكنها تخلو تمامًا من الحدائق التى يقولون إنها تعرضت للخراب واقتطفت بساتينها من الأرض على إثر دخول الأتراك إليها، ولم يقم أحد بزراعتها منذ ذلك الحين، وكان منظر الرمال الجافة مؤذيًا للعين، كما تزداد الحاجة للظل بسبب شدة حرارة الطقس، كان من الصعب علىّ احتمالها. صحيح أنه بعد الظهر ينتشى الجو بفعل نسيم البحر وإلا كان من المستحيل العيش فى المكان، ولا توجد مياه عذبة صالحة للشرب إلا ما يحفظونه فى صهاريج من مياه الأمطار التى تسقط فى شهر سبتمبر، وتخرج نساء البلدة محجبات من رءوسهن إلى أخمص أقدامهن

فى رداء من الكريب الأسود، ولاختلاط أنسابهن يقال إن كثيرات منهن جميلات وشقراوات. فى عام ١٢٧٠ حاصر الملك لويس ملك فرنسا هذه المدينة ومات تحت جدرانها بوباء الحمى. بعد موته رفع كل من ابنه فيليب وأميرنا إدوارد بأمر من الملك هنرى الثالث الحصار عنها تحت شروط مشرفة، وبقيت تحت الحكم الطبيعى لملوكها الأفارقة حتى تعرضت لمؤمرات الخيانة على يد القائد البربرى الذى كان يعمل أميرالاى تحت إمرة سليمان الأكبر. طرد الإمبراطور تشارلز الخامس القائد البربرى لكن الأتراك أعادوه بأوامر سنان باشا فى عصر سليم الثانى. منذ ذلك الوقت وإلى الآن بقيت تونس تابعة للخليفة ويحكمها بيه يعتبر من رعايا الأتراك ، لكنه أعلن رفضه لتلك التبعية وحكمها حكمًا مطلقًا، ومن النادر أن يدفع أية جزية. وكانت مدينة بغداد فى ذلك الوقت تمر بنفس الظروف ، ويتغاضى الخليفة عن فقده لهذه الأموال خشية أن يصل الأمر لفقد تبعيتها الشكلية له.

ذهبت أمس فى الصباح الباكر (بعد نوم ساعة واحدة فقط) لرؤية أطلال قرطاج. وتعرضت للمشى تحت وقدة الشمس، لكنى استمتعت بذهابى إلى واحدة من الأماكن السرية تحت الأرض ويسمونها إسطبل الأفيال، لكنى لا أعتقد إطلاقًا أنها صُممت لهذا الغرض. وجدت فى الكثير منها قطعًا محطمة من آثار أعمدة رخامية جميلة وبعض الرخام السماقى. يعجزنى التفكير أنه يمكن لأى شخص أن يتحمل معاناة حملها إلى هذا المكان، ولا أتصور أن مثل تلك الأعمدة الجميلة صُممت

لتزيين إسطبل. أميل للاعتقاد أنها كانت أماكن إقامة صيفية تحت قصورهم، واقتضت حرارة الطقس الشديدة إقامتها تحت الأرض، والآن يستخدمها الفلاحون مخازن للقمح. عندما جلست فى ذلك المكان أتت من مدينة الخيام - والتى لا تبعد كثيرا عن المكان - كثير من نسوة تلك البلدة لرؤيتى وقد استمتعنا بمشاهدة بعضنا بعضا.

عندما انتعشت قليلاً بعد الراحة القصيرة ، وشرب بعض اللبن، وأكل الفاكهة الطازجة التى أحضروها ، لى صعدت التل الصغير حيث تقف قلعة بيرسا ، ومن هناك استطعت رؤية مدينة قرطاج الشهيرة التى تقف على برزخ من البحر يحيطها من كل جانب، وبها الآن مستنقع فى أحد جوانبها به ملاحات. وسترابون يقول إن قطر قرطاج أربعون ميلاً. لم يبق منها الآن سوى ما وصفته لك، وتاريخها معروف جيدا ولا يحتاج منى لإطالة. أنت ترى أننى أقدر الطاعة أكثر من التذمر، فقد أجبت على خطابك وقدمت لك ما طلبته منى، وعلّى أن أختتم الآن. أنوى أن أغادر هذا المكان غدا وأواصل رحلتى عبر إيطاليا وفرنسا. آمل أن أخابرك من أحد هذين المكانين وأرسل لك خطاباً كل شهر.

خادمتك المطيعة.

* * *

إلى الكونتيسة ــــ

تورين فى الثانى عشر من سبتمبر ١٧١٨

وصلت من جنوة خلال يومين، ومررت بطرق جميلة حتى وصلت إلى مكانى هذا . رأيت بالفعل كل ما يدعون الغرباء يرونه فى البلدة، وهو فى الواقع لا يستحق وصفًا خاصًا . الكنيسة جميلة وكذلك قصر الملك، لكنى رأيت مؤخرًا مثل ذلك المعمار المثالى، لذلك لم أهتم كثيرًا بتلك البنايات. المدينة نفسها جميلة البناء، مقامة على سهل جميل على ضفاف نهر البو . على مسافة قليلة منها رأينا قصور لافينرى ولافالانتيان وكلاهما منتجع جميل. أقمنا فى بياتزا رويال وهو واحد من أروع الميادين التى رأيتها، وحوله رواق دائرى جميل من الأحجار البيضاء، وسرعان ما زارنا الفارس شيفاليى الذى سبق لك أن تعرفت عليه فى إنجلترا، وبتهذيب وكياسة شديدة رجانا أن يقدمنا فى البلاط، وتقيم الأسرة المالكة الآن فى ريفولى، على بعد فرسخ من تورين. ذهبت هناك بالأمس وحظيت بشرف المقابلة الرسمية مع الملكة، قدمتنى لها وصيفة الشرف الأولى. التقيت بها فى قائمة عظيمة مع موكب من السيدات الجميلات، كلهن يرتدين الزى الرسمى، وكان من السهل تمييز أميرة كارينجنان الجميلة بينهن. حدثتنى الملكة بكثير من الرقة والمودة وبدت سيدة على قدر كبير من الفهم والمرح. لم تنس أن تذكرنى بالدماء الإنجليزية التى تجرى فى عروقها ، بل أضافت أنها دائما تشعر داخلها بحب خاص

للإنجليز. وقابلت لطفها الشديد بتلقيبها بصاحبة الجلالة، وربما لن تشعر بتلك الحميمية التى شعرت بها لسماع ذلك اللقب لشهور طويلة. يتمتع الملك بحيوية عارمة فى عينيه، وأمير بيدمونت (ولى العهد) الشاب بالغ الوسامة، لكن التقوى الشديدة التى يقع فى براثنها القصر فى الوقت الحالى لا تسمح له بممارسة اللهو والتسلية التى تناسب عمره الشاب. تعد المواكب والقداسات هى كل دلائل الأبهة ، هنا أما التودد للنساء فيعد جرمًا شديدًا، ذلك أن الكونت البائس الذى تعرفنا عليه فى لندن يعانى نبذًا شديدًا لمصارحته بعواطفه لإحدى وصيفات الشرف. أنوى المغادرة غدا والمرور بجبال الألب الوعرة، فقد سمعت عنها الكثير. إذا هبطت منها حية سأداوم على مراسلتك.

* * *

إلى السيدة ثيستيلثوايت

ليون فى الخامس والعشرين من سبتمبر ١٧١٨

لدى وصولى هنا تسلمت خطابيك الكريمين، وكذلك رسائل كثير من الأصدقاء، كانت موجهة إلىّ فى القسطنطينية ثم أُرسلت هنا لى من مرسيليا، مع صديق تاجر يعيش هناك، كان يعرف أننا بصدد العودة إلى الوطن. وقد فوجئت لدى سماعى أن شقيقتى (مار) قد غادرت

إنجلترا. وأظن أن ما كتبته لها من تورين لن يصلها، ولا أدرى إلى أين أوجِّه لها خطاباتى لأنى لم أعرف منها شخصيًا إلى أين تسافر. وعن نفسى كنت محبوسة فى حجرتى، طريحة الفراش منذ السابع عشر من الشهر الجارى حتى أمس، كنت مصابة بحمى شديدة، حتى اعتقدت لوقت طويل أن كل أسفارى تنتهى هنا، ولم أتعجب إطلاقًا أن المتاعب التى مررت بها كان لها مثل هذا الأثر البالغ فى أول يوم من الرحلة من تورين إلى نوفاليز، مررنا بمناطق ريفية جميلة بها نباتات جميلة، وهى ثرية بما حبتها الطبيعة وما أضافت لها يد الانسان. اليوم التالى بدأنا فى صعود جبل سيتى محمولين على مقاعد صغيرة مجدولة من الأغصان معلقة فى عواميد محمولة على أكتاف الرجال، وحملت أجزاؤها على ظهور البغال .

كان المشهد الرائع للجبال المسواة بجليد أبدى، والسحب معلقة أسفل أقدامنا، وسلاسل الشلالات الكثيرة تتدفق مصطدمة بالصخور بأصواتها الهادرة، كان من الممكن أن تبعث فىّ سعادة نادرة لو لم يكن البرد فى ذلك المكان لا يحتمل، والأمطار الضبابية التى تسقط باستمرار مخترقة حتى الفراء السميك الذى كنت ألتف فيه ، كدت أموت من البرد قبل أن نصل إلى سفح الجبل، ولم تمض إلا ساعتان حتى حل الظلام. هذا التل، على قمته سهل رحب وبحيرة جميلة لكن الهبوط صار شديداً، ومن المدهش أن رؤية أولئك الرجال الذين يحملون العربات التى تنقل السياح يروحون ويجيئون وأقدامهم راسخة. لذلك لم أكن أخشى أن

ينكسر عنقى مثلما خشيت السقوط فى براثن المرض، وقد أثبتت الأيام صحة توقعاتى.

ويتم عبور كل الجبال الأخرى بتلك العربات الخفيفة التى يجرها الرجال وهى غزيرة الكروم والمراعى، وتعيش عليها سلالات من أفضل الأغنام فى العالم. وبعدما دخلنا بوفوازان مباشرة واجهتنا أول بلدة فرنسية على الحدود ، ويفصل جسرها بين هذه المملكة وبين الأراضى التى تقع تحت سيطرة آل سافوى. فى نفس الليلة وصلنا هنا فى وقت متأخر، حيث لم يكن أمامى ما أفعله سوى الاعتناء بصحتى، لا أظننى بالفعل فى خطر شديد، وقد تحدد مرضى فى احتقان بالزور. مازلت أعانى منه وأظنه سيظل ملمًا بى فترة طويلة. أتوق بفارغ الصبر لرؤية الآثار القديمة لهذه المدينة الشهيرة، وأكثر توقًا لاستكمال رحلتى إلى باريس، ومن هناك أتمنى أن أكتب لك خطابًا أكثر إشراقا مما أستطيع فى ظرفى الراهن والمرض يحاصرنى بآلامه ويضعف من همتى، ورأسى مشوشة بالكآبة من ذلك الفندق الحقير والحجرة التى أقيم بها المليئة بزجاجات وقوارير الدواء.

* * *

إلى السيد بوب

ليون فى الثامن والعشرين من سبتمبر ١٧١٨

تلقيت خطاباتك ووجب علىً أن أشكرك على سرورك بخبر عودتى، ولكنى بالكاد أمنع نفسى من الغضب لحبورك لشىء يسبب لى كثيرًا من الأسى. قد ترى فى ذلك تذمرًا غير مبرر من جانبى، لكن أؤكد لك ابتهاجى من ناحية أخرى لرؤية أصدقائى، لكنها بهجة يكدرها تفكيرى أن علىّ أن أرى وأسمع ألف موضوع غير مستساغ ولا علاقة له بغيره من الموضوعات، علىّ كذلك أن أستقبل وأرد زيارات ومجاملات ودعوات شاى بينما يقتلوننى بالأسئلة، من ناحية أخرى أنا كائن عاجز عن تقديم أى شىء للآخرين إلا تفاهات الأمنيات الطيبة وأن حضورى ليس أمرًا طيبًا بالضرورة لأى فرد من مواطنىً، أعتقد ربما من الأفضل لى البقاء فى مكان يسوده السلام والهدوء ليمنح حياتى المملة بعض السعادة، ومن المؤكد أننى سأشعر بالكآبة إذا واصلت الكتابة فى هذا الموضوع سطرًا واحدًا. بل بالحرى أن أملأ ما تبقى من هذه الصفحة بالكتابة المنقوشة على الألواح النحاسية على جانبىّ مقر البلدية هنا.

رأيت أيضا خارج بوابة كنيسة القديس جوستين بعض آثار قناة رومانية، ووراء دير القديسة ماريا، عثرنا على أطلال القصر الإمبراطورى الذى ولد فيه الإمبراطور كلودياس وعاش فيه سيفروس. وتعد كاتدرائية القديس جون الكبيرة بناءً قوطيًا رائعًا، والألمان يظهرون

إعجابًا شديدًا بالساعة الموجودة بها. وفى أحد أجزاء البلدة الأكثر شهرة ينتصب تمثال الملك الراحل متعاليًا على البشر. لا يمكننى أن أتفوه بكلمة واحدة هنا عن التماثيل الفرنسية لأنى لا أنوى إطلاقًا ذكر أى واحد منها بالباروكة الذهبية المحشوة. إذا كان مقصد مليكهم التعبير من خلال هذه الأشكال عن تجاهل الذوق السليم والعجرفة، فإن تمثاله هو نفسه هناك لإظهار ذلك المزيج الغريب من صورة لعاشق عجوز تعتريه الرغبة أن يصبح بطلاً بهذا الكم من الشعر المجعد على رأسه والصولجان المذهب فى يده. لقد وضع الفرنسيون بصمات مؤثرة فى تاريخ هذه المدينة، لا حاجة بى للتعليق بشىء فى هذا الصدد. المنازل جيدة المعمار بدرجة معقولة وحدائق بل كور مزروعة على أكمل وجه، ومن هنا يمكنك الاستمتاع برؤية نهر الرون والسفن تسير على سطحه فى صورة جميلة، كان لدىّ من الوقت ما سمح لى برؤية كل ما يستحق المشاهدة بروية لإصابتى بتورم فى حلقى وآثار الحمى التى نتجت عن إصابتى بالبرد فى جبال الألب مما جعلنى حبيسة هذه البلدة عدة أيام. هددنى الأطباء هنا (المفتونون بزبونة جديدة) بكل أنواع الأمراض إذا تجاسرت وغادرتهم قبل أن يتلاشى هذا الورم، لكنى كما تعرفنى على عنادى فكرت أنه من الممكن أن أواصل طريقى إلى باريس قبل شفائي منه كأننى أعبر شوارع ليون وقررت مواصلة رحلتى غدا، على الرغم من تقارير الأطباء واحتقان حلقى.

عندما تلتقى بالليدى ريتش أخبرها أننى تسلمت خطابها وأننى سأرد عليها من باريس لاعتقادى أنه المكان الذى ترغب كثيرًا فى سماع الحكايات عنه.

* * *

إلى الليدى ريتش

باريس فى العاشر من أكتوبر ١٧١٨

لايمكننى أن أقدم لسيدتى العزيزة الليدى ريتش برهانًا على سعادتى بالكتابة إليها أكثر من اختيارى للجلوس للكتابة لك، تاركة ما عدا ذلك من كل أنواع المتع المتاحة لى ؛ مثل كم الزيارات الكثيرة المفعمة بأشكال من الحيوية والمجاملة وهو شغل للوقت يكفى للإصغاء سواء اقتضى منى الحديث والرد أم لا. زوجة السفير الفرنسى فى القسطنطينية لديها هنا عائلة محترمة وكبيرة العدد وجميعهم يأتون لزيارتى ولا يكفون عن الاستفسار عن قريبتهم. وقد أثر علىّ جو باريس تأثيرًا طيبًا وتحسنت صحتى جدا، ولم أكن بصحة جيدة بمثل هذه الدرجة من قبل برغم أننى كنت مريضة تمامًا طوال الرحلة من ليون إلى هنا. ربما تفكرين أن الرحلة كانت طيبة مما لا يدعنى بحاجة لإضافة ما يجعلنى أكرهها. لا أعتقد أن فى الوجود شيئًا أكثر رعبًا

من البؤس، إلا إذا أولى المرء القدرة على إغاثته، وكل قرى فرنسا لا تقدم شيئًا سوى هذا البؤس. عند تغيير جياد البريد يخرج أهل البلدة جميعًا يتسولون بوجوههم التى تنم عن البؤس والجوع ، وملابسهم الرثة البالية ، وهم ليسوا فى حاجة لتعبير أكثر فصاحة عن حالتهم البائسة أكثر من مظهرهم هذا الذى يجعل المرء يرثى لحالهم.
هذه هى كل عظمة فرنسا حتى تصلين إلى فونتينبلو . هناك يبدأ المرء فى إدراك مدى ثراء المملكة، عندما تشاهدين قصر الصيد الخاص بالملك وبه ألف وخمسمائة حجرة. والأجنحة الخاصة بالعائلة الملكية كبيرة جدا، ومطلية بالطلاء الذهبى برفاهية، لكنى لم أر فى العمارة أو النحت ما يستحق الذكر. قاعة العرض التى بناها هنرى الرابع بها صور لكل الأسر المالكة. وجدرانها مصممة على ذوق تلك الأيام الخوالى ، ويبدو مقارنة مع العصر الحالى شديد التواضع ، والأرض الملحقة بالقصر فى الحقيقة رائعة التشجير والرى، فالأشجار جيدة الزرع وجيدة النمو والبريكات التى يربُّون فيها السمك مليئة بسمك الشبوط، يقال إن بعضها له من العمر ثمانون عاما. والملك الأخير كان يقضى بضعة شهور من كل عام هنا، وكل الأحجار المحيطة بالقصر منقوشة بالعبارات الدينية تعبِّر عن مدى التقوى والورع الذى كان يعيشه ذلك الملك، وأعتقد أنه انتهى بوفاته، فعلى الأقل لم أر أية علامات لمظاهر هذه التقوى فى باريس، حيث يبدو أن الناس جميعًا قد انصب اهتمامهم على الاستمتاع باللحظة الراهنة.

هذه الأيام يقام مولد سانت لورانس. ولك أن تعلمى أنهم حملونى إلى هناك حملاً، وأعتقد أنه أفضل من سوق بارثليمو عندنا، فالمتاجر كلها تصطف فى صفوف مرتبة وإضاءتها جيدة، ومنظر ممتع للعين، لكنى لم أعجب إطلاقًا بعروض مهرجهم ، ولا حتى موسيقى الأوبرا التى يقدمونها التى كانت بالنسبة لى شبه صرير الباب المزعج. بعدما استمعت للأوبرا فى إيطاليا، ومسرح الأوبرا لديهم شبيه بسقيفة ماشية مقارنة بمسرح الأوبرا فى هاى ماركت ، أما المسرح العادى فليس نظيفًا كمثيله فى لينكولن، ومع ذلك لا مناص من الاعتراف أن تراجيدياتهم تفوق ما لدينا بكثير. لقد شاهدت تراجيديا بايزيد وكانت رائعة العرض، ويمكننى أن أقول إن أفضل ممثلينا بالنسبة لممثليهم يعتبرون مجرد ناطقين للحوار، أما ممثلوهم فيؤدون أعنف المشاعر وأرقاها، ومن المؤكد أن المرء تثار مشاعره لرؤية شخص تعيس ، أكثر من سماعه يحكى عن بؤسه بوجه مبتهج ومرح مفتعلاً ابتسامة غبية على قسماته، مشروع ابتسامة، أريد أن أحكى لك شيئًا عن السيدات الفرنسيات، لقد رأيت كل جميلاتهم ويا لهن من ـــ (لا يمكننى استخدام اللفظ المناسب) إنهن مخلوقات مقرفة ، مبالغات جدا فى أثوابهن ،ألوانها مبهرجة بشعة، وشعورهن قصيرة ومجعدة حول وجوههن، مفعمات بالمساحيق، ويبدون مثل الصوف الأبيض، ومن الوجنة حتى الذقن يضعن طلاءً أحمر لامعًا بلا رحمة يبرق بتوهج، مما يجعلهن بعيدات كل البعد عن شكل الوجه الإنسانى ، وأميل للاعتقاد أنهن

يستلهمن طراز ملابسهن من شاة موسومة باللون الأحمر فى سوق الغنم. من دواعى سرورى أن أتذكر عزيزاتى الريفيات، وإن كان علىَّ أن أكتب إلى أى شخص سواك لكان حرى بالذكر أن أقول إن تلك الكائنات الشبيهة بلوحات الكاريكاتير أكدت لى تقييمى الراسخ للسحر الطبيعى لسيدتى العزيزة ، ولشعرها الأسمر وبشرتها الوردية الصافية بطبيعتها.

التقيت هنا بالأب كونتى، ورغب أن أبلغك تحياته.

* * *

إلى السيدة ثيسيلثوايت

باريس فى السادس عشر من أكتوبر ١٧١٨

ها أنا ذا أكتب لك من باريس كما وعدت ، حيث فوجئت برؤية شقيقتى مار، لا أريد أن أضيف لك عن مدى سعادتى وسرورى برؤيتها، وهى أيضا لم تكن تتوقع رؤيتى (لأنها لم تتسلم رسالتى الأخيرة) وكان من المفترض أن أصف لك هذا اللقاء كما يفعل مستر دى سكودرى (*)، لكنى لن أقلد أسلوبه لدرجة بعيدة إلا لأقول لك كيف تعانقنا وإلى أى درجة تعجبت للصدفة الغريبة لعودتى من القسطنطينية فأجبتها بسؤالى

(*) مستر دى سكودرى : مؤلف فرنسى .

إياها أية مغامرة حدث بها إلى باريس ؟ وباختصار، كل الأسئلة والإجابات وأمارات التعجب والمجاملات انتهت باتفاقنا أن نسرع بالتجوال معًا، رأينا فرساى ، وتريانون ومارى ، وكنيسة سانت كلود. واستصدرت أمرًا بإغلاق النوافذ فى فرساى خصيصًا لنا وتبعنا كل الإنجليز المقيمون فى باريس إلى هناك. أعترف أن فرساى بدت لى أكثر من جميلة على الرغمن من عدم انتظام مبانيها .

خزانة الملك مزودة بالأنتيكات والميداليات بثراء فاحش، وبين كل المعروضات لم يلفت انتباهى ويسر ناظرى شىء مثل التحفة الألمانية المصنوعة من ذلك النوع من أحجار العقيق الكبيرة ، وتعد واحدة من أدق التحف التى أذكر أننى رأيتها. لاحظت بعض التماثيل القديمة القيمة لكن التملق المقرف وريشة لو برون التى تخلو من الذوق السليم يمثلان منافاة للذوق فى ذلك العرض. لن أزعم أننى قادرة أن أصف لك ذلك الجناح الكبير والتشكيلة الكبيرة من النافورات، والمسرح وبستان خرافات إيسوب، وغير ذلك . . . فمؤكد أنك قرأت عنها لكتّاب فرنسيين حصلوا على ثمن هذه الشروح والأوصاف. وسرتنى حدائق تريانو رغم صغر حجمها أكثر من فرساى، أما مارلى فهى أجمل من الاثنتين، وسانت كلود أفضل الجميع وتتميز بنهر السين فى حدائقها ويتدفق فى شلال عمودى. قد تجدين شرحًا لذلك فى الكتب التى ذكرتها لك من قبل إن شئت معرفة التفاصيل ، وكم قدم يرتفع الماء وإلى أى عمق يتدفق.

رأينا لوحات الملك فى منزل دوق دانتيان الفخم الذى اهتم بالحفاظ عليها حتى يصل جلالته لسن الرشد.عددها متواضع لكنها من رسم خيرة الفنانين. تطلعت بسعادة بالغة إلى لوحة الملاك لرافييل والتى عبّرت عن رقة مشاعر الكائنات الفوقية كما كتب عنها ميلتون تماماً. لن تغفرى لى إذا أغفلت الحديث عن حدائق التويلرى فهى أكثر روعة من حدائق القصر الملكى فى لندن ، وطرقاته ممهدة ولطيفة ، وأكثر تناسقًا من حديقة هايدبارك لدينا ، وأشجاره العالية تمد ظلالها فى أقسى درجات الحرارة ارتفاعًا. فى قصر اللوفر حظيت بفرصة رؤية الملك بصحبة الدوق الوصى، إنه طويل القامة جميل الطلعة لكنه لا يتمتع بمظهر رجل قد يحمل التاج لسنين طويلة مثل جده. والآن سأحدثك عن البلاط الملكى، ولابد أن أقول إننى لم أر شيئًا فى فرنسا أسعدنى بقدر رؤية رجل إنجليزى (على الأقل) حاكمًا بأمره فى باريس، وأعنى بذلك المستر (ل) الذى يعالج دوقاتهم ونبلاءهم من أعلى لأسفل ويتلقى منهم أعلى درجات الخضوع والاستسلام. يا للأرواح البائسة ، هذا الوضع من عبوديتهم الذليلة جعلنى أفكر فى ميادين النصر (كما يسمونها) لكنى لن أضيع وقتك ولا وقتى فى مثل هذه الحكايات لأنها متداولة بوفرة.

بشكل عام أعتقد أن باريس تفوق لندن بأرصفة شوارعها النظيفة والإضاءة المستقرة المنتظمة ليلاً ، وتناسب الشوارع، والمنازل كلها مبنية من الأحجار ، ومعظمها يخص أفراداً من الطبقات الراقية، وهى محاطة بالحدائق. لكننا من المؤكد نتباهى بمدينة تكاد تصل إلى رقعة

مدينتين من شدة اتساعها وكبر حجمها، وعندما قلت ذلك كنت أعرف أنه ليس فيها شيء يتجاوز مدننا. لن أطيل الآن ، وإذا كان لك أى طلب منى خلال إقامتى القصيرة هنا أكتبى لى بسرعة ويسعدنى جدا تلبية طلباتك.

* * *

إلى السيد بوب

السادس عشر من أكتوبر

لقد كنت أسارع الخطو فى طرقات باريس الغريبة ومناظرها العجيبة بصحبة شقيقتى، فهى على الأقل مناظر عجيبة بالنسبة لى بعد اعتيادى على وقار ورزانة الأتراك، أنظر بدهشة ولا تبدو على سماتى علامات الارتياح والألفة لدى رؤيتى لخفة ورشاقة تلك الأطياف المحلقة التى ترقص حولى هنا، وغالبًا يعترينى شعور أنى أشهد عرضًا للعرائس المتحركة يتخلله أشكال من الحياة الواقعية. أحدق مشدوهة لكن لا أحد يلحظ ذلك أو يعلق عليه، لأن الجميع هنا يحدقون هكذا، فيبدو التحديق شيئًا على سبيل المودة. هناك تحديق كنوع من الانتباه ، وتحديق من أثر المفاجأة، وسيسعدك كثيرًا أن ترى تفاهة الأمور التى تدفع الناس لهذا التحديق. كان من الأفضل أن يحدث بسبب أمور أكثر أهمية، لا تلطفه

أو تخفف من حدته الابتسامات العريضة لأن التحديق فى النهاية يدفعك للابتسام، ومن الشائع جدا رؤيتك لابتسامة نبيل من وجهاء القوم لدى دخوله للمكان، أو دخول سيدة إلى حجرة وهى تبتسم تعبيراً عن المجاملة أو القبول الاجتماعى، لكنها فى الحقيقة لا تظهر أكثر من التواء عضلات معينة فى وجهها تجعل الغريب يضحك ملء شدقيه لأن ابتساماتهم مفتعلة. الابتسامة العريضة الفرنسية تبعد كل البعد عن ابتسامة الود والترحيب وإمارات المرح الودود النابعة من القلب لشخص إنجليزى يقهقه من غير افتعال. أظن أن بقائى هنا لن يطول بدرجة كافية لتكوين فكرة عادلة عن أنماط الفرنسيين وشخصياتهم، إلا أن الأمر فى نظرى لا يتطلب كثيراً من الدرس ؛ فالأمور ليست بهذا العمق كما يبدو من النظرة السطحية، إنهم قوم عابثون قلقون، ومع ذلك متناغمون. يقول لى الأب كونتى إن المرأة هنا تشكل شخصية الرجل ، وأنا مقتنعة بهذا الرأى من خلال كل مكان دخلته وكل من لقيتهم. لا يبدو هنا أن ثمة وسطاً بين الطفولة والرجولة، لأنه بمجرد ما يتخلص الصبى من المشاية التى تساعده على السير يتلهف على العالم ، والسيدات هن اللاتى يتولين إرشاده ويكون لديه الانطباعات الأولى ، والتى تظل غالباً مغروسة داخله وهن يجعلن من الرجال أشخاصاً محط سخريتهن عندما يجعلونهم يقلدونهن فى المزاح والخفة، لذلك تجد الوقار والرزانة فى التصرفات أمراً نادراً قبل بلوغ الستين من العمر. ألم يتحدث الملك داود

فى مزاميره عن الرجل الذى يجلس فى مجلس المستهزئين؟ أظنه تحدث عن ذلك، وأنا واثقة أن هذا ينطبق تماما على الفرنسيين ـ لكنهم يسيرون بسعادة ويبدو أنهم يستمتعون بالمنظر ، ومع ذلك لا يمكن اعتبارهم أكثر سعادة من بعض كتّابنا الكبار، الذين يقطبون حواجبهم بشدة ، والذين لا تعدو حكمتهم أن تكون غالبًا مغطاة بعباءة مضببة من الكآبة والغموض.

الشىء الذى أسعدنى هنا هو منظر الأبهة المصحوبة بذوق سليم، وذلك يسود قصور وحدائق الملك ، إلا أن الهندسة المعمارية لم ترقنى كثيرا بسبب عدم التناسق، وخلوها من تناغم النسب إلا فيما يتعلق بنحت التماثيل وغيرها من أمور الديكور التى أبهجتنى كثيرا.

أثار دهشتى فى حدائق فرساى تمثال قديم ضخم للإله جوبيتر، من صنع مايرون، حمله مارك أنطونى من ساموس وأمر أغسطس بوضعه هنا فى هذه الحديقة. وهو من الرخام الفارسى، ورغم تعرضه لعوامل الزمن ما يزال يحتفظ بخطوط ملكية مدهشة. لكن المؤكد لو أن الرخام يشعر فإن ذلك الإله يفور غضبًا الآن عندما يرى نفسه ينتقل من العاصمة إلى حديقة فرنسية ، وبعد تلقيه كل هذه الحفاوة من الأباطرة الرومان الذين خلعوا أكاليلهم من على رءوسهم ووضعوها تحت قدميه لدى عودتهم من غزواتهم، ليقف الآن فى إهمال لا يتطلع إليه أحد إلا الشباب الذين يجعدون شعورهم بالمكواة.

أعتزم مغادرة هذا المكان بأسرع ما أستطيع، فلا تتوقع منى المزيد من الخطابات من هذه الضفة، بالإضافة لذلك أنا على عجلة شديدة من أمرى ورأسى تسبح فى أماكن شتى كثيرة جدا، أرانى مضطرة أن أراها بتعجل ، وقصر الوقت المتاح لى لا يسمح لى بفحصها بدقة. هنا توجد بوفرة غزيرة أعمال الزخرفة والديكور وهى على النقيض تماما مما يبدو فى الحدائق الملكية، هذه الوفرة ترجع إلى حيوية وتقلب الذوق الفرنسى الذى يركض وراء كل جديد، وعلى هذا يكوِّمون الزخارف فوق الزخارف بلا نهاية ولا مقاييس. حان الوقت على أى حال لأنهى خطابى، لذلك أتمنى لك ليلة سعيدة .

* * *

إلى الأب كونتى

دوفر فى الحادى والثلاثين من أكتوبر ١٧١٨

دعنى أقل لك إننى صدَّقت كل ما قلته لى ، ويسعدنى أن أخبرك بأسرع ما أستطيع عن عبورى آمنة. وصلت هذا الصباح دوفر بعدما تقاذفتنا الأمواج طوال الليل فى سفينة بريد منتظمة ، وكان الإبحار أمراً شديد الصعوبة ؛ لدرجة أن الربان الذى يعمل عليها مدركًا لضعفها رأى أنه من دواعى الحرص والأمان أن يلقى بالبريد فى البحر، ونوه لنا عن

مدى الخطر لسفرنا به. فطلبنا قارب صيد أصغر منه حجمًا ، بالكاد أكملنا رحلتنا به، بينما كان كل الذين على متن ذلك القارب يرفعون للسماء دعواتهم بالنجاة، ومن الصعب أن يتخيل المرء مشهدًا أكثر رعبًا من ذلك الحدث، ومع ذلك أعترف لك أننى لم أرغب إطلاقًا أن أموت غريقة ، لكنى لم أستطع منع نفسى من الشعور بالتسلية لإدراكى الخطر المزدوج الذى أحاط بإحدى المسافرات معنا. كانت سيدة إنجليزية التقيت بها فى كاليه ، رغبت أن تشاركنى قمرتى فى السفينة. كانت قد اشترت غطاء رأس بأشرطة جميلة وتريد إخفاءه من الجمارك ، عندما اشتدت الريح وبدأت الأمواج تتقاذف مركبنا الصغير، راحت تتلو صلواتها من أعماق قلبها، وحصرت تفكيرها فى إنقاذ روحها. عندما بدأت حدة الأمواج تخف عادت للاهتمام بأمور الدنيا وبغطاء رأسها وقدمت نفسها لى قائلة : "سيدتى هل لك أن تهتمى بغطاء رأسى؟ حتى لا يضيع منى! - آه، يا إلهى، سنضيع كلنا؟ الرب يرحمنى وينقذ روحى ! أرجوك يا سيدتى اهتمى بغطاء الرأس هذا" هذا الانتقال السهل من أمور الروح إلى أمر غطاء الرأس، ونوبة التغيير المفاجئة التى انتابتها جعلت من الصعب تحديد أى الأمرين يمثل لها القيمة الأكبر. لكن على أى حال لم يكن المشهد مسليًا، إنما كان من دواعى سرورى التخلص منها بالقفز إلى القارب الصغير، على الرغم من تعرضى لكسر عنقى. وحتى الآن لم يحدث لى شىء وأنا على مايرام، لكنى لا أفلح فى التخلص من التحيز. ومن المؤكد أن الانحياز الوطنى،

يفطر المرء عليه طبيعيًا، فيحول دون ودونه التجوال الذى يتيح لديه التطلع لمعرفة دون استمتاع. وكل ما نجنيه من منافع هو رغبة عقيمة لخلط مختلف المسرات ، وفرص الراحة والمنافع التى يجدها المرء فى بقاع العالم المختلفة ، والتى لا يمكن أن يجمعها كلها فى مكان واحد. بعد قراءة كل هذا فى لغات أنا أستاذة فيها، وضعف بصرى من جراء الانكباب على قراءتها ودرسها فى أنصاف الليالى، تجدنى أحسد سلام العقل البسيط الذى تعيشه عاملة فى مصنع ألبان تتمتع ببشرة متوردة، ولا تزعج نفسها بأمور غريبة يتحاور فيها المدرسون وهى تصغى فى تبتل لعظات يوم الأحد، ولا تزعج عقلها بتشوش أفكارها فيما يتعلق بواجباتها الطبيعية التى تأتيها من أسئلة المتعلمين العقيمة والذين قد يكونون أكثر علمًا لكنهم فى نهاية الأمر لابد أن يظلوا على جهل، وبعد رؤية جزء من آسيا وأفريقيا وتقريبًا جولة فى أوروبا ، أعتقد أن السيد مالك الأرض فى الريف الإنجليزى سعيد بيقينه أن الخمور اليونانية أقل شهية من جعة مارس، وأن الفواكه الأفريقية ليس لها ذلك الطعم الرائع الذى يتميز به التفاح الذهبى، وأن طعم أى طبق إيطالى لا يضارع مذاق قطعة لحم من كفل بقرة، وباختصار ليست هناك متعة مثالية فى هذه الحياة خارج إنجلترا العزيزة. أرجو من الله أن يظل تفكيرى على هذا المنوال ما تبقى من عمرى، ولأنى مضطرة أن أرضى بالقليل المتاح من ضوء النهار، ربما علىّ أن أنسى شمس القسطنطينية المفعمة بالحياة.

المترجمة فى سطور

إيزابيل كمال

شاعرة ، ليسانس آداب قسم لغة إنجليزية ، دبلوم الأدب المقارن .

لها العديد من الكتب المترجمة صدرت عن المجلس الأعلى للثقافة منها كتاب "القصص التى يحكيها الأطفال"، وقد حصل هذا الكتاب على جائزة الدولة التشجيعية .

وصدر لها كتب مترجمة عن الهيئة العامة للكتاب، آخرها مجموعة قصص لهانز أندرسون، والقلعة البيضاء لأورهان باموق ، كما صدر لها كتب مترجمة عن الهيئة العامة لقصور الثقافة .

صدر لها حديثًا ديوان شعر بعنوان « دراما دراما العتبات » عن الهيئة العامة لقصور الثقافة .

المراجعة فى سطور

أ.د. فاطمة موسى

- أكاديمية وناقدة ومترجمة .

- حاصلة على الدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٥٧ برسالة موضوعها "الحكاية الشرقية فى الأدب الإنجليزى ١٧٨٦ - ١٨٧٤ .

- رئيسة قسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة (١٩٧٢ - ١٩٧٨)

- مقررة لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

- من مؤلفاتها باللغة العربية : بين أدبين : دراسات فى الأدب العربى والإنجليزى (١٩٦٥) - وليم شكسبير شاعر المسرح (١٩٦٩) - فى الرواية العربية المعاصرة (١٩٧٢) - مسيرة الأدب الإنجليزى للقارئ العربى (١٩٩٧) نجيب محفوظ وتطور الرواية العربية (١٩٩٩) - سحر الرواية (٢٠٠٠) ، ومن مؤلفاتها بالإنجليزية : سسير وليم جونز والرومانتيكيون (١٩٦٠) - الرواية العربية فى مصر من ١٩١٤ إلى ١٩٧٠(١٩٧٠) ، ولها أكثر من ثلاثين بحثًا بالإنجليزية عن موضوعات مختلفة ، ومن أشهر ترجماتها : رواية نجيب محفوظ "ميرامار " (١٩٧٨) ومسرحية "الملك لير" لشكسبير (١٩٦٨) ،

كما أشرفت على إصدار خمسة أجزاء من قاموس المسرح (الهيئة المصرية العامة للكتاب) ١٩٩٦ : ١٩٩٩.

- حاصلة على جائزة الدولة التقديرية فى الأدب (١٩٩٨).

المؤلفة فى سطور

ليدى مارى ورتلى مونتجو

كانت الكاتبة فى السابعة والعشرين من عمرها عندما رحلت مع زوجها أول سفير لبريطانيا لدى الباب العالى ، أرستقراطية جميلة مثقفة من أسرة من النبلاء – توفيت عنها أمها فى طفولتها ، وعاشت فى كنف أبيها الدوق الذى أطلق لها العنان فى مكتبته العامرة ؛ فحصلت من المعارف مالا يتاح عادة للنساء فى عصرها ، قرأت ملاحم هوميروس وفيرجيل وتاريخ الأقدمين وحروبهم وفتوحاتهم .

لم تطبع رسائل ليدى مارى مباشرة بعد عودتها ، وأضافت إليها عدداً جديداً من الرسائل ، وتم تداولها على نطاق واسع فى حياتها ، إلا أن مجموعة رسائلها لم تطبع إلا بعد وفاتها .

كانت قد سلمتها إلى نشار فى هولندا إلا أن زوج ابنتها لورد بيوت استعادها منه ، وظهرت طبعات متعددة بعد ذلك لم تعتمدها الأسرة ، أحرقت ابنة ليدى بيوت اليوميات والمذكرات التى خلفتها أمها إلى جانب بعض الرسائل ، لأن "بها ما قد يسىء إلى عدد من الشخصيات البارزة فى عصرها ".

صدرت الرسائل فى طبعات لم تعتمدها الأسرة فى القرن الثامن عشر ، حتى صدرت لها طبعة شاملة عام ١٨٣٧ مأخوذة من وثائق الأسرة تحوى حسب العنوان :

In droductory Anecdotes by Lady Bute's Daguhter, Lady Louisa Stuart

اعتمدت مكتبة Everyman على تلك الطبعة الأخيرة عندما ضمت رسائل ليدى مارى إلى قوائمها ١٩٠٦.

التصحيح اللغوى : مسعود حجازى
الإشراف الفنى : حسن كامل





استطاعت ليدى مارى وتلى مونتجو دخول البيوت التركية والتقت بالسيدات فرأت وعرفت ما كان - حسب قولها - يستحيل على غيرها من الرحالة أن يعرفوه من عادات وتقاليد وأسلوب العيش والحياة التى تحياها المرأة المسلمة التركية فى القرن الثامن عشر، وكانت ليدى مونتجو على درجة عالية من الثقافة والمعرفة وبُعد الرؤية بدرجة سابقة لبنات عصرها فوصفت بشكل حيادى يخلو من الكره والتحيز ضد المسلمين ومن وجهة نظرها أن المرأة المسلمة كما رأتها فى القرن الثامن تستمتع بحرية لا تحصل عليها المرأة الأوروبية غير المسلمة ، ومن هذه الرسائل نرصد تنوع ثقافتها وتنوع أصدقائها ، وهى ترسل لكل منهم المادة المناسبة لاهتماماته ، فترسل للنساء وصف تفصيلى للملابس والحُلى التى تتزين بها المرأة وتصف البيوت من الداخل والخارج كما ترسل لأصدقائها المثقفين ومنهم الشاعر ألكسندر بو رسائل تتحدث عن موضوعات أخرى مثل فن المعمار وغير ذلك مما يهتم به الشعراء.

وتقول ليدى مونتجو: إنها لم تستغل الميزة التى يتمتع بها الرحالة من كذب وخيال واكتفت فقط بذكر الحقائق، ورأت أن الحقيقة فيها ما يكفيها من جمال وليست فى حاجة لإضافات من الخيال .

والكتاب فى مجمله يقدم لنا صورة متعددة الأوجه عن الحياة فى الدولة العثمانية فى القرن الثامن عشر.

لوحة الغلاف: خوسيه تابيروت بارا

الغلاف: هشام نوار